(٥) أحمر أسود

تفسير سورة الرعد

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم
بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ
صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ
أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾

[الرعد: ١-٥]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿عَمَدٍ - ٱسْتَوَىٰ - وَسَخَّرَ - لِأَجَلٍ مُّسَمًّى - يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ - يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ - تُوقِنُونَ - مَدَّ ٱلْأَرْضَ - رَوَٰسِىَ -يُغْشِى - قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ - وَجَنَّٰتٌ - صِنْوَانٌ - وَغَيْرُ صِنْوَانٍ - ٱلْأُكُلِ - تَعْجَبْ - خَلْقٍ جَدِيدٍ - كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ - ٱلْأَغْلَٰلُ - أَعْنَاقِهِمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿عَمَدٍ﴾	أعمدة.
﴿ٱسْتَوَىٰ﴾	علا وارتفع.
﴿وَسَخَّرَ﴾	ذلَّلَ.
﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾	لوقت معين مُحدد.
﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾	يرتب أمور الخلائق ويُدبرها.
﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾	يوضح الآيات ويبينها ويفصل بعضها عن بعض لتفهم.
﴿تُوقِنُونَ﴾	تصدقون تصديقًا تامًّا.
﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾	بسط الأرض.
﴿رَوَٰسِىَ﴾	جبالًا راسية.
﴿يُغْشِى﴾	يغطي.
﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾	قطع من الأرض مختلفة متنوعة يجاور بعضها بعضًا.
﴿وَجَنَّٰتٌ﴾	حدائق وبساتين.

(٧) أحمر أسود

﴿صِنۡوَانٞ﴾	نخلتان أصلهما واحد، تلتقيان في الجذع، والأصل، أو أكثر من نخلتين تشتركان في الأصل.
﴿وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾	كل نخلة قائمة على انفراد.
﴿ٱلۡأُكُلِ﴾	الطُعوم.
﴿تَعۡجَبۡ﴾	تتعجب.
﴿خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾	بعث بعد الموت، حياة بعد الموت.
﴿كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾	جحدوا وحدانية ربهم وكفروا بنعمه.
﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾	الأطواق.
﴿أَعۡنَاقِهِمۡ﴾	رقابهم



(٨) أحمر أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾.

ج: أما قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ﴾ فقد تقدم الكلام على الحروف المقطعة مرارًا، أما سائر الآية الكريمة ففي تأويله وجوه:

أحدها: تلك التي نقصصها عليك من الأخبار هي آيات موجودة بنحوها في الكتاب الذي أُنزل من قبلك، والمراد بالكتاب التوراة، وقيل الإنجيل، وقيل: الكتاب اسم جنس يشملهما.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: القرآن الذي أُنزل إليك من عند الله الحق الذي لا مرية فيه، ولا شك ولا ارتياب، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به ولا يصدقون أنه من عند الله.

الثاني: تلك التي نقصها عليك من القصص والأخبار والمواعظ وغيرها آيات القرآن، وهذه الأخبار وهذا القرآن الذي تضمنها هو الحق من عند الله، ولكن أكثر الناس لا يصدقون.

الثالث: ﴿الٓمٓرۚ﴾ وهي أحرف مقطعة تقرؤونها وتكتبونها هي التي أُلفت منها آيات الكتاب الذي أنزل عليك والذي هو الحق، ومع كون الناس يعرفونها يقرؤونها ويكتبونها إلا أنهم لا يستطيعوا أن يأتوا منها بآية ولا بسورة، ومع ذلك فإنهم لا يصدقون بأنها من عند الله، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يقول تعالى ذكره: تلك التي قصصت عليك خبرَها، آيات الكتاب الذي أنزلته قبل هذا الكتاب الذي أنزلته إليك إلى من أنزلته إليه من رسلي قبلك.

وقيل: عنى بذلك: التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ القرآن، فاعمل بما فيه واعتصم به.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولو قيل: معنى ذلك: تلك آيات الكتاب الذي أنزل إليك من ربك الحق وإنما أدخلت الواو في ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾، وهو نعت للكتاب، كما أدخلها الشاعر في قوله:

إِلَى المَلِكِ القَرْمِ وَابْنِ الهُمَامِ ... وَلَيْثَ الكَتِيبَةِ فِي المُزْدَحَمْ

فعطف بـ«الواو»، وذلك كله من صفة واحد، كان مذهبًا من التأويل.

ولكن ذلك إذا تُؤُوِّل كذلك فالصواب من القراءة في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الخفض، على أنه نعت لـ ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾ ولكن أكثر الناس من مشركي قومك لا يصدقون بالحقّ الذي أنزل إليك من ربك، ولا يقرّون بهذا القرآن وما فيه من محكم آيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.



(١٠) أحمر
أسود

أكثر الناس ليسوا بمؤمنين

س: اذكر ما يدل على أن أكثر الناس بعيدين عن الإيمان والطاعة؟

ج: من ذلك ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾.

* **وقوله تعالى:** ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

* **وقوله تعالى:** ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣].

* وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦].

* وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص: ٢٤].

إلى غير ذلك.



(١١) أحمر
أسود

شيءٌ من البيان عن عظمة الله ﷻ وقدرته

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: الله الإله الحق هو الذي رفع لاسموات بغير أعمدة نراها ثم علا على العرش وسخر الشمس والقمر وذلك أنهما يجريان بحساب كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن: ٥] وكما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٨-٣٩].

فالشمس والقمر، والقمران مسخران يجريان لوقت حدده الله وعنده يتوقفان لا يجريان، بل تكور الشمس كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير: ١] يضم بعضها إلى بعض ويلف بعضها على بعض كما قال رسول الله ﷺ: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة»[١].

أما قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمر السموات والارض وما بينهما من المخلوقات، وامر بني آدم من ثمَّ فيرفع هذا ويخفض ذاك، ويغني هذا ويبتلي ذاك ويصحح ويعافي ويسقم ويمرض ويعزُّ ويُذل ويُكرم ويُهين، ويُحيي ويُميت إلى غير ذلك من صور التدبير فيفعل ما يريد ويقضي في السموات والأرض وما بينهما بما يشاء.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يوضحها ويبينها لعلكم توقنون بلقاء الله يوم القيامة، وتعلمون أنه قادر على بعثكم بعد موتكم وتوقنوا بذلك وتتأكدوا منه.

---

(١) البخاري (٣٢٠٠).

(١٢) أحمر
أسود

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الله، يا محمد، هو الذي رفع السموات السبع بغير عَمَد ترونها، فجعلها للأرض سقْفًا مسموكًا.

و«العَمَد» جمع «عمود»، وهي السَّواري، وما يعمد به البناء، كما قال النابغة:

وَخَيِّسِ الجِنَّ إنِّي قَدْ أذِنْتُ لَهُمْ   يَبْنُونَ تَدْمُرَ بِالصُّفَّاحِ وَالعَمَدِ

وجمع «العمود»: «عَمَد»، كما جمع الأديم: «أدَم»، ولو جمع بالضم فقيل: «عُمُد» جاز، كما يجمع «الرسول» «رسل»، و«الشَّكور» «شكر».

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾.

فقال بعضهم: تأويل ذلك: الله الذي رفع السموات بعَمَدٍ لا ترونها.

وقال آخرون: بل هي مرفوعة بغير عمد.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ فهي مرفوعة بغير عمد نَراها، كما قال ربنا جل ثناؤه. ولا خبر بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ فإنه يعني: علا عليه.

وقد بينا معنى الاستواء واختلاف المختلفين فيه، والصحيح من القول فيما قالوا فيه، بشواهده فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ يقول: وأجرى الشمس والقمر في السماء، فسخرهما فيها لمصالح خلقه، وذلَّلهما لمنافعهم، ليعلموا بجريهما فيها عدد السنين والحساب، ويفصلوا به بين الليل والنهار.

وقوله: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ يقول جل ثناؤه: كل ذلك يجري في السماء

﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾: أي: لوقت معلوم، وذلك إلى فناء الدنيا وقيام القيامة التي عندها تكوَّر الشمس، ويُخْسف القمر، وتنكدر النجوم.

وحذف ذلك من الكلام، لفهم السامعين من أهل لسان من نزل بلسانه القرآن معناه، وأن ﴿كُلٌّ﴾ لا بدَّ لها من إضافة إلى ما تحيط به.

وبنحو الذي قلنا في قوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ قال أهل التأويل.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يقول تعالى ذكره: يقضي الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها أمورَ الدنيا والآخرة كلها، ويدبِّر ذلك كله وحده، بغير شريك ولا ظهير ولا معين سُبْحانه.

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ يقول: يفصل لكم ربُّكم آيات كتابه، فيبينها لكم احتجاجًا بها عليكم، أيها الناس ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ يقول: لتوقنوا بلقاء الله، والمعاد إليه، فتصدقوا بوعده ووعيده، وتنزجروا عن عبادة الآلهة والأوثان، وتخلصوا له العبادة إذا أيقنتم ذلك.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقواما ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقيل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره.

وينزل الكتب الإلهية على رسله ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها، ﴿لَعَلَّكُم﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية والآيات القرآنية، ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ

تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصا في العقائد الكبار، كالبعث والنشور والإخراج من القبور.

وأيضا فقد علم أن الله تعالى حكيم لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم عبثا، فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيهم، فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحل فيها جزاؤه، فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي المسيئين بإساءتهم.



هل السموات مرفوعة بأعمدة؟

س: هل السموات مرفوعة بغير عمدٍ أم بعمدٍ ولكننا لا نراها؟

ج: في ذلك وجهان لأهل العلم فمنهم من قال: بعمدٍ لا تُرى، ومنهم من قال بغير عمدٍ من الأصل، والظاهر - والله أعلم- أننا نلزم قول الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ [لقمان: ١٠] وما وراء ذلك يعلمه الله.



مزيدٌ من الدلالات على قدرة الله ووحدانيته وعظمته

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: والله هو الذي بسط الأرض طولًا وعرضًا وجعل فيها جبالًا رواسي كي لا تميد الأرض بنا ولا تتحرك، وكذلك فإنه ﷻ شقَّ فيها أنهارًا تجري بالمياه، ومن كل اثمرات جعل في الارض صنفين ذكرًا وأُنثى، يجعل الليل يغطي النهار بظلامه، وجيعل النهار يغطي الليل بضيائه إن في ذلك لدلالات على وحادنية الله ﷻ وقدرته لقوم يتفكرون في خلق السموات والأرض وفي خلق أنفسهم ويتفكرون فيما يقربهم من الله.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله الذي مَدَّ الأرض، فبسطها طولا وعرضًا.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ يقول جل ثناؤه: وجعل في الأرض جبالا ثابتة.

و«الرواسي:»جمع«راسية»، وهي الثابتة، يقال منه:«أرسيت الوتد في الأرض»: إذا أثبته، كما قال الشاعر:

بــهِ خَالِــدَاتٌ مَــا يَــرِمْنَ وهَامِــدٌ وَأَشْــعَثُ أَرْسَــتْهُ الوَلِيــدَةُ بِــالفِهْرِ

يعني: أثبتته.

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ يقول: وجعل في الأرض أنهارًا من ماء.

وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ فـ«من» في قوله ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ من صلة ﴿جَعَلَ﴾ الثاني لا الأول.

ومعنى الكلام: وجعل فيها زوجين اثنين من كل الثمرات. وعنى بـ ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: من كل ذكر اثنان، ومن كل أنثى اثنان، فذلك أربعة، من الذكور اثنان، ومن الإناث اثنتان في قول بعضهم.

وقد بينا فيما مضى أن العرب تسمي الاثنين: ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾، والواحد من الذكور «زوجًا» لأنثاه، وكذلك الأنثى الواحدة «زوجًا» و«زوجة» لذكرها، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

ويزيد ذلك إيضاحًا قول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم: ٤٥] فسمى الاثنين الذكر والأنثى ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾.

وإنما عنى بقوله: ﴿زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، نوعين وضربين.

وقوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾، يقول: يجلِّل الليلُ النهارَ فيلبسه ظلمته، والنهارُ الليلَ بضيائه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾، يقول تعالى ذكره: إن فيما وصفت وذكرت من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء، لَدلالات وحججًا وعظات، لقوم يتفكرون فيها، فيستدلون ويعتبرون بها، فيعلمون أن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا لمن خلقها ودبَّرها دون غيره من الآلهة والأصنام التي لا تقدر على ضر ولا نفع ولا لشيء غيرها، إلا لمن أنشأ ذلك فأحدثه من غير شيء تبارك وتعالى وأن القدرة التي أبدع بها ذلك، هي القدرة التي لا يتعذَّر عليه إحياء من هلك من خلقه، وإعادة ما فني منه وابتداع ما شاء ابتداعَه بها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أي: من كل

شكل صنفان.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ﴾ أي: جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضا في الزمان كما تصرف في المكان والسكان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ أي: في آلاء الله وحكمته ودلائله.



س: وضح منى قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وفي الأرض قطع متدجاورات، قطع من الأرض يختلف بعضها عن بعض، فهذه أرض طيبة صالحة للزراعة حسنة الإنبات، وهذه أرض سبخة، وذات مُلوحة لا تنبت كلأً، وثمَّ أرض رملية لا تُمسك ماءًا ولا تنبت كلأً، وهذه صخور وأحجار، ثم هذه جبالات جُدد بيض وحمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود إلى غير ذلك من صور الاختلاف في الأرض، كل ذلك دال على قدرة الله ﷻ ووحدانيته وفي الأرض كذلك حدائق وبساتين من أعنابٍ وكذا الزروع بجميع أصنافها، والنخيل الذي منه صنوان، أي: نخلتان أو أكثر مشتركتان في الأصل وغير صنوان كل نخلة قائمة بذاتها، وكل ذلك يُسقى بماءٍ واحدٍ، ولكن الطعوم مختلفة فهذا حُلو مستساغ، وهذا مرٌّ حامضٌ ولا مستساغ هذا جميل ولذيذ ونافع ومفيد، وهذا دون ذلك إن في ذلك لدلالات على وحدانية الله ﷻ وقدرته ولكنها دلالات وآيات لقوم يعقلون ويفهمون، أما الذين لا يتدبرون ولا يتفكرون فهؤلاء لا يستفيدون شيئًا من هذه الآيات، ولا من تلك الدلالات إن هم إلا

كالأنعام بل هم أضل سبيلًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾، وفي الأرض قطع منها متقاربات متدانيات، يقرب بعضها من بعض بالجوار، وتختلف بالتفاضل مع تجاورها وقرب بعضها من بعض، فمنها قِطْعة سَبَخَةٌ لا تنبت شيئًا في جوار قطعة طيبة تنبت وتنفع.

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ يقول تعالى ذكره: وفي الأرض مع القطع المختلفات المعاني منها، بالملوحة والعذوبة، والخبث والطيب، مع تجاورها وتقارب بعضها من بعض، بساتين من أعناب وزرع ونخيلٍ أيضًا، متقاربةٌ في الخلقة مختلفة في الطعوم والألوان، مع اجتماع جميعها على شرب واحد. فمن طيّبٍ طعمُه منها حسنٍ منظره طيبةٍ رائحته، ومن حامضٍ طعمه ولا رائحة له.

وأما قوله: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾.

فإن «الصنوان»:جمع «صنو»، وهي النخلات يجمعهن أصل واحد.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن البراء قال: ﴿صِنْوَانٌ﴾ المجتمع، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾: المتفرِّق.

وفي رواية عن البراء بسندٍ صحيح أيضًا:«الصنوان»: النخلتان أصلهما واحد، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ النخلة والنخلتان المتفرّقتان.

وأورد الطبري بسندٍ فيه مقال يسير عن الحسن قال: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم. كانت الأرض في يد الرحمن طينةً واحدة، فسطحها وبَطَحها، فصارت الأرض قطعًا متجاورة، فينزل عليها الماء من السماء، فتخرج هذه

(١٩) أحمر
أسود

زهرتها وثمرها وشجرها. وتخرج نباتها وتحيي مواتها، وتخرج هذه سبَخَها وملحها وخَبَثَها، وكلتاهما تسقى بماء واحد.

فلو كان الماء مالحا، قيل: إنما استسبخت هذه من قبل الماء! كذلك الناس خلقوا من آدم، فتنزل عليهم من السماء تذكرة، فترقّ قلوب فتخشع وتخضع، وتقسو قلوب فتلهو وتسهو وتجفو.

قال الحسن: والله من جالس القرآن أحدٌ إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢].

وأورد قراءتين في يُسقى، وتُسقى بالياء والتاء وقال في معنى قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ أي: جميع ذلك يسقى بماءٍ واحدٍ عذبٍ دون المالح.

وقال في قوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ بعد أن أورد قراءتين في قوله: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾، وهي نُفضِّل ويُفضَّل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومعنى الكلام: إن الجنات من الأعناب والزرع والنخيل الصنوان وغير الصنوان، تسقى بماء واحد عذب لا ملح، ويخالف الله بين طعوم ذلك، فيفضّل بعضها على بعض في الطعم، فهذا حلو وهذا حامضٌ.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ يقول تعالى ذكره: إن في مخالفة الله ﷻ بين هذا القطع من الأرض المتجاورات وثمار جناتها وزروعها على ما وصفنا وبينَّا، لدليلا واضحًا وعبرة لقوم يعقلون اختلاف ذلك، أن الذي خالف بينه على هذا النحو الذي خالف بينه، هو المخالف بين خلقه فيما قسم لهم من هداية وضلال وتوفيق وخذلان، فوفّق هذا وخذل هذا، وهدى ذا وأضل ذا، ولو شاء لسوَّى بين جميعهم، كما لو شاء سوَّى بين جميع

(٢٠) أحمر
أسود

أكل ثمار الجنة التي تشرب شربًا واحدًا، وتسقى سقيًا واحدًا، وهي متفاضلة في الأكل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ أي: أراض تجاور بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئا. هكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم.

وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ فيكون ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب، فيكون مجرورا؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الحديث الصحيح: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ: «**أَمَّا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ؟**»[(١)].

ثم قال بعد أن أورد حديثًا ضعيفًا لا يثبت عن رسول الله ﷺ:

أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وألوانها،

(١) مسلم (٩٨٣).

وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها.

فهذا في غاية الحلاوة وذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة وذا عفص، وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى. وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكبير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذلك آيات لمن كان واعيا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: وإن تعجب يا رسول الله من هؤلاء الذين يعبدون الأصنام والأوثان ويسجدون للأشجار والأحجار، فثمَّ أمر آخر عجبٌ يدعو إلى التعجب من عقولهم الفاسدة وأفهامهم القاصرة، ألا وهو قولهم: أئذا كنا ترابًا بعد مماتنا، وتفرقت أجسادنا وأصبحنا رميمًا أنُبعث خلقًا جديدًا ونحاسب ونثاب أو نعاقب؟!!

فأولئك يا رسول الله هم الذين جحدوا خالقهم وأنكروا وحدانيته وأنكروا قدرته على البعث وهو رب الخالق القادر المحيي المميت المعز المذل الذي له صفات الكمال.

وأولئك تجعل في أعناقهم، في رقابهم الأغلال، وقيل: تضم الأيدي إلى

الرقاب وتوضع من الرقاب في طوقٍ واحد يحيط بالرقاب، فترتفع أعينهم ووجوههم إلى أعلى ثم سلاسل في هذه الأطواق يسحبون بها إلى النار والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [يس: ٨]، وقال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [غافر: ٧١].

وهؤلاء المشركون الجاحدون المنكرون للبعث هم أصحاب النار الذين يمكثون فيها أبد الآبدين فيخلدون فيها، ولا يخرجون منها، ولا يموتون فيها ولا يحيون.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ يا محمد، من هؤلاء المشركين المتَّخذين ما لا يضرُّ ولا ينفع آلهةً يعبدونها من دوني ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا ﴾ وبَلِينا فعُدِمنا ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ إنا لمجدَّدٌ إنشاؤنا وإعادتنا خلقًا جديدًا كما كنا قبل وفاتنا!! تكذيبًا منهم بقدرة الله، وجحودًا للثواب والعقاب والبعث بعد الممات.

عن قتادة، قوله: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ ﴾ إن عجبت يا محمد، ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾، عجب الرحمن تبارك وتعالى من تكذيبهم بالبعث بعد الموت.

ابن زيد في قوله: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ قال: إن تعجب من تكذيبهم، وهم قد رأوا من قدرة الله وأمره وما ضرب لهم من الأمثال، فأراهم من حياة الموتى في الأرض الميتة، إن تعجب من هذه فتعجَّب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾، أو لا يرون أنا خلقناهم من نطفة؟ فالخلق من نطفة أشدُّ أم الخلق من ترابٍ وعظام؟.

قال الطبري:

واختَلَف في وَجْه تكرير الاستفهام في قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، بعد الاستفهام الأول في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾، أهلُ العربية.

فقال بعض نحويي البصرة: الأوّل ظرف، والآخر هو الذي وقع عليه الاستفهام، كما تقول: أيوم الجمعة زيدٌ منطلق؟ قال: ومن أوقع استفهامًا آخر على قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾، جعله ظرفًا لشيء مذكور قبله، كأنهم قيل لهم:«تبعثون»، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾؟ ثم جعل هذا استفهامًا آخر. قال: وهذا بعيدٌ. قال: وإن شئت لم تجعل في قولك: ﴿أَءِذَا﴾ استفهامًا، وجعلت الاستفهام في اللفظ على ﴿أَءِنَّا﴾، كأنك قلت: أيوم الجمعة أعبد الله منطلق؟ وأضمرت نفيه. فهذا موضعُ ما ابتدأت فيه بـ ﴿أَءِذَا﴾، وليس بكثير في الكلام لو قلت:«اليوم إنّ عبد الله منطلق»، لم يحسن، وهو جائز، وقد قالت العرب:«ما علمت إنَّه لصالح، تريد: إنه لصالح ما علمت.

...ثم قال:

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين أنكروا البعث وجَحدُوا الثواب والعقاب، وقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هم الذين جحدوا قدرة ربِّهم وكذبوا رسوله، وهم الذين في أعناقهم الأغلال يوم القيامة في نار جهنم، فأولئك ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، يقول: هم سكان النار يوم القيامة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يقول: هم فيها ماكثون أبدًا، لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه

(٢٤) أحمر
أسود

ودلالاته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالمين خلقا جديدا، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ﴾ أي: يسحبون بها في النار، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: ماكثون فيها أبدا، لا يحولون عنها ولا يزولون.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٦)
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ
هَادٍ (٧) ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ
وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ (٨) عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ
(٩) سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ
وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ (١٠) لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا
مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١) هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا
وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ
وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ (١٣) لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم
بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ
(١٤) وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ
وَٱلۡأٓصَالِ۩ (١٥)﴾ [الرعد: ٦-١٥].

(٢٦) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ - خَلَتْ - الْمَثُلَاتُ - ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ - مُنذِرٌ - هَادٍ - تَغِيضُ الْأَرْحَامُ - وَمَا تَزْدَادُ - بِمِقْدَارٍ - عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ - الْمُتَعَالِ - سَوَاءٌ مِّنكُم - أَسَرَّ الْقَوْلَ - مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ - وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ - مُعَقِّبَاتٌ - مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ - وَمِنْ خَلْفِهِ - يَحْفَظُونَهُ - مِنْ أَمْرِ اللَّهِ - فَلَا مَرَدَّ لَهُ - وَالٍ - الْبَرْقَ - وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ - الصَّوَاعِقَ - يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ - شَدِيدُ الْمِحَالِ - دَعْوَةُ الْحَقِّ - كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ - لِيَبْلُغَ فَاهُ - فِي ضَلَالٍ - طَوْعًا - وَكَرْهًا - وَظِلَالُهُم - بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾	يطلبون منك تعجيل العقوبة، والنقمة عليهم ولا يطلبون عفو الله وعافية (على سبيل التحدي والتكذيب والتعنت).
﴿خَلَتْ﴾	مضت - تقدمت - ظهرت.
﴿الْمَثُلَاتُ﴾	العقوبات المنكلات الرادعات التي حلَّت بالأمم المكذبة المتقدمة.
﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾	معجزة من عند الله.
﴿مُنذِرٌ﴾	مخوِّف - مُحذِّر.
﴿هَادٍ﴾	من يهديهم ويرشدهم - مرشد - قائد.
﴿تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾	تنقص (عن تسعة أشهر)- تلقى دمًا تُسقط الجنين.
﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾	تزيد في حملها على تسعة أشهر.

(٢٧) أحمر
أسود

﴿بِمِقْدَارٍ﴾	بقدرٍ معين.
﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾	عالم الذي يغيب عن الأنظار والذي يظهر لها.
﴿الْمُتَعَالِ﴾	المتعال على خلقه - المستعلي على كل شيء بقدرته.
﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ﴾	يستوي منكم.
﴿أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾	أخفى القول.
﴿مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾	مختفي بالليل (يعمل أعمالًا لا يريد أن يطلع عليها أحد).
﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾	ظاهر وماشي ويعمل أعمالًا لا يراها الناس، وقيل: داخل في سرب.
﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾	ملائكة يتعاقبون يأتي ملك بعد ملك، وملائكة بعد ملائكة، وقيل: حرس يتبعاقبون الحراسة.
﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾	من أمامه.
﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾	من ورائه.
﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾	يحفظونه بأمر الله - يحفظونه وحفظهم له بإذن من الله - يحفظونه من كل شيء لم يقدره الله.
﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾	فلا مانع له ولا حاجز ولا دافع.
﴿الْبَرْقَ﴾	الضوء الشديد الساطع الذي يصاحب الأمطار، وقبيل الأمطار

(٢٨) أحمر
أسود

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾	يبتدأ إنشاء السحب المحملة بالمياه الغزيرة.
﴿ٱلصَّوَٰعِقَ﴾	جمع صاعقة وهو المصاحبة للأمطار.
﴿يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾	يشككون في قدرة الله وفي وحدانيته.
﴿شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾	شديد القوة – شديد الأخذ.
﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾	الدعوة الحق، دعوة التوحيد لا إله إلا الله.
﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾	كماد يديه إلى الماء.
﴿لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾	ليصل إلى فمه.
﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾	في ضياع وبطلان.
﴿طَوۡعٗا﴾	عن طواعية.
﴿وَكَرۡهٗا﴾	مُكرهين.
﴿وَظِلَٰلُهُم﴾	جمع ظل (ظلال الأشياء).
﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾	صباحًا (في البكور) وبعد العصر إلى غروب الشمس.



من جهل أهل الكفر
أنهم يستعجلون العذاب
ويطلبون العقاب قبل الرحمة والعافية

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ويستعجلك أهل الكفر فيطلبون إنزال العذاب عليهم وإحلاله بهم بدلًا من أن يسألوا الله العافية والسلامة وحسن العاقبة، وهذا متكررٌ منهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢] فلو قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه لكان خيرًا لهم وأولى لهم.

وأيضًا من ذلك قولهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦] أي: نصيبنا من العذاب قبل يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧].

فهذا شأن أهل الكفر، بجهلهم بدلًا من أن يسألوا ربهم المغفرة والسلامة والعافية يسألونه العذاب والعقاب والبلاء، مع أنهم قد رأوا ما حلَّ بأهل الظلم من أمثالهم، وقد تقدمتهم العقوبات التي حلَّت بالأمم المكذبة تلك العقوبات المُنكلِّة التي تدعوا إلى الاعتبار والاتعاظ، فقد كانوا يمرون بمساكن قوم لوط، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وقال: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦] أي: بطريق ظاره قائم لا يزال المارة يرونها ويشاهدونها وقال تعالى في شأن أصحاب الأيكة قوم شعيب بعد أن ذكر قوم لوط ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

[الحجر: ٧٩] بطريق واضح يستبين به المارةُ أمر هؤلاء المكذبين وما حلَّ بهم من العقاب والنكال، ومع هذا الذي يصدر من الكفار فأيضًا تفتح لهم أبواب التوبة في دنياهم، وتفتح أبواب التوبة لكل مذنب فربنا ﷻ أهلٌ للمغفرة فيغفر للمستغفرين ويتوب على التائبين فمن تابم ن شركه قبل موته، أي: قبل حضور موته فإن الله يتوب عليه.

وكذا فإنه سبحانه في الدنيا يتفضل على الخلق بنعمه، ومنهم القائم على معصيته، فهو ذو مغفرة وذو فضل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

وكذا فإنه ﷻ شديد العقاب لمن تمرد وتجبر وكفر وعصى، وهذا تذكيرٌ بعذاب الله وشدته كي يحذره الحذرون. ويتيقن المتقون، ويقلع عن الشرك المجرمون.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾ يا محمد، مشركو قومك بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، فيقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢] وهم يعلمون ما حَلَّ بمن خلا قبلهم من الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها من عقوبات الله وعظيم بلائه، فمن بين أمة مسخت قردة وأخرى خنازير، ومن بين أمّة أهلكت بالرَّجْفة، وأخرى بالخسف، وذلك هو ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾ التي قال الله جل ثناؤه. ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾.

و﴿ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾، العقوبات المنكّلات، والواحدة منها: «مَثُلة» بفتح الميم وضم الثاء، ثم تجمع «مَثُلات»، كما واحدة «الصَّدُقَات» «صَدُقَة»، ثم تجمع

«صَدُقَات». وذكر أن تميمًا من بين العرب تضم الميم والثاء جميعًا من «المُثُلات»، فالواحدة على لغتهم منها: «مُثْلة»، ثم تجمع «مُثُلات»، مثل «غُرْفة» وغُرُفات، والفعل منه: «مَثَلْت به أَمْثُل مَثْلا» بفتح الميم وتسكين الثاء، فإذا أردت أنك أقصصته من غيره، قلت: «أمثلته من صاحبه أُمْثِلُه إمْثالا وذلك إذا أقصصته منه.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾، وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، وهم مشركو العرب استعجلوا بالشرّ قبل الخير، وقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ قال: ﴿الْمَثُلَاتُ﴾، الذي مَثَلَ الله به الأممَ من العذاب الذي عذَّبهم، تولَّت المثلات من العذاب، قد خلت من قبلهم، وعرفوا ذلك، وانتهى إليهم ما مَثَلَ الله بهم حين عصَوه وعَصوا رُسُله.

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، يقول تعالى ذكره: وإن ربك يا محمد لذو ستر على ذنوب من تاب من ذنوبه من الناس، فتاركٌ فضيحته بها في موقف القيامة، وصافحٌ له عن عقابه عليها عاجلا وآجلا ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، يقول: على فعلهم ما فعلوا من ذلك بغير إذني لهم بفعله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، لمن هلك مُصِرًّا على معاصيه في القيامة، إن لم يعجِّل له ذلك في الدنيا، أو يجمعهما له في الدنيا والآخرة.

قال أبو جعفر: وهذا الكلام، وإن كان ظاهره ظاهرَ خبر، فإنه وعيدٌ من الله وتهديدٌ للمشركين من قوم رسول الله ﷺ، إن هم لم ينيبوا ويتوبوا من كفرهم

قبل حُلول نقمة الله بهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ [الحجر: ٦-٨] وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الآيتين [العنكبوت: ٥٣، ٥٤] وقال: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج: ١] وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص: ١٦] أي: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبرا عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢] فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعالجهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٤٧﴾

(٣٣) أحمر
أسود

[الأنعام: ١٤٧] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٦٧﴾ [الأعراف: ١٦٧] وقال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله المشركين به، الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم، وعدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على حق، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾

﴿و﴾ الحال أنه ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوه نازلا إلى العباد، وهم لا يزال شرهم وعصيانهم إليه صاعدًا.

يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم لأنه يحب التوابين، ويحب المتطهرين وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بالمصائب، ليطهرهم من المعايب ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على من لم يزل مصرا على الذنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(٣٤) أحمر
أسود

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ الآية، المراد بالسيئة هنا: العقوبة وإنزال العذاب قبل الحسنة، أي: قبل العافية، وقيل الإيمان، وقد بين تعالى في هذه الآية أن الكفار يطلبون منه ﷺ أن يعجل لهم العذاب الذي يخوفهم به إن تمادوا على الكفر، وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج:٤٧]، وكقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت:٥٣]، وكقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٤]، وقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وسبب طلبهم لتعجيل العذاب هو العناد، وزعم أن النَّبي ﷺ كاذب فيما يخوفهم به من بأس الله وعقابه، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ [هود: ٨]، وكقوله: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقوله: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: ٣٢]، كما تقدمت الإشارة إلى هذا.

والمثلاث: العقوبات واحدتها مثلة.

والمعنى: أنهم يطلبون تعجيل العذاب تمرداً وطغيانًا، ولم يتعظوا بما أوقع الله بالأمم السالفة من المثلات، أي العقوبات، كما فعل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه وغيرهم.

قولــــه تعــــالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾، بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ذو مغفرة للناس على ظلمهم، وأنه شديد العقاب؛ فجمع بين الوعد والوعيد ليعظم رجاء الناس في فضله، ويشتد خوفهم من عقابه وعذابه الشديد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضر، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة، وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٦/ ١٤٧]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] و [الأعراف: ١٦٧]، وقوله جلا وعلا: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ الآية [غافر: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.



تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾.

ج: هذا – والله تعالى أعلم –: ويطلب أهل الكفر يا رسول الله منك أن تأتيهم بمعجزة كي يؤمنوا بزعمهم، وذلك كما في قولهم: لولا أُنزل عليك كنزٌ أو جاء معه ملك، وكما قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١...﴾ [الإسراء: ٩٠-٩١].

فيقول تعالى لنبيه ﷺ: عن هذا الأمر ليس لك بل هو لله سبحانه وتعالى هو الذي ينزل الآيات إن شاء ويمنعها إن شاء، إنما أنت منذرٌ محذرٌ تحذرهم، ومذكرٌ تُذكِّرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وكما قال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾ [الغاشية: ٢١].

أما قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ أي: ولكل أمة من يهديها ويرشدها.

والتحرير في هذا المقام في تفسير الهاد على النحو التالي، والله أعلم.

إذا قلنا إن الهداية هنا هداية التوفيق، فالهادي هو الله ﷻ، لا يهدي أحدٌ سواه.

وإذا قلنا إن الهداية هداية الدلالة فالهادي هو الله أيضًا، وثمَّ بعض خلقه يهدون بأمره كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ [السجدة: ٢٤].

فمن هؤلاء رسول الله ﷺ، وسائر الأنبياء والمرسلين فهؤلاء خير هداة يهدون إلى الله ﷻ، ويرشدون إلى طريقه.

وهنالك الدعاة إلى الله، وأهل العلم بالله يرشدون إلى طريق الله كذلك.

وإذا قلنا إن الهداية بمعنى الإرشاد فيدخل في هذا المعنى عموم المرشدين إلى الخير أو الشر فيكون الهاد القائد أو الإمام المتبع سواء كان هاديًا إلى الخير أو كان هاديًا إلى الشر، قال تعالى في شأن قوم فرعون، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١] هذا، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يا محمد، من قومك ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ هلا أنزل على محمد آية من ربه؟ يعنون علامةً وحجةً له على نبوّته وذلك قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] يقول الله له: يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ لهم، تنذرهم بأسَ الله أن يحلّ بهم على شركهم. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾. يقول ولكل قوم إمام يأتمُّون به وهادٍ يتقدمهم، فيهديهم إما إلى خيرٍ وإما إلى شرٍّ.

وأصله من «هادي الفرس»، وهو عنقه الذي يهدي سائر جسده.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل على اختلاف منهم في المعنيّ بالهادي في هذا الموضع.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ هذا قول مشركي العرب قال الله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ لكل قوم داعٍ يدعوهم إلى الله.

وبإسناد صحيح عن أبي الضحى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ قالا محمد هو «المنذر» وهو «الهاد».

وقال آخرون: عنى بـ«الهادي» في هذا الموضع: الله.

(٣٨) أحمر
أسود

وأورد بإسنادٍ حسن عن عن سعيد بن جبير قال: محمد«المنذر»، والله «الهادي».

وقال آخرون: «الهادي» في هذا الموضع معناه نبيٌّ.

وقال آخرون: بل عني به: ولكل قوم قائد.

وقال آخرون: هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال آخرون: معناه: لكل قوم داع.

قال الطبري رحمه الله:

وقد بينت معنى«الهداية»، وأنه الإمام المتبع الذي يقدُم القوم. فإذ كان ذلك كذلك، فجائز أن يكون ذلك هو الله الذي يهدي خلَقه ويتَّبع خلقُه هداه ويأتمون بأمره ونهيه.

وجائز أن يكون نَبِيَّ الله الذي تأتمُّ به أمته.

وجائز أن يكون إمامًا من الأئمة يُؤْتَمْ به، ويتّبع منهاجَه وطريقته أصحابُه.

وجائزٌ أن يكون داعيًا من الدعاة إلى خيرٍ أو شرٍّ.

وإذ كان ذلك كذلك، فلا قول أولى في ذلك بالصواب من أن يقال كما قال جل ثناؤه: إن محمدًا هو المنذر من أرسل إليه بالإنذار، وإن لكل قوم هاديًا يهديهم فيتّبعونه ويأتمُّون به.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى إخبارا عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتنوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن يزيل عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجا وأنهارا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩].

(٣٩) أحمر
أسود

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ﴿ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وأورد أقوالًا في تفسير: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ على نحوٍ مما ذكره الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ ﴾. لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ أي معلم. ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾ أي نبي يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله، أي عليك الإنذار، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: ثناءٌ ومدح يثني الله ﷻ على نفسه ويمتدح نفسه، وهو أهل للثناء والمجد، يقول تعالى: الله يعلم ما تحمل كل أنثى، يعلم ما في بطنها أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ أطويل أم قصير؟ أأبيض أم أسود؟ أمليحٌ أم دميمٌ؟ إلى غير ذلك مما يتعلق بالحمل، فإن الله ﷻ يعلم كل شيء عن حاله، وكذا يعلم ما تغيض الأرحام وما تزداد أما تغيض فأصل تغيض تنقص كما قال تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾

فعليه فمن العلماء من قال:

تغيض الأرحام تضع مولودها لأكل من تسعة أشهرٍ.

وقال آخرون: تغيض تقذف من دمٍ أثناء الحمل.

وقال آخرون: تُنزل المولود سقطا التمام.

وقال آخرون: تغيض المراد به ما ولدته المرأة من قبل.

(٤٠) أحمر
أسود

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي: وما تضع من حمل بعد تسعة أشهر.

وقوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي: يعلم ما غاب وما ظهر كل ذلك عنده سواء كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧]، وكما قال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك: ١٣]، وليس علمه متعلق بالقول فقط، إنما علمه محيط بكل شيء ظاهر أو خفي، أما قوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ فليس شيء أكبر منه، بل كل شيء دونه و﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل الأشياء بقدرته، وقيل: المتعال عن كل وصف رديء مما يصفه به أهل الشرك وغيرهم، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ منكرين قدرة الله على إعادتهم خلقًا جديدًا بعد فنائهم وبلائهم، ولا ينكرون قدرته على ابتدائهم وتصويرهم في الأرحام، وتدبيرهم وتصريفهم فيها حالا بعد حال فابتدأ الخبر عن ذلك ابتداءً، والمعنى فيه ما وصفت، فقال جل ثناؤه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، يقول: وما تنقص الأرحام من حملها في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ في حملها على الأشهر التسعة لتمام ما نقص من الحمل في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ لا يجاوز شيء من قَدَره عن تقديره، ولا يقصر أمر أراده فَدَبَره عن تدبيره، كما لا يزداد حمل أنثى على ما قُدِّرَ له من الحمل، ولا يُقصِّر عما حُدّ له من القدر.

و«المقدار»، مِفْعال من«القدر».

وأورد بإسنادٍ صحيح عن مجاهد، أنه قال:«الغيض»، ما رأت الحامل من الدم في حملها فهو نقصان من الولد، و«الزيادة» ما زاد على التسعة أشهر، فهو

تمام للنقصان وهو زيادة.

وبسندٍ صحيح عن عكرمة في هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾، قال: كلما غاضت بالدم، زاد ذلك في الحمل.

وبسندٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾ قال: كان الحسن يقول: «الغيضوضة»، أن تضع المرأة لستة أشهر أو لسبعة أشهر، أو لما دون الحدّ قال قتادة: وأما الزيادة، فما زاد على تسعة أشهر.

وأورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨﴾ بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨﴾ إي والله، لقد حفظ عليهم رزقهم وآجالهم، وجعل لهم أجلا معلومًا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾

يقول تعالى ذكره: والله عالم ما غاب عنكم وعن أبصاركم فلم تروه، وما شاهدتموه، فعاينتم بأبصاركم، لا يخفى عليه شيء، لأنهم خلقه وتدبيره «الكبير الذي كل شيء دونه»، «المتعال» المستعلي على كل شيء بقدرته.

وهو «المتفاعل» من «العلو» مثل «المتقارب» من القرب و«المتداني» من الدنوّ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: ٣٤] أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ

(٤٢) أحمر
أسود

ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزمر:٦] أي: خلقكم طورا من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢: ١٤] وفي الصحيحين عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ[(١)] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتب رِزْقَهُ، وَعُمُرَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشِقِّيٌ أَوْ سَعِيدٌ».

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «فَيَقُولُ الْمَلَكُ: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ أَيْ رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيَقُولُ اللهُ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ».

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾ ما أخرجه البخاري[(٢)] من حديث ابْنِ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تقوم الساعة إلا اللهُ»[(٣)].

... ثم قال:

وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلا معلوما.

---

(١) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٢) البخاري (٤٦٩٧).
(٣) البخاري (٧٣٧٧)، ومسلم (٩٢٣).

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بَعَثَتْ إِلَيْهِ: أَنَّ ابْنًا لَهَا فِي الْمَوْتِ، وَأَنَّهَا تُحِبُّ أَنْ يَحْضُرَهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهَا يَقُولُ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرُوهَا فَلْتَصْبِرْ وَلِتَحْتَسِبْ**»(١) الْحَدِيثَ بِتَمَامِهِ.

وقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ أي: على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علما، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد، طوعا وكرها.



(١) البخاري (٦٦٥٥)، ومسلم (٦٣٦).

(٤٤) أحمر
أسود

تعريف المعقبات والمراد بهم

س: الهاء في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ راجعة إلى ماذا؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنها راجعة إلى الله ﷻ، والمعنى لله معقبات.

الثاني: أنها راجعة إلى الإنسان.

الثالث: أنها راجعة إلى رسول الله ﷺ.

الرابع: أنها راجعة إلى رسول الله ﷺ.



س: ما المراد بالمعقبات؟

ج: المراد الذين يتعاقبون، يأتي بعضهم بعد بعض، وقيل: إنهم الملائكة كما قال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار...**».

وقيل: إنهم الحرس الذين يحرسون الملوك والأمراء والرؤساء والوزراء.



س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: يحفظونه بأمر الله ﷻ.

الثاني: يحفظونه من الأمور التي لم يقدرها الله ﷻ، فمثلًا إذا رماه أحد بحجر ولم يرد الله له أن يُصاب حفظته الملائكة بإذن ربها.

الثالث: يحفظونه، وحفظهم نفسه من أمر الله، كما في الآية: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

الرابع: يحفظون عليه أعماله الحسنة وأعماله السيئة فيكتبونها عليه.

الخامس: يحفظونه حتى يسلمونه لأمر الله، أي: لقضاء الله.

السادس - على قول من قال-: إن المعقبات هم الحراس الذين يتخذهم الملوك والأمراء، وهو: يحفظنه حتى لا يُصاب بشيء مما قدره الله بزعمهم، ولكنهم لا يستطيعون.

هذا، وثم وجوه أُخر. والله أعلم



س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك وجهان:

أحدهما: أن الله ﷻ لا يحوِّل نعمه إلى عبادة إلى نقمٍ ينتقم منهم إلا إذا حولوا ما بهم من طاعة إلى معصية، ومن إيمان وتصديق إلى كفر وتكذيب.

ويشهد لهذا القول عدة نصوص كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وكذا تشهد له النصوص المتكاثرة التي مفادها أن المعاصي سببٌ لزوال النعم.

ولا يعترض على هذا بالابتلاءات التي تصيب المؤمن فإنها لرفعة الدرجات وليست نقمًا من الله ﷻ.

الثاني: أن المراد أن الله ﷻ لا يغير أحوال قوم حتى يسعوا هم في تغييرها فإن سعوا في تغييرها أو سعى بعض البشر لتغييرها فإن الله سبحانه يساعده ويُعينهم.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: يستوي عند الله ﷻ إخفاء من أخفى القول وإظهار من أظهره فكل ذلك عند الله سواء، والله يعلمه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ۝١١٠﴾ [الأنبياء: ١١٠].

وكذا يستوي عند الله ﷻ المختفي الذي يعمل أعمالًا بالليل ويحرص على أن لا يراه أحد، وكذا السارب بالنهار الذي يسعى نهارًا سعيًا ظاهرًا، وذهابًا وإيابًا أمام الخلق، فهؤلاء جميعًا - المستخفون بالليل والساربون بالنهار، يعلم الله ﷻ أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم.

أما قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ فتقدم الكلام فيها بما حاصله: أن لله ﷻ ملائكة يتعاقبون على العبد يحفظونه بأمر الله لهم بحفظه، يحفظونه من أي شيء لم يُرد الله له أن يُصاب به ولإيضاح ذلك قد يكون الشخص راكبًا سيارة، ويريد الله له السلامة أثناء سيره فمهما حدث من حوله فإن ملائكة الله تحفظه من أي شيء لم يرد الله له أن يصاب به، فإذا أراد الله له أن يصاب بحادث تنحت الملائكة حتى ينفذ فيه قدر الله.

وكذا إذا أراده البشر بسوء، وإذا أرادته الجن والهوام والسباع بسوء لم يقدره الله عليه فإن الملائكة تحفظه من كل ذلك، حتى إذا أراد الله به مكروهًا أصيب بالذي أراده الله له.

وقال بعض أهل العلم، وقد تقدم، أن المراد بقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ أنه الملك من ملوك الدنيا والرئيس من رؤوسائها والأمير والعزيز، كل هؤلاء

يتخذون حرسًا يدفع عنهم السوء والمكروه بزعمهم فيجعلون الحرس من الأمام ومن الخلف حراسة لهم ودفاعًا عنهم ظآنين أن هذا يدفع عنهم قدر الله، ولكن إذا جاء قدر الله، وأراد الله بهم سوء فلا مانع لوقوعه ولا راد لقضائه ولا ينفع ذلك الحرس.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ أي: ليس لهذا السوء الذي يريده الله بالقوم من دافع يدفعه ولا راد يردُّه، وما لهم سوى الله من ناصر ينصرهم ولا من وليٍّ يتولاهم، ولا من حافظ يحفظهم. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: معتدلٌ عند الله منكم، أيها الناس، الذي أسر القول، والذي جهر به، والذي هو مستخفٍ بالليل في ظلمته بمعصية الله ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، يقول: وظاهر بالنهار في ضوئه، لا يخفى عليه شيء من ذلك. سواء عنده سِرُّ خلقه وعلانيتهم، لأنه لا يستسرّ عنده شيء ولا يخفى.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ كل ذلك عنده تبارك وتعالى سواء، السر عنده علانية قوله:﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، أي: في ظلمه الليل، و«سارب»: أي: ظاهر بالنهار.

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ ...﴾.

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: لله تعالى ذكرهُ معقِّباتٌ قالوا:«الهاء» في قوله:«له» من ذكر اسم الله.

و«المعقبات» التي تعتقب على العبد. وذلك أن ملائكة الليل إذا صعدت بالنهار أعقبتها ملائكة النهار، فإذا انقضى النهار صعدت ملائكة النهار ثم أعقبتها ملائكة الليل. وقالوا: قيل«معقبات»، و«الملائكة»: جمع«ملك» مذكر

(٤٨) أحمر
أسود

غير مؤنث، وواحد«الملائكة»«معقِّب»، وجماعتها«مُعَقبة»، ثم جمع جمعه أعني جمع«معقّب» بعد ما جمع«مُعَقّبة» وقيل«معقِّبات»، كما قيل:«سادات سعد»، «ورجالات بني فلان»، جمع«رجال».

وقوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، يعني بقوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾، من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، من وراء ظهره.

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: لله تعالى ذكرهُ معقِّباتٌ قالوا:«الهاء» في قوله:«له» من ذكر اسم الله.

و«المعقبات» التي تعتقب على العبد. وذلك أن ملائكة الليل إذا صعدت بالنهار أعقبتها ملائكة النهار، فإذا انقضى النهار صعدت ملائكة النهار ثم أعقبتها ملائكة الليل. وقالوا: قيل«معقبات»، و«الملائكة»: جمع«ملك» مذكر غير مؤنث، وواحد«الملائكة»«معقِّب»، وجماعتها«مُعَقبة»، ثم جمع جمعه أعني جمع«معقّب» بعد ما جمع«مُعَقّبة» وقيل«معقِّبات»، كما قيل:«سادات سعد»، «ورجالات بني فلان»، جمع«رجال».

وقوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، يعني بقوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾، من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، من وراء ظهره.

وأورد من وجوه تصح بمجموعها عن ابن عباس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ قال: ذلك ملك من مُلوك الدنيا له حَرسٌ من دونه حرَس.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، قولُ من قال:«الهاء»، في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ من ذكر «مَنْ» التي في قوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ «وأن المعقبات من بين يديه ومن خلفه»، هي حرسه وجلاوزته، كما قال ذلك من ذكرنا قوله.

(٤٩) أحمر
أسود

وإنما قلنا: «ذلك أولى التأويلين بالصواب»، لأن قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أقرب إلى قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ منه إلى عالم الغيب، فهي لقربها منه أولى بأن تكون من ذكره، وأن يكون المعنيَّ بذلك هذا، مع دلالة قول الله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ على أنهم المعنيُّون بذلك.

وذلك أنه جل ثناؤه ذكر قومًا أهل معصيةٍ له وأهلَ ريبة، يستخفون بالليل ويظهرون بالنهار، ويمتنعون عند أنفسهم بحرس يحرسهم، ومَنْعَة تمنعهم من أهل طاعته أن يحولوا بينهم وبين ما يأتون من معصية الله. ثم أخبر أنّ الله تعالى ذكره إذا أراد بهم سوءًا لم ينفعهم حَرَسهم، ولا يدفع عنهم حفظهم.

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل هذا الحرف على نحو اختلافهم في تأويل قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾.

فمن قال: «المعقبات» هي الملائكة قال: الذين يحفظونه من أمر الله هم أيضًا الملائكة.

ومن قال: «المعقبات» هي الحرس والجلاوزة من بني آدم قال: الذين يحفظونه من أمر الله هم أولئك الحرس.

واختلفوا أيضًا في معنى قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

فقال بعضهم: حفظهم إيّاه من أمره.

وقال بعضهم: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بأمر الله.

وأورد أقوالًا مؤداها الملائكة الحفظة، وحفظهم إياه من أمر الله.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، أي: بأمر الله.

وفي بعض القراءات: «بأمر الله».

وقال بعد أن أورد عدة أقوالٍ وفندها:

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: سواء منكم، أيها الناس من أسرّ

القول ومن جهر به عند ربكم، ومن هو مستخفٍ بفسقه وريبته في ظلمة الليل، وساربٌ يذهب ويجيء في ضوء النهار ممتنعًا بجنده وحرسه الذين يتعقبونه من أهل طاعة الله أن يحولوا بينه وبين ما يأتي من ذلك، وأن يقيموا حدَّ الله عليه، وذلك قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، من عافية ونعمة، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من ذلك بظلم بعضهم بعضًا، واعتداء بعضهم على بعض، فتَحلَّ بهم حينئذ عقوبته وتغييره.

وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ يقول: وإذا أراد الله بهؤلاء الذين يستخفون بالليل ويسربون بالنهار، لهم جند ومنعة من بين أيديهم ومن خلفهم، يحفظونهم من أمر الله هلاكًا وخزيًا في عاجل الدنيا، ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ يقول: فلا يقدر على ردّ ذلك عنهم أحدٌ غيرُ الله. يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ يقول: وما لهؤلاء القوم و«الهاء والميم» في «لهم» من ذكر القوم الذين في قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾. من دون الله ﴿مِن وَالٍ﴾ يعني: من والٍ يليهم ويلي أمرهم وعقوبتهم.

وأورد أقوالًا ثم قال:

وأما قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن أهل العربية اختلفوا في معناه.

فقال بعض نحويي الكوفة: معناه: له معقبات من أمر الله يحفظونه، وليس من أمره يحفظونه، إنما هو تقديم وتأخير. قال: ويكون يحفظونه ذلك الحفظ من أمر الله وبإذنه، كما تقول للرجل: «أجبتك من دعائك إياي، وبدعائك إياي».

وقال بعض نحويي البصريين، معنى ذلك: يحفظونه عن أمر الله، كما

(٥١) أحمر
أسود

قالوا: «أطعمني من جوع، وعن جوع» و«كساني عن عري، ومن عُرْيٍ».

وقد دللنا فيما مضى على أن أولى القول بتأويل ذلك أن يكون قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، من صفة حرس هذا المستخفي بالليل، وهي تحرسه ظنًّا منها أنها تدفع عنه أمرَ الله، فأخبر تعالى ذكره أن حرسه ذلك لا يغني عنه شيئًا إذا جاء أمره، فقال: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كما قال: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧] وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل: ٢٥] وقالت عائشة، رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١].

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ أي: مختف في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ أي: ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ [هود: ٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حَرَس بالليل وحَرَس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر،

(٥٢) أحمر
أسود

ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحدا من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح[١]: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون**».

وأورد قولين في تفسير قوله تعالى: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾.

أحدهما: المراد حفظهم له من أمر الله.

والثاني: يحفظونه بأمر الله.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير إما منهم أو من الناظر لهم أو ممن هو منهم بسبب كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم إلى غير هذا من أمثلة الشريعة فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما قال ﷺ وقد سئل أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**» والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ أي هلاكا وعذابا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مرد لبلائه وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم حتى يبحث أحدهم عن حتفة بكفه ويسعى بقدمه إلى إراقة

(١) البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) وغيرهما.

دمه ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي ملجأ وهو معنى قول السدي وقيل: من ناصر يمنعهم من عذابه وقال الشاعر:

ما في السماء سوى الرحمن من وال

ووال وولي كقادر وقدير

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾، بين تعالى في هذه الآية الكريمة، أنه لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية، حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله جل وعلا.

والمعنى: أنه لا يسلب قومًا نعمة أنعمها عليهم، حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ الآية [الأنفال: ٥٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

وقد بين في هذه الآية أيضًا: أنه إذا أراد قومًا بسوء فلا مرد له، وبين ذلك أيضًا في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: ١٤٧]، ونحوها من الآيات. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾، يصدق بأن يكون التغيير من بعضهم كما وقع يوم أحد بتغيير الرماة ما بأنفسهم فعمت البلية الجميع، وقد سئل ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»، والله تعالى أعلم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم﴾ في علمه وسمعه وبصره.

﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ أي: مستقر بمكان خفي فيه، ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾ أي: داخل سربه في النهار والسرب هو ما يختفي فيه

الإنسان إما جوف بيته أو غار أو مغارة أو نحو ذلك.

﴿لَهُۥ﴾ أي: للإنسان ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار.

﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائما، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله عند ذلك إياها.

وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ أي: عذابا وشدة وأمرا يكرهونه، فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم.

﴿فَ﴾ إنه ﴿لا مَرَدَّ لَهُ﴾ ولا أحد يمنعهم منه.



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ سبب نزول؟

ج: قد وردت لها عدة أسباب للنزول، وفي كل سندٍ منها مقال، والذي يبدو أنه حسن بمجموع طرقه ما أخرجه البزار وغيره(١) من طرق عن ثابت عَن أَنَسٍ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى رَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ

(١) البزار (٣/ ٥٤) كشف الاستار، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٠٤)، وأبو يعلى (٦/ ٨٧)، والنسائي في التفسير (١/ ٩٩)، والطبري وغيرهم.

(٥٥) أحمر
أسود

الْجَاهِلِيَّةِ يَدْعُوهُ إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَالَ: أَيْش رَبُّكَ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ؟ مِنْ نُحَاسٍ هُوَ؟ مِنْ حَدِيدٍ هُوَ؟ مِنْ فِضَّةٍ هُوَ؟ مِنْ ذَهَبٍ هُوَ؟ فَأَتَى النَّبِيّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَعَادَهُ النَّبِيّ ﷺ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: مِثْلَ ذَلِكَ فَأَتَى النَّبِيّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ الثَّالِثَة فَقَالَ: مِثْلَ ذَلِكَ فَأَتَى النَّبِيّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَرْسَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ صَاعِقَةً فَأَحْرَقَتْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَرْسَلَ عَلَى صَاحِبِكَ صَاعِقَةً فَأَحْرَقَتْهُ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.



س: ما صحة الحديث الذي فيه أن النبي ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد الشديد قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»؟

ج: ذاك حديث ضعيف الإسناد، بل شديد الضعف، أخرجه الطبري وغيره بإسنادٍ مُعضل.



س: ما صحة الوارد عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده»؟

ج: أيضًا سنده ضعيف أخرجه الطبري وغيره وفي سنده مُبهم.



س: هل الرعد ملك؟

ج: الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في هذا الباب لا يخلو حديث منها من مقال، وأراها غريبة.

(٥٦) أحمر
أسود

فقد أخرج الترمذي[١] من طريق بُكَيْرِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا أَبَا القَاسِمِ، أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ؟ قَالَ: «**مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللهُ**» فَقَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: «**زَجْرَةٌ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ**» قَالُوا: صَدَقْتَ. فَقَالُوا: فَأَخْبِرْنَا عَمَّا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: «**اشْتَكَى عِرْقَ النَّسَا فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلَّا لُحُومَ الإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا فَلِذَلِكَ حَرَّمَهَا**» قَالُوا: صَدَقْتَ.

قال الترمذي عقبه: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

قلت: وبكير بن شهاب لم يوثقه معتبر.

وقد روي موقوفًا على علي أيضًا عند الطبري وغيره بأسانيد فيها مقال، ولا أعلم حديثًا صحيحًا سالمًا من العلة يفيد أن الرعد ملكٌ والله أعلم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: والله ﷻ هو وحده الذي يُريكم البرق، وهو الضوء اللامع الساطع الذي يكاد يذهب بالأبصار، ذلكم الذي يصاحب الأمطار ويكون قبيل نزولها أيضًا، يريكم الله ﷻ إياه يخوِّفكم به فيكاد أن يذهب بالأبصار، وكذا فإن الأمطار المصاحبة له يخشى منها المسافر أن تفسد عليه الطريق وتتلف عليه البضائع وكذا أحيانًا يصاحب بالسيول المدمرة

(١) الترمذي (٣١١٧)، وله شواهد أُخر لا تخلو من مقال، وانظر الخرائطي في مكارم الأخلاق (ص ٨٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٩).

المفسدة للزروع المتلفة للثمار، فالناس في شأنه وعند رؤيته ما بين خائفٍ من توابعه، وما بين فرحٍ سعيد بما يصاحبه من الأمطار التي يسقي الله بها العباد، ويحيي الله بها البلاد.

فالذي يصنع ذلك كلَّه هو الله ﷻ القدير الواحد.

وكذا فإنه سبحانه يبتدئ إنشاء السحب ويسوق بعضها إلى بعض حتى تثقل بما فيها من المياه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ إِلَّا .﴾ [الأعراف: ٥٧].

فالذي يصنع ذلك كله هو الله ﷻ.

ذلكم الله ﷻ الذي يسبح الرعد بحمده، فالرعد يسبح بحمد ربِّه ﷻ، يمجِّده ويعظمه ويقول: سبحانك الله وبحمدك، وقد قيل: إن الرعد ملك، ومعلوم أن الرعد الصوت الشديد الذي يصاحب الأمطار قبيل نزولها أو أثناءها وكذا فإن الملائكة تسبح ربها ﷻ إجلالًا له وتعظيمًا وخوفًا ومهابةً، وكذا فإنه ﷻ يرسل الصواعق المحرقة المدمرة تحرق من شاء الله أن تحرقه فيصيب الله بها من يشاء.

ومع ذلك كله فإن أهل الشرك يجادلون في قدرة الله ﷻ وفي وحدانيته، وهو سبحانه شديد القوة شديد الأخذ والبطش والانتقام، وهو خير الماكرين ويكيد للكافرين كيدًا.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، يعني أن الرب هو الذي يري عباده البرق وقوله: ﴿هُوَ﴾ كناية اسمه جلّ ثناؤه.

وقوله: ﴿خَوْفًا﴾ يقول: خوفًا للمسافر من أذاه. وذلك أن«البرق»، الماء، في هذا الموضع.

وقوله: ﴿وَطَمَعًا﴾ يقول: وطمعًا للمقيم أن يمطر فينتفع.

وأورد من وجوهٍ تصح: قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، يقول: خوفًا للمسافر في أسفاره، يخاف أذاه ومشقته ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم، يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله.

وقوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾: ويثير السحاب الثقال بالمطر ويبدؤه.

يقال منه: أنشأ الله السحاب: إذا أبدأه، ونشأ السحاب: إذا بدأ ينشأ نَشْأً.

و«السحاب» في هذا الموضع، وإن كان في لفظ واحد، فإنها جمعٌ، واحدتها«سحابة»، ولذلك قال:«الثقال»، فنعتها بنعت الجمع، ولو كان جاء:«السحاب» الثقيل كان جائزًا، وكان توحيدًا للفظ السحاب، كما قيل: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠].

ومعنى قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾، ويعظم اللهَ الرعدُ ويمجِّده، فيثنى عليه بصفاته، وينزهه مما أضاف إليه أهل الشرك به ومما وصفوه به من اتخاذ الصاحبة والولد، تعالى ربنا وتقدّس.

وقوله: ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ يقول: وتسبح الملائكة من خيفة الله ورَهْبته.

وأورد الطبري بعض أسباب النزول لقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ مَغْفِرَةِ .﴾ قدمت ما صح منها، ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾، يقول: وهؤلاء الذين أصابهم الله بالصواعق أصابهم في حال خُصومتهم في الله عَزَّ وَجَلَّ لرسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ يقول تعالى ذكره: والله شديدةٌ مماحلته في عقوبة من طغى عليه وعَتَا وتمادى في كفره.

و«المحال»: مصدر من قول القائل: ما حلت فلانًا فأنا أماحله مماحلةً ومِحَالا و«فعلت» منه:«مَحَلت أمحَلُ محْلا إذا عرّض رجلٌ رجلا لما يهلكه؛ ومنه قوله: «وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ».

وأورد أقوالًا في شديد المحال منها شديد القوة، ومنها: شديد الحيلة.

وأورد القرطبي عدة أقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

* منها: شديد المكر.
* شديد التدبير.
* شديد الكيد.
* شديد الأخذ.

قلت (مصطفى): ويشهد لبعض ما ذُكر قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: يخاف منه الصواعق والهدم وأنواع الضرر، على بعض الثمار ونحوها ويطمع في خيره ونفعه. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب المزعج للعباد، فهو خاضع لربه مسبح بحمده، ﴿و﴾ تسبح ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: خشعا لربهم خائفين من سطوته، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب، ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ من عباده بحسب ما شاءه وأراده وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ أي: شديد الحول والقوة فلا يريد شيئا إلا فعله، ولا

يتعاصى عليه شيء ولا يفوته هارب.

فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.



مثل مضروبٌ
لبيان عدمانتفاع المشركين بدعاء أصنامهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: لله ﷻ الدعوة الحق وهي دعوة التوحيد لا إله إلا الله، فليدعوه الناس بها، أي: يدعونه مفردين إياه بالدعاء والعبادة دون من سواه.

فكل من دعا الله ﷻ وعبده وحده لا شريك له فقد دعاء دعوة الحق وعبد العبادة الحق، فإذا دعا الله وحده يستجاب له بإذن الله، فالذي يستجيب هو الله، والذي يكشف الضرَّ ويجيب المضطر هو الله.

وكذا من عبد الله وحده لا شريك له فتلك العبادة الحق المتقبلة، أما الأصنام والأوثان والآلهة الباطلة التي يدعونها من دون الله ﷻ فإنها لا تجيب عابديها إذا ادعوها ولا تعطيهم إذا سألوها، ولا تفقه ولا تفهم إذا عبدوها، وإنما شأنهم معها عند دعاءهم لها كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه، وهذا مثل ضُرب لمن يعبد غير الله ولمن يدعو غير الله ﷻ مثله كرجل واقفٍ على شاطئ نهر يبسط كفيه إلى الماء ويقول: تعال يا ماء اصعد إليَّ يا ماء ويقف هكذا مناديًا دائمًا وأبدًا ينادي الماء كي يصعد إليه ولا يمد يده للماء، فأنى يستجاب له، أنى يستجيب الماء له، فدعاؤه في ذهاب وصياح فجهده ضائع وسعيه خائب، هكذا قال بعض أهل العلم في شرح هذا المثل.

وقال آخرون: إن المثل مضروب لرجل يضع يده في الماء ثم يقبض يده على الماء كي يرفعه فإذا قبضه الله تسرب الماء ولم يبق منه شيء في اليد، وكذا الذي يدعو غير الله لا يخلص من دعائه بشيء.

وثم أقوال أُخر في شرح هذا المثل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: لله من خلقه الدعوة الحق، و«الدعوة» هي«الحق» كما أضيفت الدار إلى الآخرة في قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقد بينا ذلك فيما مضى.

وإنما عنى بالدعوة الحق، توحيد الله وشهادةَ أن لا إله إلا الله.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يقول تعالى ذكره: والآلهة التي يَدْعونها المشركون أربابًا وآلهة.

وقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ يقول: من دون الله.

وإنما عنى بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ الآلهة أنها مقصِّرة عنه، وأنَّها لا تكون إلهًا، ولا يجوز أن يكون إلهًا إلا الله الواحد القهار، ومنه قول الشاعر:

أَتُوعِدُنِي وَرَاءَ بَنِي رِيَاحٍ ... كَذَبْتَ لَتَقْصُرَنّ يَدَاكَ دُونِي

يعني: لتقصرنَّ يداك عني.

وقوله: ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ يقول: لا تجيب هذه الآلهة التي يدعوها هؤلاء المشركون آلهةً بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضرٍّ ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾، يقول: لا ينفع داعي الآلهة دعاؤه إياها إلا كما ينفع باسط كفيه إلى الماء بسطُه إياهما إليه من غير أن يرفعه إليه في إناء، ولكن ليرتفع إليه بدعائه إياه وإشارته إليه وقبضه عليه.

والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض على الماء، قال بعضهم:

فَإِنِّي وإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إِلَيْكُمُ ... كَقَابِضِ مَاءٍ لَمْ تَسِقْهُ أَنَامِلُه

(٦٣) أحمر
أسود

يعني بذلك: أنه ليس في يده من ذلك إلا كما في يد القابض على الماء، لأن القابض على الماء لا شيء في يده.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ وليس ببالغه حتى يتمزَّع عنقه ويهلك عطشًا قال الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ هذا مثل ضربه الله؛ أي هذا الذي يدعو من دون الله هذا الوثنَ وهذا الحجر لا يستجيب له بشيء أبدًا ولا يسُوق إليه خيرًا ولا يدفع عنه سوءًا حتى يأتيه الموت، كمثل هذا الذي بسط ذارعيه إلى الماء ليبلغ فاه ولا يبلغ فاه ولا يصل إليه ذلك حتى يموت عطشًا.

وقال آخرون: معنى ذلك: والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليتناول خياله فيه، وما هو ببالغ ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ يقول: وما دعاء من كفر بالله ما يدعو من الأوثان والآلهة ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، يقول: إلا في غير استقامة ولا هدًى، لأنه يشرك بالله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بعد أن أورد أقوالًا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾.

ومعنى الكلام: أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء، إما قابضا وإما متناولا له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلا للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره، لا ينتفعون بهم أبدا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿لَهُۥ﴾ أي: لله وحده ﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف، والرجاء، والحب، والرغبة، والرهبة، والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله.

﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم﴾ أي: لمن يدعوها ويعبدها ﴿بِشَيۡءٍ﴾ قليل ولا كثير لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ الذي لا تناله كفاه لبعده، ﴿لِيَبۡلُغَ﴾ ببسط كفيه إلى الماء ﴿فَاهُ﴾ فإنه عطشان ومن شدة عطشه يتناول بيده، ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه.

كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة لأنهم فقراء كما أن من دعوهم فقراء، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عباداتهم ودعاؤهم؛ لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِۤ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾.

ج: هذا، والعلم عند الله فيه وجوه:

أحدها: أن يُفسر السجود على حقيقته المعلومة ويكون سجود من في السموات والأرض صفة يعلمها الله ﷻ ويشكل على هذا أن الكافر لا يسجد

في الدنيا، ولدفع هذا الإشكال يُقال إن ما في الآية من العام المخصوص، ويكون المراد إلا الاشقياء من بني آدم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، ولهذا نظائر كثيرة في الكتاب العزيز، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود: ١٥].

وقد قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

ونحوه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقد قال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

الثاني: تأويل السجود بالانقياد والخضوع والاستسلام فمن العباد من ينقاد لله مستسلمًا طائعًا ومنهم من تنفذ فيه أقدار الله ﷻ رغمًا عنه فيموت ويمرض، ويُصاب ويبتلى وتمضي فيه المقادير ولا يستطيع منعها.

أما قوله تعالى: ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ فالمعنى: أن ظلالهم تسجد في الصباح، وقبيل الغروب (بعد العصر إلى المغرب) وهذه طائفة من أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فإن امتنع هؤلاء الذين يدعون من دون الله الأوثان والأصنام لله شركاء من إفراد الطاعة والإخلاص بالعبادة له فلله يسجد من في السموات من الملائكة الكرام ومن في الأرض من المؤمنين به طوعًا، فأما الكافرون به فإنهم يسجدون له كَرْهًا حين يُكْرَهون على السُّجود.

(٦٦) أحمر
أسود

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، فأما المؤمن فيسجد طائعًا، وأما الكافر فيسجد كارهًا.

وقوله: ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥)﴾ يقول: ويسجد أيضًا ظلالُ كل من سجد طوعًا وكرهًا بالغُدُوات والعَشَايا. وذلك أن ظلَّ كلِّ شخص فإنه يفيء بالعشيّ، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)﴾ [النحل: ٤٨].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين، كانت عبادته حقًّا متصلة النفع لصاحبها في الدنيا والآخرة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختيارا كالمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك، ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥)﴾ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره وسجود كل شيء بحسب حاله كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعا وكرها كان هو الإله حقا المعبود المحمود حقا وإلهية غيره باطلة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يسجد له أهل السموات والأرض طوعـًا وكرهـًا وتسجد له ظلالهم بالغدو والآصال. وذكر أيضـًا سجود الظلال، وسجود أهل السموات والأرض، في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ إلى قوله ﴿ يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠]، واختلف العلماء في المراد بسجود الظل وسجود غير المؤمنين، فقال بعض العلماء: سجود من في السموات والأرض من العام المخصوص، فالمؤمنون والملائكة يسجدون لله سجوداً حقيقيـًا، وهو وضع الجبهة على الأرض يفعلون ذلك طوعـًا والكفار يسجدون كرهـًا، أعني المنافقين، لأنهم كفار في الباطن ولا يسجدون لله إلا كرهـًا، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ الآية [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [التوبة: ٥٤]، والدليل على أن سجود أهل السموات والأرض من العام المخصوص، قوله تعالى في «سورة الحج»: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج: ١٨]، فقوله: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾، دليل على أن بعض الناس غير داخل في السجود المذكور وهذا قول الحسن وقتادة وغيرهما وذكره الفراء، وقيل: الآية عامة، والمراد بسجود المسلمين طوعـًا انقيادهم لما يريد الله منهم طوعـًا والمراد بسجود الكافرين كرهـًا انقيادهم لما يريد الله منهم كرهـًا، لأن إرادته نافذة

فيهم وهم منقادون خاضعون لصنعه فيهم ونفوذ مشيئته فيهم، وأصل السجود في لغة العرب الذل والخضوع، ومنه قول زيد الخيل:

بجمع تضل البلق في حجراته ... ترى الأكم فيها سجداً للحوافر

ومنه قول العرب أسجد إذا طأطأ رأسه وانحنى، قال حميد بن ثور:

فلما لوين على معصم ... وكف خضيب وأسوارها

فضول أزمتها أسجدت ... سجود النصارى لأحبارها

وعلى هذا القول فالسجود لغوي لا شرعي، وهذا الخلاف المذكور جار أيضًا في سجود الظلال، فقيل سجودها حقيقي، والله تعالى قادر على أن يخلق لها إدراكًا تدرك به وتسجد لله سجوداً حقيقياً، وقيل سجودها ميلها بقدرة الله أول النهار إلى جهة المغرب وآخره إلى جهة المشرق، وادعى من قال هذا أن الظل لا حقيقة له لأنه خيال فلا يمكن منه الإدراك.

ونحن نقول: إن الله جل وعلا قادر على كل شيء فهو قادر على أن يخلق للظل إدراكًا يسجد به لله تعالى سجوداً حقيقيًا، والقاعدة المقررة عند علماء الأصول هي حمل نصوص الوحي على ظواهرها إلا بدليل من كتاب أو سنة ولا يخفى أن حاصل القولين أن:

أحدهما: أن السجود شرعي وعليه فهو في أهل السموات والأرض من العام المخصوص.

والثاني: أن السجود لغوي بمعنى الانقياد والذل والخضوع، وعليه فهو باق على عمومه والمقرر في الأصول عند المالكية والحنابلة وجماعة من الشافعية أن النص إن دار بين الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية حمل على الشرعية وهو التحقيق خلافًا لأبي حنيفة في تقديم اللغوية ولمن قال يصير

اللفظ مجملاً لاحتمال هذا وذاك، وعقد هذه المسألة صاحب «مراقي السعود» بقوله:

واللفظ محمول على الشرعي إن لم يكن فمطلق العرفي

فاللغوي على الجلي ولم يجب بحث عن المجاز في الذي انتخب

وقيل: المراد بسجود الكفار كرها سجود ظلالهم كرهًا، وقيل الآية في المؤمنين فبعضهم يسجد طوعًا لخفة امتثال أوامر الشرع عليه، وبعضهم يسجد كرهًا لثقل مشقة التكليف عليه، مع أن إيمانه يحمله على تكلف ذلك، والعلم عند الله تعالى:

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾، يحتمل أن يكون مصدراً أو يحتمل أن يكون جمع غداة والآصال جمع أصل بضمتين وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والغروب،

ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأقعد في أفيائه بالأصائل



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ
جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ
وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ
لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ
ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ
كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ
﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ
﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾
سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

[الرعد: ١٦-٢٤]

(٧١) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿أَوْلِيَآءَ - ٱلْقَهَّٰرُ - بِقَدَرِهَا - فَٱحْتَمَلَ - زَبَدًا رَّابِيًاۚ - ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ - مَتَٰعٍ - زَبَدٌ - جُفَآءًۖ - ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ - ٱلْحُسْنَىٰ - لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ - سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ - وَمَأْوَىٰهُمْ - وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ - يَتَذَكَّرُ - أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ - بِعَهْدِ ٱللَّهِ - ٱلْمِيثَٰقَ - وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ - عُقْبَى ٱلدَّارِ - جَنَّٰتُ عَدْنٍ - صَلَحَ﴾.
ج:

الكلمة	معناها
﴿أَوْلِيَآءَ﴾	أنصار.
﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾	الذي قهر كل شيء، قهر الجبابرة وقصمهم.
﴿بِقَدَرِهَا﴾	على قدر سعتها.
﴿فَٱحْتَمَلَ﴾	فحمل على وجهه ﴿حمل الماء على وجهه﴾.
﴿زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾	رغاوي وفقاقيع عالية مرتفعة على سطح الماء.
﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾	طلبًا للحلية التي يتحلى بها من ذهب أو فضة أو غير ذلك.
﴿مَتَٰعٍ﴾	ما يتمتع به من القدور وغيرها.
﴿جُفَآءًۖ﴾	متجافيًا عن ظهر الماء إلى جوانب البحر وشواطئه لا فائدة فيه ولا قيمة له ولا يبقى له كبير أثر.
﴿ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾	أجابوا ربهم وآمنوا به واتبعوا أمره.
﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾	الجنة – الحياة الحسنة في الدنيا والآخرة.
﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ﴾	لقدموه فدية كي ينقذوا أنفسهم من النار.

(٧٢) أحمر
أسود

﴿سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾	الحساب السيئ المصاحب بالتوبيخ والإهانة حساب لا يُتعاطى فيه عن السيئات بل يحاسبونه عليها كلها.
﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾	مصيرهم.
﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾	بئس المكان الذي ينامون عليه والفراش الذي يفترشونه.
﴿يَتَذَكَّرُ﴾	يتعظ – يعتبر.
﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾	أصحاب العقول النيِّرة الرشيدة.
﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾	بالعهود التي عاهدوا الله عليها والمواثيق التي واثقوه عبها.
﴿ٱلۡمِيثَٰقَ﴾	العهد المؤكد باليمين – ما تحدث به الثقة من العهود.
﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾	يقابلون الإساءة بإحسان ويتبعون السيئة بالحسنة.
﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾	العاقبة الحسنة في الدار الآخرة وهي الجنة.
﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾	بساتين إقامة وحدائق، وقيل: عدن اسم لبعض الجنات.
﴿صَلَحَ﴾	آمن وعمل صالحًا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين الذين اتخذوا مع الله إلهًا آخر يعبدونه ويجعلونه شريكًا لله ﷻ، قل لهم: من رب السموات والأرض، يدبر أمرهما بعد إذ خلقهما فسيقولون: خالقهما هو الله ومدبر أمرهما هو الله، إذا الله قال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥]، فسواء أقروا لك بذلك أم لم يقروا بذك، فقل أنت أيضًا الله رب السموات والأرض، فقل من ثَمَّ لهؤلاء المشركين أفتخذتم مع الله ﷻ أولياء ينصرونكم ويجلبون النفع لكم ويدفعون عنكم الضر ألا فاعلموا أن هؤلاء الأولياء الذين اتخذتموهم من دون الله لا يملكون لأنفسهم - فضلًا عن غيرهم - نفعًا ولا ضرًّا كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣].

ثم قل يا رسول الله لهؤلاء: هل يستوي الأعمى (والمراد الأعمى عن الحق) والبصير (الذي يبصر الحق ويتبعه) أم هل تستوي الظلمات والنور، فكما أن الأعمى فاقد البصر لا يستوي مع المُبصر، وكما أن من يمشي في الظلمات لا يستوي مع من يمشي في النور، فكذلك لا يستوي الكافر الأعمى عن الحق السائر في الظلمات مع المؤمن البصير الذي يمشي على بصيرة من ربِّه وهدًى من ربِّه ﷻ.

ثم يقول تعالى موبِّخًا هؤلاءا لمشركين، أزعموا أن هناك إهلًا يخلق مع الله ﷻ، فخلق هذا الإله خلقًا يشابه خلق الله فمن ثَمَّ اشتبه عليهم الخلق، ولم

يعلموا ما الذي خلقه الله، وما الذي خلقه معبودهم، فمن ثَمَّ عبدوا إلهًا مع الله، فقل لهؤلاء الذين عميت عليهم الأمور واشتبهت عليهم المسائل الله خالق كل شيءٍ، وهو الواحد الذي ليس معه شريك، القهار الذي قهر بقوته كلَّ من دونه والذي قهر الجبابرة والظلمة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومدبِّرها، فإنهم سيقولون الله. وأمر الله نبيّه ﷺ أن يقول: «الله»، فقال له: ﴿قُلِ﴾، يا محمد: ربُّها، الذي خلقها وأنشأها، هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وهو ﴿ٱللَّهُ﴾. ثم قال: فإذا أجابوك بذلك فقل لهم: أفاتخذتم من دون رب السموات والأرض أولياء لا تملك لأنفسها نفعًا تجلبه إلى نفسها، ولا ضرًّا تدفعه عنها، وهي إذ لم تملك ذلك لأنفسها، فمِنْ مِلْكه لغيرها أبعدُ فعبدتموها، وتركتم عبادة من بيده النفع والضر والحياة والموت وتدبير الأشياء كلها. ثم ضرب لهم جل ثناؤه مثلا فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عَبدُوا من دون الله الذي بيده نفعهم وضرهم ما لا ينفع ولا يضرُّ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الذي لا يُبصر شيئًا ولا يهتدي لمحجة يسلكها إلا بأن يُهدى «وَٱلْبَصِيرُ» الذي يهدي الأعمى لمحجة الطريق الذي لا يُبصر؟ إنهما لا شك لغير مستويين. يقول: فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يُبصر الحق فيتبعه ويعرف الهدى فيسلكه، وأنتم أيها المشركون الذين لا تعرفون حقا ولا تبصرون رَشَدًا.

وقولـه: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾، يقـول تعـالى ذكـره: وهـل تسـتوي الظلمـاتُ التـي لا تُـرَى فيهـا المحجـة فتُسْـلَك ولا يـرى فيهـا السـبيل فيُرْكَـب والنور الذي تبصر به الأشياء ويجلـو ضـوءه الظّـلام؟ يقـول: إن هـذين لا شـك لغير مستويين، فكـذلك الكفـر بـالله، إنمـا صـاحبه منه في حَيـرة يضـرب أبـدًا في غمرة لا يرجع منه إلى حقيقة، والإيمان بـالله صـاحبه منـه في ضـياء يعمـل علـى علم بربه، ومعرفةٍ منه بأن له مثيبًا يثيبه على إحسانه ومعاقبًا يعاقبه علـى إسـاءته ورازقًا يرزقه ونافعًا ينفعه.

وقولـه: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ يقـول تعـالى ذكـره لنبيـه محمد ﷺ: قل يا محمـد لهـؤلاء المشـركين: أخَلَـق أوثـانُكم التـي اتخـذتموها أولياء من دون الله خلقًا كخلق الله، فاشتبه عليكم أمرُها فيما خَلقـت وخَلَـق الله فجعلتموهـا لـه شـركاء مـن أجـل ذلـك، أم إنمـا بكـم الجهـل والـذهابُ عـن الصواب؟ فإنه لا يشكل على ذي عقل أنّ عبادة ما لا يضرّ ولا ينفـع مـن الفعـل جهلٌ، وأن العبادة إنما تصلح للذي يُرْجَى نفعـه ويُخْشَـى ضَـرَّه، كمـا أن ذلـك غير مشكل خطؤه وجهلُ فاعله، كذلك لا يشكل جهل من أشـرك في عبـادة مـن يرزقه ويكفله ويَمُونه، من لا يقدِرُ له على ضررٍ ولا نفع.

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قـل لهـؤلاء المشركين إذا أقرُّوا لك أن أوثـانهم التـي أشـركوها في عبـادة الله لا تخلـق شـيئًا، فاللهُ خالقكم وخالق أوثانكم وخالق كل شيء، فما وجه إشراككم مـا لا يخلـق ولا يضرّ؟

وقوله: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، يقـول: وهـو الفـرد الـذي لا ثـاني لـه ﴿الْقَهَّارُ﴾، الذي يستحق الألوهة والعبادة، لا الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا تحصل منفعة، ولا تدفع مضرة. فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، وهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له ولا عدل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦] وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: ٩٣ -٩٥] فإذا كان الجميع عبيدا، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم

كلمة العذاب لا محالة، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم أمره أن يقول لهم: هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا من هو. ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هذا يدل على اعترافهم بأن الله هو الخالق وإلا لم يكن للاحتجاج بقوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معنى، دليله قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] أي فإذا اعترفتم فلم تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضر، وهو إلزام صحيح. ثم ضرب لهم مثلا فقال: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق، والمشرك الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مثل لما عبدوه من دون الله، والبصير مثل الله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ أي الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائي «يسوي» بالياء لتقدم الفعل، ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيقي. الباقون بالتاء، واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل. و﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ مثل الإيمان والكفر، ونحن لا نقف على كيفية ذلك. ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج، أي خلق غير الله مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فلزم لذلك أن يعبده كل شي. والآية رد على المشركين والقدرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله. ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ قبل كل شيء. ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ الغالب لكل شي، الذي يغلب في مراده كل مريد.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ إنما جاء السؤال والجواب من جهة، لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء، فلما لم ينكروا، كان كأنهم أجابوا. ثم ألزمهم الحُجة بقوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: الأصنام توليتموهم فعبدتموهم وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، فكيف لغيرهم؟! ثم ضرب مثلًا للذي يعبد الأصنام والذي يعبد الله بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ يعني المشرك والمؤمن ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾.

ثم قال:

ويعني بالظلمات والنور: الشركَ والإيمان. ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ قال ابن الأنباري: معناه: أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، فتشابه خلق الله بخلق هؤلاء؟ وهذا استفهام إنكار، والمعنى: ليس الأمر على هذا، بل إذا فكَّروا علموا أن الله هو المنفرد بالخلق، وغيره لا يخلق شيئًا.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ قال الزجاج: قُل ذلك وبيِّنه بما أخبرت به من الدلالة في هذه السورة مما يدل على أنه خالق كل شيء.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾. أي: قل لهؤلاء المشركين به أوثانا وأندادا يحبونها كما يحبون الله، ويبذلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفتاهت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة وليسوا بأهل لذلك؟

فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضر؟

فما تستوي عبادة الله وحده، وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور.

فإن كان عندهم شك واشتباه، وجعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا كخلقه وفعلوا كفعله، فأزلْ عنهم هذا الاشتباه واللبس بالبرهان الدال على توحد الإله بالوحدانية، فقل لهم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه.

ومن المحال أيضا أن يوجد من دون خالق، فتعين أن لها إلها خالقا لا شريك له في خلقه لأنه الواحد القهار، فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده، فالمخلوقات وكل مخلوق فوقه مخلوق يقهره ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلي القاهر، أن ما يدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات وبذلك كانت عبادته باطلة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾، أشار تعالى: في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، لأنه هو الخالق ولا يستحق من الخلق أن يعبدوه إلا من خلقهم وأبرزهم من العدم إلى الوجود؛ لأن المقصود من قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾، إنكار ذلك وأنه هو الخالق وحده بدليل قوله بعده ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: وخالق كل شيء هو المستحق لأن يعبد وحده، ويبين

هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ الآية [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]، وقوله: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١﴾ [الأعراف: ١٩١]، وقوله: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات؛ لأن المخلوق محتاج إلى خالقه فهو عبد مربوب مثلك يجب عليه أن يعبد من خلقه وحده، كما يجب عليك ذلك فأنتما سواء بالنسبة إلى وجوب عبادة الخالق وحده لا شريك له.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾.

ج: أسوق أولًا، وبالله التوفيق المعنى الإجمالي للآية الكريمة، ثم أعقِّب ذلك بتنزيلات أهل العلم لهذا المثل، فأقول، وبالله التوفيق:

أنزل الله ﷻ من السماء ماءً وهو ماء المطر فامتلأت الأودية كل وادٍ امتلأ بقدر سعته فالوادي الواسع الفسيح امتلأ والوادي الضيق أخذ على قدر سعته وضيقه وامتلأ هو الآخر، ولما امتلأت الأودية ظهر على سطح مائها زبدٌ، وهو الرغاوي التي تكون على سطح الماء، زبدٌ مرتفع على وجه الماء.

وكذا الذهب الذي يُراد تصفيته والنحاس وسائر المعادن تصهر بالنار فيوقدون النيران عليها حتى تنصهر طلبًا لصناعة الحلي من الذهب الخالص، أو لصناعة القدور، أو لصناعة كل ما يتمتع به وينتفع به، فعند انصهار هذه المعادن يظهر أيضًا على وجهها زبدٌ رغاوي، وهي عبارة عن الأشياء الدخيلة على المعدن تطرد وتكون على السطح، وتكون زبدًا كالزبد الذي على وجه

الماء، فهكذا يضرب الله الأمثال للحق، بأنه الشيء النافع المستقر، فهو الماء النافع، والمعدن النافع، وأما الباطل فهو الزبد الزائل المضمحل الذي يلقى به إلى الجوانب جانب الشاطئ أو جانب الأواني التي تصهر فيها المعادن، يذهب بلا فائدة منه، فهكذا يُضرب المثل للحق والباطل، فالحق في المثل الأول هو الماء المنتفع به، وفي المثل الثاني: هو المعدن الخالص الصافي المتبقي والباطل في المثلين هو الزبد الزائل الذي لا فائدة فيه.

هذا، وبشيء من التفصيل أقول مستعينًا بالله ﷻ.

من العلماء من قال: إن قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ مثالٌ مضروب للقرآن والهدى والنور الذي أنزله الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ فكثيرًا ما يضرب المثل بالماء للقرآن والعلم النافع كما في حديث النبي ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا...**» الحديث.

أما الأدوية فهي قلوب العباد، منها قلوب متسعة منشرحة تقبل كل الهدى والنور والعلم، وهي منشرحة لذلك فسيحة رحيبة تستقبل كل أمرٍ من الله ﷻ وكل أمر من رسوله ﷺ آمنة مطمئنة سامعة مطيعة محبةً راغبةً، قلوب متسعة للعلم أيضًا تفهم عن الله المراد، وقلوب أُخر ضيقة تتحمل القليل من ذلك. قلوب أصحابها ذوو أفهام أقل من الأولين.

وعلى كلٍّ فهذه وتلك لما نزل عليها الغيث، وهو العلم الشرعي والهدى والنور أخذت على قدر سعتها، وكان فيها قبل نزول القرآن بعض الشكوك وبعض الشبهات فارتفعت هذه الشكوك وبعض الشبهات كالزبد المرتفع على وجه الماء ثم ذهبت واضمحلت واستقر العلم النافع في الأرض، وكما استقر المعدن الأصلي في قاع الإناء الذي يصهر فيه.

وهناك قلوبٌ ضيقةٌ جدًّا بل مغلقة لم تقبل شيئًا من الماء أصلًا، ولم تقبل

شيئًا من العلم أصلًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فهذا الذي ذُكر وجه ذكره عددٌ من العلماء، وثم وجه آخر، وهو راجع إلى ما ذُكر أيضًا في الجملة ألا وهو أن الحق شبِّه بالماء الباقي الصافي، والباطل شبِّه بالزبد الذاهب المضمحل.

ووجه ثالث: أن الحق هو المؤمن مع إيمانه واعتقاده والباطل الكافر مع اعتقاده فالمؤمن ينتفع بإيمانه والكافر عمله واعتقاده كالزبد الذي لا ينتفع به.

هذا وتضمنت الآية الكريمة مثلين مثلًا مائيًّا وهو قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾.

ومثلًا ناريًّا وهو: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

ونحو هذين المثلين في سورة البقرة، وقد تقدما قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ فِي .﴾ [البقرة: ١٩].

وفي سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

وقبلها قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ...﴾ [النور: ٣٥] الآيات.

هذا، والله تعالى أعلم. ثم هذه بعض أقوال أهل العلم في ذلك، والله المستعان، وهو أعلم بالصواب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر.

يقول تعالى ذكره: مثل الحق في ثباته والباطل في اضمحلاله، مثل ماء أنزله

الله من السماء إلى الأرض ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾، يقول: فاحتملته الأودية بملئها، الكبير بكبره، والصغير بصغره ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ﴾، يقول: فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء، زبدًا عاليًا فوق السيل.

فهذا أحدُ مثلي الحقّ والباطل، فالحق هو الماءُ الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل.

والمثل الآخر: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ يقول جل ثناؤه: ومثلٌ آخر للحقّ والباطل، مثل فضة أو ذهب يوقد عليها الناس في النار طلب حلية يتخذونها ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾، وذلك من النحاس والرصاص والحديد، يوقد عليه ليتخذ منه متاع ينتفع به، ﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾، يقول تعالى ذكره: ومما يوقدون عليه من هذه الأشياء زبد مثله، يعني: مثل زبد السَّيل لا ينتفع به ويذهب باطلا كما لا ينتفع بزبد السَّيل ويذهب باطلا.

ورفع «الزبد» بقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾.

ومعنى الكلام: ومما يوقدون عليه في النار زبدٌ مثلُ زبد السيل في بطول زبده، وبقاء خالص الذهب والفضة.

يقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾، يقول: كما مثَّل الله مثلَ الإيمان والكفر، في بُطُول الكفر وخيبة صاحبه عند مجازاة الله، بالباقي النافع من ماء السيل وخالص الذهب والفضة، كذلك يمثل الله الحق والباطل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ يقول: فأما الزبد الذي علا السيل والذهب والفضة والنحاس والرصاص عند الوقود عليها، فيذهب بدفع الرياح وقذف الماء به، وتعلُّقه بالأشجار وجوانب الوادي ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء والذهب والفضة والرصاص والنحاس، فالماء يمكثُ في الأرض فتشربه، والذهب

والفضة تمكث للناس ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ يقول: كما مثَّل هذا المثل للإيمان والكفر، كذلك يمثل الأمثال.

وعنى بقوله: ﴿رَّابِيٗا﴾، عاليًا منتفخًا، من قولهم: رَبَا الشيء يَرْبُو رُبُوًا فهو رابٍ، ومنه قيل للنَّشْز من الأرض كهيئة الأكمة: «رابية»، ومنه قول الله تعالى: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾.

وقيل للنحاس والرصاص والحديد في هذا الموضع «المتاع»، لأنه يستمتع به، وكل ما يتمتع به الناس فهو «متاع»،

كما قال الشاعر:

تَمَتَّعْ يا مُشَعَّثُ إنَّ شَيْئًا ... سَبقْتَ بِهِ المَمَاتَ هُوَ المَتَاعُ

وأما الجفاء فإني: حدثت[1] عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، قال أبو عمرو بن العلاء: يقال: قد أجفأت القِدْرُ، وذلك إذا غلت فانصبَّ زَبدها، أو سَكنَت فلا يبقى منه شيءٌ.

وأورد الطبري بسندٍ ضعيف عن ابن عباس قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ فهذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكّها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾، وهو الشك ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهو اليقين، كما يُجْعل الحَلْيُ في النار فيؤخذ خالصُه ويترك خَبَثُه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وبسندٍ ضعيف أيضًا عن ابن عباس قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾، يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودِمْنة،

(١) لا يخفى أن مثل هذا من الناحية الحديثية يُضعف؛ لأنه لا يُدرى من حدثه، ولكن كأن الطبري ارتضى هذا المعنى لقوله: (جفاء).

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، وللنحاس والحديد خَبَث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء. فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيءُ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، وبقي كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض. وكذلك الحديد لا يستطاع أن تجعل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النّار فتأكل خبَثَه، فيخرج جيّده فينتفع به. فكذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق، ثم قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

وبسندٍ حسن عن الحسن في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ إلى: ﴿أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، فقال: ابتغاء حلية الذهب والفضة، أو متاع الصُّفْر والحديد. قال: كما أوقد على الذهب والفضة والصُّفْر والحديد فخلص خالصه. قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، كذلك بقاء الحق لأهله فانتفعوا به.

وبسند صحيح عن عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدًا يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾، قال: ما أطاقت ملأها ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ﴾ قال: انقضى الكلام، ثم استقبل فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قال: المتاع: الحديد والنحاس والرصاص وأشباهه ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قال: خَبَثُ ذلك مثل زَبَد السيل. قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، وأما الزبد فيذهب جفاء، قال: فذلك مثل الحق والباطل.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾،

(٨٦) أحمر
أسود

الصغير بصغره، والكبير بكبره ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ﴾ أي عاليًا ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ و«الجفاء»: ما يتعلق بالشجر ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾. هذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثلٍ واحد. يقول: كما اضمحلّ هذا الزبد فصار جُفاءً لا ينتفع به ولا تُرْجى بركته، كذلك يضمحلّ الباطل عن أهله كما اضمحل هذا الزبد، وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأمرعت هذه الأرض وأخرجت نباتها، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي هذا الماء في الأرض، فأخرج الله به ما أخرج من النبات قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ الآية، كما يبقى خالص الذهب والفضة حين أدخل النار وذهب خَبَثه، كذلك يبقى الحق لأهله قوله: ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾، يقول: هذا الحديد والصُّفْر الذي ينتفع به فيه منافع. يقول: كما يبقى خالص هذا الحديد وهذا الصُّفر حين أدخل النار وذهب خَبَثه، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي خالصهما.

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للحق والباطل. فقرأ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ﴾ هذا الزبد لا ينفع ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾، هذا لا ينفع أيضًا قال: وبقي الماءُ في الأرض فنفع الناس، وبقي الحَلْيُ الذي صلح من هذا، فانتفع الناس به ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝١٧﴾، وقال: هذا مثل ضربه الله للحق والباطل.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي: مطرا، ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء،

وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: ليجعل حلية أو نحاسا أو حديدا، فيجعل متاعا فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد ضرب الله، سبحانه وتعالى، في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريا ومائيا، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الآية [البقرة: ١٩]. وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين، أحدهما: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩] الآية، والسراب إنما يكون في شدة الحر؛ ولهذا جاء في الصحيحين[(١)]: «**فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: فَمَا**

(١) البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣).

(٨٨) أحمر
أسود

تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: أيْ رَبَّنا، عَطِشْنَا فَاسْقِنَا. فَيُقَالُ: أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيَرِدُونَ النَّارَ فَإِذَا هِيَ كَالسَّرَابِ يَحْطِم بَعْضُهَا بَعْضًا».

ثـم قـال في المثـل الآخـر: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾ الآيـة [النـور: ٤٠]. وفي الصـحيحين[١] عـن أبـي موسـى الأشـعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْم، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبَ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَرَعَوْا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كلأ فذلك مثل من فَقه فِي دِينِ اللهِ ونَفَعه اللهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ، فَعَلِم وَعَلَّم، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

فهذا مثل مائي، وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد[٢]:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يحجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا». قَالَ: «فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذُ بِحُجزكم عَنِ النَّارِ، هَلُمّ عَنِ النَّارِ هَلُمّ عَنِ النَّارِ، هَلُمّ، فَتَغْلِبُونِي فَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا». وأخرجاه في الصحيحين أيضا فهذا مثل ناري.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ يعني: المطر ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ وهي جمع وادٍ، وهو كل منفرَج بين جبلين يجتمع إِليه ماء المطر فيسيل ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي:

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) أحمد (٢/ ٣١٢)، والبخاري (٣٤٢٩)، ومسلم (٢٢٨٣) وغيرهم.

بمبلغ ما تحمل، فإن صَغُر الوادي، قلَّ الماء، وإن هو اتسع، كَثُر.

وقوله: «فسالت أودية» توسُّع في الكلام، والمعنى: سالت مياهها، فحُذف المضاف، وكذلك قوله: «بقدَرِها» أي: بقدر مياهها. ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ﴾ أي: عاليًا فوق الماء، فهذا مثل ضربه الله ﷻ. ثم ضرب مثلًا آخر، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾.

ويعني بقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ﴾ ما يدخل إلى النار فيُذاب من الجواهر ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ يعني: الذهب والفضة ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ يعني: الحديد والصُّفْر والنحاس والرصاص تُتخذ منه الأواني والأشياء التي يُنتفع بها، ﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ أي: له زَبَد إذا أُذيب مثل زَبَد السَّيل، فهذا مثل آخر.

وفيما ضُرب له هذان المثلان ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه القرآن، شُبِّه نزوله من السماء بالماء، وشُبِّه قلوبُ العِباد بالأودية تحمل منه على قدر اليقين والشك، والعقل والجهل، فيستكنّ فيها، فينتفع المؤمن بما في قلبه كانتفاع الأرض التي يستقر فيها المطر، ولا ينتفع الكافر بالقرآن لمكان شَكِّه وكفره، فيكون ما حصل عنده من القرآن كالزبَد وكخبَث الحديد لا يُنتفع به.

والثاني: أنه الحق والباطل، فالحق شُبِّه بالماء الباقي الصافي، والباطل مشبَّه بالزَّبد الذاهب، فهو وإن علا على الماء فانه سيمَّحِق، كذلك الباطل، وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال، فإن الله سيُبطله.

والثالث: أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فمثَل المؤمن واعتقاده وعمله كالماء المنتفَع به، ومثَل الكافر واعتقاده وعمله كالزبَد.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما ذُكر هذا، يضرب الله مَثل الحق والباطل. وقال أبو عبيدة: كذلك يمثِّل الله الحق ويمثِّل الباطل.

فأما الجُفاء، فقال ابن قتيبة: هو ما رمى به الوادي إلى جنَباته، يقال: أجفأتِ القِدرُ بزَبَدها: إذا ألقته عنها. قال ابن فارس: الجُفاء: ما نفاه السيل، ومنه اشتقاق الجَفاء. وقال ابن الأنباري: «جُفاءً» أي: باليًا متفرقًا. قال ابن عباس: إذا مُسَّ الزَّبَد لم يكن شيئًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء والجواهر التي زال زَبَدها ﴿فيمكث في الأرض﴾ فيُنتفع به ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يبقى الحق لأهله.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شبّه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح، بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبّه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد، بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول، فواد كبير يسع ماء كثيرا، كقلب كبير يسع علما كثيرا، وواد صغير يأخذ ماء قليلا كقلب صغير، يسع علما قليلا وهكذا.

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة.

كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها، ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصا صافيا ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١] وقال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ ليتضح الحق من الباطل والهدى والضلال.

س: كثيرًا ما تتأتى مواطن يُقال فيها: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ اذكر بعض تلك المواطن التي هي محل لهذا القول؟.

ج: من ذلك إذا عمل شخص عملًا يبتغى به وجه الله، وعمل آخر عملًا يُرائي فيه.

ومن ذلك إذ قال شخص قولًا يبتغي به وجه الله، وقال آخر قولًا يُجامل فيه.

ومن ذلك من عبد مع الله إلهًا آخر فتذهب عبادته سدى، ومن عبد الله وحده فإن ذلك نافعه.



الجنة للمتقين والنار للغاوين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: للذين أجابوا داعي الله فآمنوا واستقاموا على أمر الله ﷻ، لهؤلاء الجنة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، أما لاذين جحدوا وكفروا وأعرضوا عن داعي الله، وعن أوامر الله ورفضوها، فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، فهؤلاء لو أن لهم يوم القيامة كل ما في الأرض من مالٍ ومتاع وغير ذلك، ومثله معه أيضًا لقدّموه فدية يفتدوا به من عذاب الله، ولن يقبل ذلك منهم أيضًا إذا فعلوه فإن الله قال: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ﴾ [الأنعام: ٧٠]، فهؤلاء الذين أشركوا لهم يوم القيامة سوء الحساب، المتمثل في الشدة عند الحساب والتقريع والتوبيخ، والمتمثل في عدم التجاوز عن أي سيئة من سيئاتهم، وكذا المتمثل في إحباط حسناتهم بسبب شركهم بالله ثم إن مصيرهم الذي يصيرون إليه وفراشهم الذي تمتهدونه هو جهنم والنار والعياذ بالله.

فبئس المصير الذي يصيرون إليه وبئس المهاد الذي يمتهدونه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أما الذين استجابوا لله فآمنوا به حين دعاهم إلى الإيمان به، وأطاعوه فاتبعوا رسوله وصدّقوه فيما جاءهم به من عند الله، فإن لهم الحسنى، وهي الجنة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾، يقول تعالى ذكره: وأما الذين لم يستجيبوا لله حين دعاهم إلى توحيده

والإقرار بربوبيته، ولم يطيعوه فيما أمرهم به، ولم يتبعوا رسوله فيصدقوه فيما جاءهم به من عند ربهم، فلو أن لهم ما في الأرض جميعًا من شيء ومثله معه ملكًا لهم، ثم قُبِل مثل ذلك منهم، وقبل منهم بدلا من العذاب الذي أعدّه الله لهم في نار جهنم وعوضًا، لافتدوا به أنفسهم منه، يقول الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾، يقول: هؤلاء الذين لم يستجيبوا لله لهم سوء الحساب: يقول: لهم عند الله أن يأخذهم بذنوبهم كلها، فلا يغفر لهم منها شيئا، ولكن يعذبهم على جميعها.

وقوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ يقول: ومسكنهم الذي يسكنونه يوم القيامة جهنم، ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾، يقول: وبئس الفراش والوطاءُ جهنمُ التي هي مأواهم يوم القيامة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ وهو الجزاء الحسن كما قال تعالى مخبرا عن ذي القرنين أنه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكۡرًا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرًا ٨٨﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨] وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ أي لم: يطيعوا الله ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ أي: في الدار الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، «**وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ**

عُذِّبَ»[(١)]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي الحُسنى ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الجنة، قاله ابن عباس، والجمهور.

والثاني: أنها الحياة والرزق، قاله مجاهد.

والثالث: كل خير من الجنة فما دونها، قاله أبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ اي: لجعلوه فداء أنفسهم من العذاب، ولا يُقبل منهم. وفي سوء الحساب ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها المناقشة بالأعمال، رواه ابو الجوزاء عن ابن عباس. وقال النخعي: هو أن يحاسَب بذنبه كله، فلا يُغفر له منه شيء.

والثاني: أن لا تُقبل منهم حسنة، ولا يُتجاوز لهم عن سيئة.

والثالث: أنه التوبيخ والتقريع عند الحساب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي أجابوا، واستجاب بمعنى أجاب، قال:

فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أي أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات. ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ لأنها في نهاية الحسن. وقيل: من الحسنى النصر في الدنيا، والنعيم المقيم غدا. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي لم يجيبوا إلى الإيمان به. ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي من الأموال. ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ ملك لهم. ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ من عذاب يوم القيامة، نظيره في «آل عمران» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ

(١) البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

﴿ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١] حسب ما تقدم بيانه هناك. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فرقد السبخي قال لي إبراهيم النخعي: يا فرقد! أتدري ما سوء الحساب؟ قلت لا! قال أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يفقد منه شي. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي مسكنهم ومقامهم. ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ أي الفراش الذي مهدوا لأنفسهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما بيّن تعالى الحق من الباطل ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه، فذكر ثوابه، وغير مستجيب فذكر عقابه فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الحالة الحسنة والثواب الحسن.

فلهم من الصفات أجلها ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال وبين لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة، فـ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من ذهب وفضة وغيرها، ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم وأنى لهم ذلك؟!!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم وقالوا: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ ﴿و﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الجامعة لكل عذاب، من الجوع الشديد، والعطش الوجيع، والنار الحامية والزقوم والزمهرير، والضريع وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ أي: المقر والمسكن مسكنهم.

مثلٌ مضروب للمؤمن والكافر

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿۞أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾.

ج: هذا – والله أعلم –: بيان لكون المسلم لا يستوي مع الكافر، والصالح لا يستوي مع الطالح، فيقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ يا رسول الله أن القرآن الذي أُنزل عليك إنما الذي أنزله هو الله ﷻ، نزل من عند الله حقًّا وكل ما فيه حق، فآمن بذلك وأقر واتبع ذلك وامتثل، أهذا يستوي مع أعمى البصيرة الذي جحد القرآن وكذَّب به، وقال – لكونه أعمى البصيرة – إن هذا القرآن ليس من عند أهذا يستوي مع ذاك، كلا، إنما يتعظ بالقرآن ويتذكر به ويستفيد منه أصحاب العقول النيِّرة الرشيدة، وللآية نظائر كقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨ ﴾ [السجدة: ١٨]، وكقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ٣٥ ﴾ [القلم: ٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ١٤ ﴾ [محمد: ١٤].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أهذا الذي يعلم أنّ الذي أنزله الله عليك، يا محمد، حق فيؤمن به ويصدق ويعمل بما فيه، كالذي هو أعمى فلا يعرف موقع حُجَة الله عليه به ولا يعلم ما ألزمه الله من فَرَائصه؟

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ يقول: إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول، وهي ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ واحدها «لُبٌّ».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو

كله حق يصدق بعضه بعضا، لا يضاد شيء منه شيئا آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقا في الأخبار، وعدلا في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صدقه ولا اتبعه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة جعلنا الله منهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: مفرقا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ ففهم ذلك وعمل به. ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض، فحقيق بالعبد أن يتذكر ويتفكر أي الفريقين أحسن حالا وخير مآلا فيؤثر طريقها ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ أي: أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة، الذين هم لُبّ العالم، وصفوة بني آدم.



صفات أولي الألباب

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

ج: هذه بعض صفات أولي الألباب، أصحاب العقول النيِّرة الرشيدة الذين أيقنوا أن هذا القرآن من عند الله ﷻ.

فإنهم يوفون بعهد الله، وهذا يشمل كل العهود التي أخذها الله عليهم على ألسنة رسله، والتي أخذها عليهم في كتبه المنزلة على رسله عليهم صلوات الله وسلامه، وكذا العهد الذي أخذه عليهم وهم في صلب آدم ؑ ألا يشركوا بالله شيئًا، وكذا كل العهود التي عاهدوا عليها خلق الله ﷻ، وكذا الأيمان والنذور وغير ذلك، ولا ينقضون هذه العهود، وخاصة تلك العهود المؤكدة بالأيمان، فالميثاق كثيرًا ما يطلق على العهد المؤكد باليمين.

وكذا فإن من صفات أولي الألباب أنهم يصلون ما أمره الله به أن يوصل، ومن ذلك وصل الأرحام، ومن ذلك وصل الإيمان بالأنبياء كلهم، ومن ذلك وصل الأخوة الإسلامية، وعمومًا كل ما أمر الله به أن يُوصل فإنهم يصلونه، ومع وصلهم الأرحام، ومع وفائهم بالعهود والمواثيق، فإنهم يخشون عقاب الله ﷻ، شأنهم في ذلك شأن أهل الإيمان يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ أنهم إلى ربهم راجعون.

أما سوء الحساب فقد تقدم ذكره قريبًا، ومنه المؤاخذة بكل الذنوب وعدم التجاوز عن شيء منها، ومنها: التقريع والتوبيخ عند الحساب، ومنها: عدم

قبول الحسنات وإحباطها بسبب أي عملٍ عملوه، أو أي قولٍ قالوه.

ومع ما ذكر فإنهم صبروا، صبروا على ما أصابهم من المصيبة، صبروا على أقدار الله ﷻ، وصبروا عن المحرمات فلم يفعلوها، وصبروا على الطاعات فامتثلوا وسمعوا وأطاعوا.

صبروا على حماقات الناس، وعلى جهالات الناس، فأعرضوا عن الجاهلين وعن المسيئين، صبروا لا يُقال عنهم صبروا، صبورا لكن ليس صبرهم خوفًا على صحتهم، إنما صبروا ابتغاء وجه الله، ورجاء ثواب الله، وخشية لقاء الله.

صبروا وحافظوا على الصلاة بأركانها وفرائضها وواجباتها وأدوها في أوقاتها.

وأنفقوا كذلك فيما يرضي الله ﷻ سرًّا وجهرًا فأخرجوا زكاة الأموال، وأتبعوا ذلك بالنفل والصدقات، إذا تيسر لهم الإسرار بالصدقات وإخفائها فعلوا ذلك، وإلا تصدقوا جهرًا لترغيب غيرهم في الصدقة والإنفاق؛ ولأن مناسبة إخراج المال ستفوتهم، ففقهوا ذلك، فقهوا متى يتصدقون سرًّا ومتى يتصدقون جهرًا فتصدقوا جهرًا إذا رأوا المقامات تحتاج إلى ذلك، وتصدقوا سرًّا سترًا على الفقراء وأهل التعفف، وكذا فإنهم قابلوا إساءات العباد بإحسان فدفعوا بالحسنة السيئة، فإذا سبَّهم أحدٌ قابلوه بقولهم عفا الله عنك، رحمك الله – تجاوز الله عنك غفر الله لك– يُعطون من منعهم ويصلون من قطعهم ويعفون عمن ظلمهم.

ثم في أنفسهم إن اصابوا سيئة اتبعوها بفعل حسنة، إن أساءوا استغفروا وأنابوا، وإن أخطأوا في حق أحد تحللوا منه وطلبوا عفوه.

شأنهم الامتثال لله كما قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ [المؤمنون:

(١٠٠) أحمر
أسود

٩٦]، وكما قال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] أولئك المتصفون بهذه الصفات لهم العاقبة الحسنة في الدار الآخرة، وهي الجنة التي وصفها الله بقوله هاهنا: جنات عدن، بساتين وحدائق يقيمون فيها لا يخرجون منها فـ﴿عَدۡنٍ﴾ إقامة، وقيل: اسمف لجنة من الجنات يدخلونها، ومعهم من آمن وأصلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم فينعمون في هذه الجنات ويتنعمون، وكما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾ مُهنئين لهم قائلين سلام عليكم بما صبرتم فنعم العاقبة الحسنة في هذه الدار الآخرة، ألا وهي الجنة. جعلنا الله من أهلها.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إنما يتعظ ويعتبر بآيات الله أولو الألباب، الذين يوفون بوصية الله التي أوصاهم بها ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾، ولا يخالفون العهد الذي عاهدوا الله عليه إلى خلافه، فيعملوا بغير ما أمرهم به، ويخالفوا إلى ما نهى عنه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، يقول تعالى ذكره: والذين يصلون الرَّحم التي أمرهم الله بوصلها فلا يقطعونها ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، يقول: ويخافون الله في قطْعها أن يقطعوها، فيعاقبهم على قطعها وعلى خلافهم أمرَه فيها.

وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾، يقول: ويحذرون مناقشة الله إياهم في الحساب، ثم لا يصفح لهم عن ذنب، فهم لرهبتهم ذلك جادُّون في طاعته، محافظون على حدوده.

يقول تعالى ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الوفاء بعهد الله، وترك نقض

الميثاق وصلة الرحم ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، ويعني بقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، طلب تعظيم الله، وتنزيهًا له أن يُخالَفَ في أمره أو يأتي أمرًا كره إتيانه فيعصيه به ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يقول: وأدُّوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ يقول: وأدَّوا من أموالهم زكاتها المفروضة وأنفقوا منها في السبل التي أمرهم الله بالنفقة فيها ﴿سِرّٗا﴾ في خفاء ﴿وَعَلَانِيَةٗ﴾ في الظاهر.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد: «الصبر»، الإقامة. قال، وقال «الصبر» في هاتين، فصبرٌ لله على ما أحبَّ وإن ثقل على الأنفس والأبدان، وصبرٌ عمَّا يكره وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين. وقرأ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾.

وقوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، يقول: ويدفعون إساءة من أساء إليهم من الناس، بالإحسان إليهم. كما:-

حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، قال: يدفعون الشر بالخير، لا يكافئون الشرّ بالشر، ولكن يدفعونه بالخير.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، هم الذين ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾، يقول: هم الذين أعقبهم الله دارَ الجنان، من دارهم التي لو لم يكونوا مؤمنين كانت لهم في النار، فأعقبهم الله من تلك هذه.

وقد قيل: معنى ذلك: أولئك الذين لهم عقِيبَ طاعتهم ربَّهم في الدنيا، دارُ الجنان.

يقول ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، ترجمة عن ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾ كما يقال: «نعم الرجل عبد الله»، فعبد الله هو الرجل المقول له: «نعم الرجل»، وتأويل الكلام: أولئك

لهم عَقِيبَ طاعتهم ربِّهم الدارُ التي هي جَنَّات عدْنٍ.

وقد بينا معنى قوله: ﴿عَدۡنٍ﴾، وأنه بمعنى الإقامة التي لا ظَعْنَ معها.

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾، يقول تعالى ذكره: جنات عدن يدخلها هؤلاء الذين وصف صفتهم وهم الذين يوفون بعهد الله، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وأقاموا الصلاة، وفعلوا الأفعال التي ذكرها جل ثناؤه في هذه الآيات الثلاث ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾، وهي نساؤهم وأهلوهم و﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾.. و«صلاحهم» إيمانهم بالله واتباعهم أمره وأمر رسوله عليه السلام.

وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾، يقول: تعالى ذكره: وتدخل الملائكة على هؤلاء الذين وصف جل ثناؤه صفتهم في هذه الآيات الثلاث في جنات عدن، من كل باب منها، يقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ على طاعة ربكم في الدنيا ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾.

قال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم عقبى الدار وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ وليسوا كالمنافقين الذين «**إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان**»[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار

(١) البخاري (حديث ٣٤)، ومسلم (٥٨).

الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا نفوسهم عن ذلك لله ﷻ؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]؛ ولهذا قال مخبرا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة، أي: جنات إقامة يخلدون فيها.

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتنانا من الله وإحسانا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ

﴿٢٤﴾ أي: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ الذي عهده إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها، والنصح فيها ﴿و﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: العهد الذي عاهدوا عليه الله، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والنذور، التي يعقدها العباد. فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم، إلا بأدائها كاملة، وعدم نقضها وبخسها.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من الإيمان به وبرسوله، ومحبته ومحبة رسوله، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له، ولطاعة رسوله.

ويصلون آباءهم وأمهاتهم ببرهم بالقول والفعل وعدم عقوقهم، ويصلون الأقارب والأرحام، بالإحسان إليهم قولا وفعلا ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والمماليك، بأداء حقهم كاملا موفرا من الحقوق الدينية والدنيوية.

والسبب الذي يجعل العبد واصلا ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدوم عليه يوم الحساب، أن يتجرؤوا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به خوفا من العقاب ورجاء للثواب.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على المأمورات بالامتثال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلبا لمرضاة ربه، ورجاء للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها ومكملاتها ظاهرا وباطنا، ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات والنفقات المستحبة وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سرا وعلانية، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه.

فيعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ فسرها بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة لا يزولون عنها، ولا يبغون عنها حولا؛ لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم أنهم ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ من الذكور

والإناث ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي الزوج أو الزوجة وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحباب، فإنهم من أزواجهم، ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ يهنئونهم بالسلامة وكرامة الله لهم ويقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْۚ﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان الغالية، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار، التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون وفيها فليتنافس المتنافسون.



س: ما مدى صحة هذا الحديث الذي رواه عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ وَخِيرَتُكَ من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ

(١٠٧) أحمر
أسود

لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً- قَالَ-: فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»[١].

ج: هذا الحديث ورد من طريقين يصح سندهما عن ابي عشانة عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ فسنده صحيح.



(١) رواه أحمد (٢/١٦٨)، وعبد بن حميد (٣٥٢)، وغيرهم.

(١٠٨) أحمر
أسود

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)
الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَٰلِكَ
أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ
يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ
قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا
أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ
كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ
قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)﴾ [الرعد: ٢٥-٣٤]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ٱللَّعۡنَةُ - سُوٓءُ ٱلدَّارِ -يَبۡسُطُ - وَيَقۡدِرُ - مَتَٰعٞ - ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ - يُضِلُّ - وَيَهۡدِيٓ - أَنَابَ - وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم - بِذِكۡرِ ٱللَّهِ - طُوبَىٰ لَهُمۡ - وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ - خَلَتۡ - لِّتَتۡلُوَاْ - يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ - تَوَكَّلۡتُ - مَتَابِ - أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ - قَارِعَةٌ - وَعۡدُ ٱللَّهِ - فَأَمۡلَيۡتُ - أَخَذۡتُهُمۡ - قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ - سَمُّوهُمۡ - بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ - زُيِّنَ - مَكۡرُهُمۡ - وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ - وَاقٖ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾	الطرد من رحمة الله ﷻ والإبعاد عنها.
﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾	سوء المصير في الدار الآخرة، وهو النار.
﴿يَبۡسُطُ﴾	يوسع.
﴿وَيَقۡدِرُ﴾	يضيق.
﴿مَتَٰعٞ﴾	شيءٌ يُتمتع به ويزول.
﴿ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾	معجزة من الله ﷻ.
﴿يُضِلُّ﴾	يصرف عن الحق والإيمان.
﴿وَيَهۡدِيٓ﴾	يوفق للحق والإيمان.
﴿أَنَابَ﴾	رجع بقلبه إلى ربِّه وعمل بما أمر وانتهى عما نُهي.
﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾	تسكن قلوبهم - تخشع قلوبهم - تأنس قلوبهم.
﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾	بالقرآن وبالتهليل والتكبير والتحميد والتسبيح والاستغفار والصلاة والرضا بقضاء الله.....

(١١٠) أحمر
أسود

﴿لِّتَتۡلُوَاْ﴾	لتقرأ.
﴿يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾	يجحدون وحدانية الله ﷻ وينكرون اسم الرحمن.
﴿تَوَكَّلۡتُ﴾	اعتمدت.
﴿مَتَابِ﴾	توبتي ورجوعي طلبًا للمغفرة وقضاء الحوائج وسمعًا وطاعة لله وإنابة.
﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾	أفلم يعلم - أفلم يتبين.
﴿قَارِعَةٌ﴾	مصيبة تقرع آذانهم - بلاء من عند الله - سريَّةٌ أو غزوة منك تغزوهم فيسمعون خبرها، فتقرعهم وتفزعهم وتنزل بديارهم.
﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾	وعد الله بالبعث يوم القيامة - وعد الله بالفتح فتح مكة.
﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾	فأخرت.
﴿أَخَذۡتُهُمۡ﴾	انتقمت منهم وأهلكتهم ورددتهم إلى بعد إهلاكهم لحسابهم يوم لا قيامة.
﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾	حفيظ على كل نفس يحفظ اعمالها ويراقبها ويكتب كسبها نوكذا يدبر أمرها..
﴿سَمُّوهُمۡ﴾	اذكروا لنا من هم؟
﴿بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾	بظاهر من القول يسمع ولا حقيقة له - بباطل - بظنٍّ.
﴿زُيِّنَ﴾	حُسِّن.
﴿مَكۡرُهُمۡ﴾	كيدهم - شركهم - تآمرهم على الباطل.

(١١١) أحمر
أسود

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾	صُرفوا عن طريق الحق والرشاد.
﴿وَاقٍ﴾	دافع يدفع عنهم العذاب ويقيهم العذاب.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: وبعد أن بيَّن الله ﷻ جزاء الطائعين أولي الألباب، وصفاتهم وأعمالهم، ذكر الله ﷻ مُحذِّرًا أحوال العصاة الطغاة الكفرة الظالمين وصفاتهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ فينقضون العهود التي أخذها الله وهم في صلب أبيهم آدم ألا يشركوا بالله شيئًا، وينقضون العهود التي أخذها الله عليهم في كتبه وعلى ألسنة رسله وينقضون العهود التي أخذها عليهم الناس وأقسموا للناس على الوفاء بها، فالحاصل أنهم إن تسنى لهم نقضا لعهد نقضوه ولا يُبالون، وكذا فإنهم يقطعوهن الأرحام، ويؤمنون ببعض النبيين ويكفرون ببعض ويقطعون الأخوة الإيمانية، ويقطعون القول عن العمل فلا يصلونه بالعمل، وهذا يتبعه إفساد في الأرض فإنهم يسعون في الأرض بالفساد فيعملون بمعصية الله ويشركون بالله ما لم ينزل به سلطانًا ويدعون الناس إلى الحرام، فأولئك لهم اللعنة، والطرد والإبعاد عن رحمة الله، ولهم العاقبة السيئة في الدار الآخرة وهي الجحيم والعياذ بالله.

وبنحو ذلك قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأما الذين ينقضون عهد الله، ونقضهم ذلك، خلافهم أمر الله، وعملهم بمعصيته ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، يقول: من بعد ما وثّقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، يقول: ويقطعون الرحم التي أمرهم الله بوصلها ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فسادهم فيها: عملهم بمعاصي الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾، يقول: فهؤلاء لهم اللعنة، وهي البعد من رحمته، والإقصاء من جِنانه ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ يقول: ولهم ما يسوءهم

في الدار الآخرة.

وأورد بسندٍ صحيح عن مصعب بن سعد (ابن أبي وقاص) قال: سألت أبي عن هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، أهم الحرورية؟ قال: لا ولكن الحرورية[1] ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥﴾، فكان سعدٌ يسميهم الفاسقين.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كما ثبت في الحديث: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**» وفي رواية: «**وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**».

ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿ولهم وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥﴾ وهي سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم وبئس القرار.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ لما ذكر الموفين بعهده، والمواصلين لأمره، وذكر ما لهم ذكر عكسهم. نقض الميثاق: ترك أمره. وقيل: إهمال عقولهم، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ أي من الأرحام. والإيمان بجميع الأنبياء. ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بالكفر وارتكاب المعاصي ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي الطرد والإبعاد من الرحمة.

(١) الحرورية هم الخوارج، قيل: عنهم الحرورية نسبة إلى بلدة كانوا يسكنونها يُقال لها: حروراء.

﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ أي سوء المنقلب، وهو جهنم. وقال سعد بن أبي وقاص: والله الذي لا إله إلا هو! إنهم الحرورية.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر حال أهل الجنة ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظ عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقص، ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ أي: البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين، ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ وهي: الجحيم بما فيها من العذاب الأليم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: الله ﷻ هو الذي يوسع الرزق على من يشاء من عباده فيعطي من يشاء من العطاء والواسع ويضيق على من يشاء، وقد علم أهل الإيمان ذلك، أما أهل الكفر والانكباب على الدنيا ففرحوا بمتاعها الزائل فرحًا أنساهم لقاء الله ﷻ والاستعداد ليوم المعاد، ألا فليعلموا أن الحياة الدنيا وما فيها ما هي إلا متاع زائل، ومتاعٌ للمغرورين بها، يوشك أن تول عنهم ويزولوا عنها كما قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الله يوسّع على من يَشاء من خلقه في رزقه، فيبسط لـه منه لأن منهم من لا يُصْلحه إلا ذلك ﴿وَيَقْدِرُ﴾، يقول: ويقتِّر على من يشاء منهم في رزقه وعيشه، فيضيّقه عليه، لأنه لا يصلحه إلا الإقتار ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، يقول تعالى ذكره: وفرح هؤلاء الذين بُسِط لهم في الدنيا من الرزق على كفرهم بالله ومعصيتهم إياه بما بسط لهم فيها، وجهلوا ما عند الله لأهل طاعته والإيمان به في الآخرة من الكرامة والنعيم.

ثم أخبر جلّ ثناؤه عن قدر ذلك في الدنيا فيما لأهل الإيمان به عنده في الآخرة وأعلم عباده قِلّته، فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾، يقول: وما جميع ما أعطى هؤلاء في الدنيا من السَّعة وبُسِط لهم فيها من الرزق ورغد العيش، فيما عند الله لأهل طاعته في الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ قليل، وشيء حقير ذاهب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بين أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا، لأنها دار امتحان، فبسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق، ومنه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضيق. وقيل: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعطي بقدر الكفاية. ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني مشركي مكة، فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ما عند الله، وهو معطوف على ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وفي الآية تقديم وتأخير، التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى

ٱلْأَخِرَةِ ﴾ أي في جنبها. ﴿إلا متاع﴾ أي متاع من الأمتعة، كالقصعة والسكرجة. وقال مجاهد: شي قليل ذاهب، من متع النهار إذا ارتفع، فلا بد له من زوال. ابن عباس: زاد كزاد الراعي. وقيل: متاع الحياة الدنيا ما يستمتع بها منها. وقيل: ما يتزود منها إلى الآخرة، من التقوى والعمل الصالح، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ ثم ابتدأ. ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع ويضيق.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل. وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ كما قال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧] وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(١): حَدَّثَنَا وَكِيع وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ قَالَا حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسٍ، عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ أَخِي بَنِي فِهْرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَثَلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ**» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ(٢): أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِجَدْيٍ أسكَّ ميتٍ -وَالْأَسَكُّ الصَّغِيرُ الْأُذُنَيْنِ- فَقَالَ: «**وَاللهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَى أَهْلِهِ حِينَ**

(١) مسلم (٢٨٥٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٨).
(٢) مسلم (٢٩٥٧).

(١١٧) أحمر
أسود

أَلْقَوْهُ».

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ويقدره ويضيقه على من يشاء، ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي: الكفار ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فرحا أوجب لهم أن يطمئنوا بها، ويغفلوا عن الآخرة وذلك لنقصان عقولهم، ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾ أي: شيء حقير يتمتع به قليلا ويفارق أهله وأصحابه ويعقبهم ويلا طويلا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: ويقول أهل الكفر على سبيل التعنت والعناد، والسخرية والاستهزاء لولا أنزل على رسول الله ﷺ معجزة من عند الله، كتلك المعجزات التي أيد الله بها أنبيائه الأولين، كسليمان سخرت له الريح، وداود سخرت له الجبال تسبح معه، وألان الله له الحديد، وكموسى وما جاء به من الآيات كالعصا واليد ونحو ذلك، وكعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ كان يحيي الموتى بإذن الله، وكناقة صالح وغير ذلك، فقل لهؤلاء الذين طلبوا ذلك إن هذه الآيات لن تنشئ إيمانًا، وإنما الذي يوفق للإيمان ويشرح له الصدور هو الله ﷻ، قل لهم إن الله يضل من يشاء أن يضله ويهدي إليه ويوفق ويرشد من سلك الطريق الموصلة إلى الله ﷻ، أما أنتم وأنتم قياسه على شرككم وكفركم وعنادكم، فأنتم بعيدون عن أسباب الهداية بذلك، والتوفيق منكم بعيد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويقول لك يا محمد، مشركو قومك: هلا أنزل عليك

آية من ربك، إمّا ملك يكون معك نذيرًا، أو يُلْقَى إليك كنز؟ فقل: إن الله يضل منكم من يشاء أيها القوم، فيخذله عن تصديقي والإيمان بما جئته به من عند ربي ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾، فرجع إلى التوبة من كفره والإيمان به، فيوفقه لاتباعي وتصديقي على ما جئته به من عند ربه، وليس ضلالُ من يضلّ منكم بأن لم ينزل علي آية من ربّي ولا هداية من يهتدي منكم بأنَّها أنزلت عليّ، وإنما ذلك بيَدِ الله، يوفّق من يشاء منكم للإيمان ويخذل من يشاء منكم فلا يؤمن.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن قيل المشركين: ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥] وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا. وفي الحديث: أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهبا، وأن يجري لهم ينبوعا، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا فإني أعذبهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١] وقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

[الأنعام: ١١١]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: ويهدي من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا عليه ﷺ الإتيان بآية ينزلها عليه ربه، وبين هذا المعنى في مواضع متعددة، كقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات، وبين تعالى في موضع آخر أن في القرآن العظيم كفاية عن جميع الآيات، في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وبين في موضع آخر حكمة عدم إنزال آية كناقة صالح ونحوها، بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]، كما تقدمت الإشارة إليه.



س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: الذين آمنوا ومن شأنهم أن قلوبهم تهدأ وتسكن بذكر الله ﷻ، وتأنس به كذلك ألا فاعلموا أ، ذكر الله تطمئن به القلوب وتهدأ وتسكن وتلين، فهؤلاء الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، واتبعوا الإيمان بصالح الأعمال طوبى لهم، وقيل: إن طوبى هي الجنة، وقيل: شجرة فيها، وقيل: فرحٌ وسرورٌ وقرة أعين لهم، وكذا لهم عند الله ﷻ حسن مرجع وحسن مصير.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، يقول: وتسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله.

وقوله: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾، يقول: ألا بذكر الله تسكن وتستأنس قلوبُ المؤمنين.

وقيل: إنه عنى بذلك قلوب المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، الصالحات من الأعمال، وذلك العمل بما أمرهم ربهم ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾.

قال الطبري:

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾.

فقال بعضهم: معناه: نِعْمَ ما لهم.

وقال آخرون: معناه: غبطة لهم.

وقال آخرون: معناه: فرحٌ وقُرَّةُ عين.

وقال آخرون: معناه: حُسْنَى لهم.

وقال آخرون: معناه: خير لهم.

وقال آخرون: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾، اسم من أسماء الجنة، ومعنى الكلام، الجنة لهُم.

وقال آخرون: شجرة في الجنة، يُقال لها: طوبى.

وأورد بعض الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ.

قال الطبري:

وأما قوله: ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾، فإنه يقول: وحسن منقلب.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها.

﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ أي: حقيق بها وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام.

﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم، فإنه يجد بينها وبينه فرقا عظيما. ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة، أعمال القلوب كمحبة الله وخشيته ورجائه، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها. ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ أي: لهم حالة طيبة ومرجع حسن.

وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة، وأن لهم

كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا بدل من قوله: ﴿أَنَابَ﴾، والمعنى: يهدي الذين آمنوا، ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ في هذا الذِّكر قولان:

أحدهما: أنه القرآن.

والثاني: ذِكر الله على الإِطلاق.

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان:

أحدهما: أنها الحُب له والأُنس به.

والثاني: السكون إِليه من غير شك، بخلاف الذين إِذا ذُكر الله اشمأزت قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ قال الزجاج: «ألا» حرف تنبيه وابتداء، والمعنى: تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين، لأن الكافر غير مطمئن القلب.



مبحثٌ في المراد بذكر الله تطمئن به القلوب

س: ما المراد بذكر الله الذي تطمئن به القلوب؟

ج: لأهل العلم جملة أقوال في تأويل (الذكر) هاهنا، وكل هذه الأقوال حقٌّ، وكلها صدقٌ، فالذكر ينطبق عليها جميعًا وجميعها تنطبق عليه.

*** فمن أهل العلم من قال: إن المراد بالذِّكر هنا القرآن**

ولهذا القول أدلته وشواهده، فمن أدلته وشواهده:

* قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]. فالذكر هنا القرآن.

* وكذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [فصلت: ٤١].

فالذكر هاهنا القرآن كذلك.

* وكذا قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، فالذكر أيضًا هاهنا القرآن.

*** ومن أهل العلم من قال:** إن المراد بالذِّكر هنا، ذكر الله المتمثل في تسبيحه، وتحميده، وتكبيره، وتهليله، وتمجيده، وذلك كقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكذا نحو قوله: ما شاء الله، وتبارك الله.

*** ومنهم من قال: إن المراد بالذِّكر هاهنا الأذكار الموظفة:** المختصة بالأزمنة والأمكنة والأحوال التي علمنا إياها رسولنا محمد ﷺ.

* كالذكر عند الغضب، وعند القلق، وعند الوضوء، وعند الجماع، وعند نزول المنازل، وسفر المسافر، ودخول الداخل، وخروج الخارج، ونحو ذلك، وهذا هو القول الثالث.

أما القول الرابع: فحاصله أن المراد بذكر الله، ذِكرُ قدرِ الله ﷻ، أي: تذكُّر أن الأمور مقدرة، قدرها الله ﷻ، ومناسبة هذا القول ووجهه أن الله قال: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾ [التغابن: ١١].

قالوا: أي ومن يؤمن بقدر الله، ويوقن أن المصائب قدرها الله يهد قلبه.

* وأما القول الخامس: فالمراد بالذكر هو اليمين بالله أي الحلف بالله ﷻ.

* أما القول السادس: فالمراد بالذِّكر، ذكر الله داخل الصلاة، إذ الصلاة محلٌّ لذكر الله، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه: ١٤]، أي: لتذكرني فيها، وذلك على أحد التفسيرات، وتفسيرٌ آخر، وأقم الصلاة كي تحظى بذكري لك، فإنك إذا ذكرت الله في الصلاة ذكرك الله ﷻ، وكذا إذا ذكرته في خارج الصلاة.

* وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [المنافقون: ٩]. قال بعض العلماء: أي عن الصلاة.

* أما القول السابع: فالمراد بالذكر هاهنا، هو ذكر الله ﷻ باستغفاره، والتوبة والإنابة والرجوع إليه.

فهذا مجمل الأقوال التي وردت في المراد بالذكر في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨].

أمَّا كيف تطمئن القلوب بالذكر على الوجوه المذكورة آنفًا؟

فها هي وجوه الطمأنينة بذلك:

أما على تأويل الذِّكر بالقرآن، فإن القرآن إذا تُلي وقرأه القارئ تنزلت السكينةُ، وغشيت القارئ الرحمةُ وحفته الملائكةُ، كما في حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه مسلم[(١)] وغيره من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ

(١) مسلم (مع النووي: ١٧/ ٢١).

ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

فإذا تنزلت الملائكة هربت الشياطين، فالشيطان لا يكاد يتواجد مع ملكٍ في مكان واحد.

ألا ترى أن الشيطان غرَّ أصحابه من أهل الكفر يوم بدر، وزين لهم أعمالهم، وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم فلما تراءت الفئتان (الفئة المؤمنة والفئة الكافرة) نكص على عقبيه وقال: إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون، فقد رأى الشيطان الملائكة، وعليهم أداة الحرب، إذ الملائكة قد شهدت بدرًا مع المؤمنين، فحينئذٍ فرَّ وهرب، وولى وأدبر، ونكص وانصرف.

وهكذا، فالقرآن إذا تُلي وتنزلت الملائكة هربت الشياطين، تلك الشياطين التي تسبب القلق، وتجلب الاضطراب وتدفع إلى المعاصي دفعًا، وتخوِّف الناس تخويفًا إذ الله قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]. أي: تزعجهم إزعاجًا وتدفعهم إلى المعاصي دفعًا، فإذا انصرفت الشياطين حدث الهدوء، وتنزلت السكينة فاطمأنت القلوب، وهدأ البال.

* **فهذا وجهٌ لطمأنينة القلوب بالقرآن** الذي هو ذكر الله، ملخصه أن القرآن يُتلى فتتنزل الملائكة، فتهرب الشياطين فيحدث الهدوء، وتحدث السكينة.

ووجه آخر لطمأنينة القلوب بالقرين، أنه ما من صاحب ابتلاء، وما من أحدٍ حلَّت به مصيبة يقرأ كتاب الله، إلا ويجد لنفسه مشابهًا قد أصيب بمثل مصيبته، ويجد متعزًّى يتعزَّى به ومتسلى يتسلى فيه، فينظر لمن شابهه في مصيبته وبلائه فيرى أن العاقبة للتقوى، وأن العسر يتبعه - بإذن الله - يسرٌ،

وأن الكرب يتبعه الفرج، فيهدأ بالُهُ ويستقر حاله، فإذا مرض المريض واشتد عليه المرض، واضطرب قلبُهُ لعجز الأطباء عن دوائه، ويأسهم من شفائه فقرا هذا المريض كتاب الله، وكذا نظر في سنة مصطفاه ﷺ، التي هي وحيٌ يُوحى، وجد له أمثالًا ونظراء عجز عن دوائهم الأطباء، ولكن ثم من لا يعجز، وثمَّ شافي لا شفاء إلا شفاؤه، فالله هو الذي يذهب البأس، لا يُذهبه أحدٌ سواه، والله هو الذي يكشف الضرَّ لا يكشفه أحد دونه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧].

فحينئذٍ تطمئن النفس، ويذهب اليأس، فإذا قرأ القارئ المريض من كتاب ربه قصة نبي الله أيوب عليه السلام وكيف وأن الله شفاه بعد عجز الأطباء عن البحث له عن دواء اطمأن القلب وهدأ البال، وواصل المريض الدعاء، وتصبر كما أمره الله، ولم ينقطع في الله رجاه.

فأيوب قد جعله الله وقصته ذكرى للعابدين، ذكرى يتذكرها العباد فيصبرون كما صبر، فيؤجرون كما أُجر.

قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [ص: ٤١-٤٣].

وقال تعالى في شأن هذا النبي مثنيًا عليه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤]. فيا لها من ثلاث شهادات لو أُعطي الواحد منها شهادةً

منها ما وسعته الدنيا، وما فيها، إنها ثلاث شهادات لهذا النبي الكريم من الله رب العالمين.

إنا وجدناه صابرًا!!

نعم العبد!!

إنه أواب!!

فيا لها من فضيلة، ويا لها من مكرة.

وانظر إلى قصته بشيء من التفصيل في حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه ابن حبان(١) بسندٍ صحيح لغيره من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللهِ لَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ، فَيَكْشِفُ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَ إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهُ إِلَّا فِي حَقٍّ قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: ٤٢] فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَبَلَغَتْهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيْ بَارَكَ اللهُ، فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ هَذَا الْمُبْتَلَى، وَاللهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرُ الْقَمْحِ، وَأَنْدَرُ

(١) ابن حبان (موارد الظمآن: ٢٠٩١).

الشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ، أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَتْ، وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ حَتَّى فَاضَتْ».

فهكذا لا ييأس أحدٌ من روح الله، فلا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

ولا يقنط أحدٌ من رحمة الله، ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون.

فلتطمئن قلوب المرضى ومن ضاقت بهم السبل، وانقطعت عنهم الحيل، فلتطمئن قلوبهم على رحمة الله، وعلى فرج الله، فالله يراهم ويبصرهم ويطلع على أحوالهم لا يخفى عليه من أمرهم شيءٌ.

وكذا الآلام والآهات كل ذلك يعلمه الله ويسمعه، ألا فلتطمئن القلوب بذكر الله.

وكذا أيضًا إذا تجاوزنا الابتلاء بالضرِّ في الأبدان إلى ابتلاء آخر قد يُبتلى به بعض العباد، ألا وهو الطعن في الأعراض، والتشكيك في الأمانات، إلى غير ذلك من الاتهامات الباطلة التي قد يُرمى بها أهل الفضل والصلاح فيرى المتهم البريء لنفسه شبهاء ونظراء، اتهموا وهم برآء فأظهر الله براءتهم في الدنيا قبل الآخرة فحينئذٍ تطمئن النفوس البريئة، وتطمئن قلوب أصحابها إلى فرج الله، وإلى نصر الله في الدنيا، وإلا ففي الآخرة - يقينًا- ينجي الله الذين اتقوا، ويُبرئ الله ساحات أهل الإيمان، والمظلومين من كل شائنةٍ وعيب وطعن.

هاهم أفاضل اتهموا وهم براء فأظهر الله براءتهم.

* اتهم يوسف ﷺ وقالت امرأة العزيز لزوجها في شأن يوسف: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: ٢٥].

ثم برأه الله على لسانها بقولها بعد ذلك: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ

وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥١، ٥٢].

* اتهمت مريم عليها السلام، وقالوا لها: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

فبرأها الله على لسان الطفل الرضيع، ونطق عيسى عليه السلام في المهد قائلًا: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

* اتهمت أم المؤمنين التقية الصالحة عائشة ڤ بما رماها به أهل الغفك فنزلت عليها آيات تتلى في الصلوات وخارج الصلوات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ...﴾ [النور: ١١-١٨] الآيات.

* اتهم موسى ﷺ وآذاه قومه فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وها هي القصة بذلك، أخرجها البخاري[(١)] في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ، إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ: وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ**

(١) البخاري حديث (٣٤٠٤).

الحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٩]».

فهذه بعض وجوه الطمأنينة بكتاب الله ﷻ:

* سكينةٌ تتنزل وملائكة تحفُّ، رحمةٌ تغشى، شياطين تفرُّ وتهرب.
* ثم تسلِّي وتاسي وتصبر.

فهذا هو القول الأول في المراد بالذكر، ألا وهو القرآن.

أما الوجه الثاني في تفسير الذكر: وقد أشرنا إليه آنفًا ألا وهو التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، والتمجيد، ونحو ذلك، فكل ذلك يقوِّي الله به القلوب، ويطمئن الله به النفوس، ومن وجوه ذلك أن المسبِّح إذا سبَّح والحامد إذا حمد، وكذا المُكبر والمهلل إذا كبر وهلل وهربت الشياطين، وذلك لكونها تخنس عند ذكر الله ﷻ وتختفي، ويقلُّ عملها ويضعف، فحينئذٍ تتأتى للقلوب الطمأنينة وتتنزل عليها أيضًا السكينة وكيف لا؟! والذاكر يُذكره الله والذاكر يُثيبه الله، والذاكرُ يرفع الله درجته والذَّاكرُ في حصن حصين من الشيطان الرجيم!!

ثم أيضًافإن الذاكر يُثاب بسبب الذِّكر فترتفع درجته وتحطُّ عنه خطيئته، تلك الخطيئة التي سببت للقلب اضطرابًا وقلقًا، فبمحو أثرها يسكن القلب ويطمئن، وهكذا تطمئن القلوب بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

أما القول الثالث في تاويل الذكر: فهو – كما أسلفنا – الأذكار الموظفة التي علمنا إياها رسولنا محمد ﷺ، فبها تطمئن القلوب ووجه ذلك على سبيل

المثال أن الشخص إذا نزل منزلًا مُوحشًا فخاف، ثم إنه ذكر حديث رسول الله ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»[(١)] فذكر الله بهذا الذكر وتعوَّذ بهذا التعوذ اطمأن قلبه وهدأ باله، على قدر إيمانه ويقينه وتصديقه بحديث رسول الله ﷺ.

وكذلك الشخص الذي خوَّفه قومٌ فذكر ما قاله أهل الإيمان لما خوفهم الناس بقولهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾، قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]. فماذا كان؟ قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٤].

ورد في «الصحيح»[(٢)] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وكذا الذي قام من النوم عن إثر رؤيا مفزعة أرهقته وأرَّقته وخوَّفته، فقال وعمل بما علمه إياه رسول الله ﷺ وهي خمسة أمور تفعل عند الرؤيا المفزعة، أخذت من مجموعةٍ من الأحاديث وهذه هي الأمور:

* التعوذ بالله من شر هذا الحُلم.
* والتفل عن يسارك ثلاثًا.
* والتحول عن جنبك الذي كنت عليه.
* ثم صلاة ركعتين.

---

(١) مسلم (مع النووي: ١٧/ ٣١).
(٢) البخاري حديث (٤٥٦٣).

* وعدم التحديث بها.

فحينئذٍ لن يضره شيء بإذن الله تعالى.

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه[١]: وَأَنَا كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا تُمْرِضُنِي، حَتَّى سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ مِنَ اللهِ....**»، فذكر الحديث وفيه: «**وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، وَلْيَتْفِلْ ثَلاثًا، وَلاَ يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ**».

وكذا المسافر القلق على أولاده إذا خرج مسافرًا وخشي على أولاده من بعده فتوكل على الله وأخذ بالأسباب واستودعهم الله كما عُلم من سنة رسول الله ﷺ فليس بضاره شيئًا بإذن الله.

فهكذا تطمئن القلوب بالأذكار الموظفة التي نتعلمها من رسولنا محمد ﷺ.

أما القول الرابع في المراد بالذكر: فهو ذكرُ قدرِ الله عز وجل أي تذكُّر أن الأمور مقدرة فحينئذٍ تطمئن القلوب عند حلول المصائب، ونزول البلايا، بل وفي الرخاء أيضًا.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١ ﴾ [التغابن: ١١].

أي: ومن يؤمن بأن المصائب قدرها الله، وإنما حلَّت بالشخص بإذن الله، يهد الله قلبه ويطمئن الله قلبه.

وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

(١) البخاري (مع الفتح: ١٢/ ٤٣٠).

فمفاد الآية الكريمة أننا أخبرناكم، بأن الأمور مقدرة حتى لا تندموا على شيء فاتكم، ولا تبطروا ولا تغتروا بشيء آتاكم الله إياه.

فإذا خرج خارجٌ لتجارة وتأخر عن السوق ووجد الناس قد ربحوا وأخذوا أخذاتهم وربحوا أرباحهم، وعلم أن الأمر مقدرٌ وأن الرزق مكتوب قبل أن يخلق، بل قبل أن تخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنةٍ مكما قد جاء في الحديث، فحينئذٍ يطمئن قلبه ويهدأ باله ولا يندم على ما فاته.

وإذا خرج أخوه مسافرًا أو غازيًا فمات في سفره أو في غزوته وعلم أن أمر الوفاة ومكانها وزمانها مقدر مكتوب لم يندم على موت أخيه ولم يتحسر، بل يسترجع كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]. وزاد ما ورد عن رسول الله ﷺ: «**اللهُمَّ أجرني في مُصيبَتي وَاخلُفْ لِي خَيرًا مِنْهَا**»[1]، فحينئذٍ يهدأ باله ويستقر حاله وتتنزل عليه السكينة ويصلي عليه ربه ويرحمه ويهديه كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧]، وما أحسن وما أجمل ما ذكرته أم سلمة لما مات زوجها أبو سلمة.

أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** [البقرة: ١٥٦]، **اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»[2].

قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» حديث (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

(٢) مسلم (ص: ٦٣١).

(١٣٤) أحمر
أسود

بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ.

قَالَتْ: أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ، فَقَالَ: «**أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُو اللهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ**».

أما الكافر -عياذًا بالله من الكفر- فييأس من الرحمة ويقنط من روح الله ولا يطمع في الفرج واليسر، بل في قلبه حسرات تتلوها حسرات ويضطرب قلبه اضطرابًا يتلوه اضطراب.

وكذا الذي قلَّ إيمانه وضعف يقينه فماذا عساه أن يفعل إذا حلَّت به المصيبة أو نزلت به البليةُ؟!!

فهذه امرأة كافرة، وأخرى قل إيمانها وضعف يقينها حلَّت بها مصيبة، ونزلت بها بلية فشقت الجيب ولطمت الخدَّ وحلقت الرأس واعترضت على الأقدار واضطرب قلبها فأصبحت تسب الأيام والشهور والليالي، وتصيح صياح المجانين، بل ويكون المجنون أفضل منها في حالتها تلك، فالمجنون مرفوع عنه التكليف، أما هي فتقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب كما جاء عن رسول الله ﷺ في شأن النائحة[(١)]، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من الصالقة والحالقة والشاقة[(٢)].

وماذا عساها أن تجني بعد ذلك، إنها تجني ثمار اعتراضها على القدر: حسرات إلى حسرات، وخسارًا إلى خسارٍ، يتسرب إليها الندم الذي لا ينفع

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٦)، ومسلم حديث (١٠٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا أن النبي ﷺ قال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ» وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ».

بشيء فتقول: يا ليته ما خرج من بيته، فتقع فيما يقع فيه الكفار الذين نهانا الله عن التشبه بهم حيث قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾ [آل عمران: ١٥٦].

* فهؤلاء الكفار إذا خرج إخوانهم مسافرين، أو خرجوا في غزوة من الغزوات فماتوا في أسفارهم، أو قتلوا في مغازيهم تسرب الندم إلى إخوانهم الجالسين الذين لم يخرجوا وقالوا: يا ليتهم ما سافروا وما خرجوا؛ فلو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا، وهذا الندم الذي تسرب إليهم إنما قذفه الله في قلوبهم عقوبة لهم على كفرهم، وعلى اعتراضهم على أقداره.

ثم بيَّن الله لأهل الإيمان أنه سبحانه هو الذي يحيي وهو الذي يميت، وهو عليم بما نقول، بصير بما نعمل.

والطالب يكون في دراسته مجتهدًا غاية الاجتهاد ذكيًّا في غاية من الذكاء، وكل عام ينجح وينجح بتفوق على أقرانه، ويأتي في امتحان الثانوية مثلًا - التي بعدها يتجه إلى جامعة من الجامعات- فيخرج من بيته صباحًا للامتحان؛ فيسقط من على الدَّرج فتكسر رجله، أو يهشم رأسه، أو تصدمه سيارة فيذهب إلى المستشفى والآلام تحيط به من كل جانب والدم ينزف منه من كل مكان، يعالج ويتألم وزملاؤه في الامتحان يؤدونه بهدوء أعصاب وراحة بال، فماذا عساه أن يفعل إذا لم يكن مؤمنًا بأقدار الله؟!!

لا شك أنه إذا كان مؤمنًا بالله وبأقداره رضي وحمد الله على كل حال، وعلم أن هذا ابتلاء من الله، وأن الله ﷻ يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب، فكان أمله ورجاؤه فيما عند الله، واحتسب كل ما أصابه في نفسه وبدنه ودنياه، فحينئذٍ يبدله الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه.

(١٣٦) أحمر
أسود

* والمرأة أو الفتاة تكون جميلة حسناء يتحدث أهل البلدة عن حسنها وجمالها وبهائها؛ فما تلبث إلا قليلًا حتى تُبتلى، تذهب لطهي طعام يتناثر زيت حار على وجهها وجسمها فيشوهها ويفرُّ الناس منها عند رؤيتها، فكيف تصنع مثل هذه إذا لم تكن تؤمن بالله وبأقداره وترضى بقضائه؟!!

أما عن القول الخامس في المراد بذكر الله: فكما أسلفنا هو اليمين بالله!

فإذا شككت أنه قد حدث أمرٌ ما من أحد إخوانك أو أصدقائك أو غيرهم، وارتبت في الأمر، وذهبت بك الظنون هاهنا وهاهنا، واضطرب قلبك ولم يستقر على حال ولم يهدأ لك بالٌ، وليست عندك بينات قواطع، ولا شهود ثقات، فتقدم لك من شككت في أمره وأقسم لك يمينًا بالله أنه ما فعل الذي اتهمته به فحينئذٍ ينبغي أن يطمئن قلبك ويهدأ بالك فإن كان صادقًا في يمينه فلا تحمل نفسك إثم الظن السيئ به، وإنه كان كاذبًا في يمينه فسينتقم الله لك منه وسيكفيكهم الله.

فهكذا يطمئن القلب بذكر الله ﷻ إذا رضي صاحبه باليمين الذي شرعه الله، وأذكر هاهنا حديثًا ورد عن رسول الله ﷺ في واقعة من الوقائع.

أخرج البخاري ومسلم من حديث قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»(١)، قَالَ: فَقَالَ الأَشْعَثُ: فِيَّ وَاللهِ كَانَ ذَلِكَ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري في عدة مواطن من «صحيحه»، منها (٢٦٦٦، ٢٦٦٧)، ومسلم حديث (١٣٨)، وغيرهم.

وثَمَّ سبب نزول آخر لهذه الآية الكريمة أخرجه البخاري (٤٥٥١) من طريق إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ فِيهَا، لَقَدْ أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطِهِ، لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ»، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ..﴾ [آل عمران: ٧٧] إِلَى آخِرِ الآيَةِ. لكن في إسنادها إبراهيم بن عبد الرحمن وهو السكسكي

الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَكَ بَيِّنَةٌ**»، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «**احْلِفْ**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذًا يَحْلِفَ وَيَذْهَبَ بِمَالِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

أما الوجه السادس فذكر الله الذي تطمئن به القلوب هو ذكره تعالى في الصلاة:

وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤].

أي: لتذكرني فيها، ووجه آخر: وأقم الصلاة حتى تحظى بذكرى لك، فإن من ذكر الله ذكره الله، كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وكما قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»(١).

وبالصلاة تطمئن القلوب، ولذا فقد كان النبي ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمرٌ صَلَّى(٢)، وكان أيضًا صلوات الله وسلامه عليه يقول لبلال: «**قُمْ يَا بِلَال فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**»(٣)، فصاحب القلب المضطرب إذا وقف بين يدي الله في صلاته، وذكره ودعاه ولجأ إليه ورجاه، وعظم ربه وركع، وخشع له وسجد اطمأن قلبه وهدأ باله بإذن الله.

أما الوجه السابع، فالذكر هو الاستغفار:

فاضطراب القلب من المصائب، وكذا قلقه وتقلبه، والمصائب إنما تتأتى

متكلم فيه، وقد انتقد الدارقطني على البخاري إخراج بعض الأحاديث من طريقه.

(١) البخاري (١٣/ ٣٨٤).

(٢) صحيح لشواهده: أخرجه أبو داود (١١٥).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود حديث (٤٩٨٦).

وتحل في كثيرٍ من الأحيان بسبب الذنوب والمعاصي، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

وهذه الصمائب وتلك العقوبات، تُدفع بالاستغفار، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣].

فبالاستغفار، وكذا رد المظالم إلى أهلها كلُّ ذلك يطمئن القلب بإذن الله، ويُذهب روعه وخوفه وقلقه واضطرابه.

وأخيرًا...

فكل هذه الأقوال حق، وكلها صدقٌ، والاختلاف في تأويل الذكر هنا اختلاف تنوع، وليس باختلاف تضاد، فمن اضطرب قلبه وأراد له السكون والطمأنينة فعليه:

* بتلاوة القرآن وتدبره وتأمل آياته وتفهمها.

* وعليه بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والتمجيد.

* وعليه كذلك بالأذكار الموظفة الواردة في الكتاب العزيز وصحيح السنة.

* وكذا فليرض بقضاء الله الذي قضاه، وقدره الذي قدَّر.

وكذا فليرض بشرع الله، وليقبل اليمين بالله، ويكلُ ما وراء ذلك إلى الله عز وجل.

* وكذا فعليه بالصلاة.

* وليكلِّل ذلك بالاستغفار ورد المظالم إلى أهلها فبذلك تطمئن القلوب، ومن أصدق من الله قيلًا.

ومن أصدق من الله حديثًا، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟!!

طمأن الله قلوبنا بذكره، وأعننا ربنا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم -: وهكذا يا رسول الله أرسلناك للناس رسولًا في جماعة من الناس قد مضت قبلها جماعات من الناس، أرسلناك لتتلوا عليهم القرآن الذي أوحيناه إليك، وتعلمهم إياه وتأمرهم بامتثال ما فيه من الأوامر واجتناب ما نهى الله عنه وتخبرهم بسائر ما فيه من الأخبار، وهم يكفرون بالرحمن، وهنا وجهان للعلماء في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾.

أحدهما وأظهرهما: أنهم: يجحدون وحدانية الله ﷻ فيشركون به ما لم ينزل به سلطانًا.

والثاني: أنهم ينكرون اسم الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠].

وقد قال سهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ يوم الحديبية: «وَمَا نَدْرِي مَا الرَّحْمَنِ».

فقل يا رسول الله لهؤلاء وأولئك إن الله الرحمن هو ربي لا معبود بحق إلا هو عليه اعتمدت في شؤوني كلها وإليه توبتي ورجوعي إذا أنا أذنبت، وإليه رجوعي كذلك لقضاء حوائجي ولكشف الضر عني.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هكذا أرسلناك يا محمد في جماعة من الناس يعني إلى جماعةً قد خلت من قبلها جماعات على مثل الذي هم عليه، فمضت ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، يقول: لتبلغهم ما أرسَلْتك به إليهم من وحيي الذي أوحيته إليك ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، يقول: وهم يجحدون وحدانيّة الله، ويكذّبون بها ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّى﴾، يقول: إنْ كفر هؤلاء الذين أرسلتُك إليهم، يا محمد بالرحمن، فقل أنت: الله ربّي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾، يقول: وإليه مرجعي وأوبتي.

وهو مصدر من قول القائل:«تبت مَتَابًا وتوبةً».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة: ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤] أي: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن، لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛

وَلِهَذَا أَنِفُوا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْ يَكْتُبُوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وَقَالُوا: مَا نَدْرِي مَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. قَالَهُ قَتَادَةُ، وَالْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ[١] وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الْإِسْرَاءِ: ١١٠] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ**»[٢].

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربي لا إله إلا هو، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى قومك تدعوهم إلى الهدى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أرسلنا فيهم رسلنا، فلست ببدع من الرسل حتى يستنكروا رسالتك، ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتزكي النفوس.

والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه -التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا وأنزلنا عليك كتابا- بالقبول والشكر بل قابلوها بالإنكار والرد، أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا متضمن للتوحيدين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية.

فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾

---

(١) البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٢) مسلم (٢١٣٢).

في جميع أموري ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ أي: أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾.

ج: في صدر الآية الكريمة وجهان من وجوه التأويل:

أحدهما: أن أول الآية الكريمة متعلق بما قبله، فالمعنى، وهم يكفرون بالرحمن ولو أتاهم قرآن سُيِّرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى، فلو أتاهم قرآن فيه مخاطبة للجبال: يا جبال سيري، فتسير الجبال في الحال في الدنيا أمام أعينهم، أو فيه يا أرض تقطعي فتتقطع الأرض في الحال، أو أنه قال للأموات قوموا واسمعوا، فقاموا وسمعوا، لو أتاهم قرآن هكذا ما آمنوا أيضًا ولاستمروا في كفرهم بالرحمن.

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ ...﴾ جملة ابتدائية خبرها محذوف لكن مفهوم من السياق، فالمعنى: ولو أن قرآنًا سيِّرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كَلَّم به الموتى لكان هذا القرآن.

أما قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ فإنه، والله أعلم متعلق بأمر الهداية في هذا الموطن فالهداية – هداية التوفيق موكولة على الله ﷻ كلها، لا يهتدي إلا من هداه الله، ولن يستطيع أحدٌ أن يوفق أحدًا فالتوفيق من الله.

أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾ فمعناه: أفلم يعلم ويتبين الذين آموا أن لو يشاء الله لوفّق الناس كلهم، ولكن ربنا يفعل ما يشاء ويقضي بما يريد.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: قائمين على كفرهم لا يتعظون

ولا يعتبرون فتصيبهم بذلك القوارع، المصائب سواء المصائب التي تحل بهم من غزوك لهم وسراياك التي تبعثها إليهم فتقتلهم أو تسبي نساءهم وذراريهم أو تغنم أحوالهم.

أو كانت تلك القوارع دون تدخل منك كالمصائب التي تحل بهم من عند الله كالطوفان والأمراض والأسقام والصواعق والرياح وسائر صور العذاب، تحل بهم هذه أو تحل بأقوام على شاكلتهم مجاورين لهم حتى يتعظوا بغيرهم وحتى يغيروا بغيرهم، تحل بهم تلك المصائب والقوارع حتى يأتي يوم القيامة ولن يخلف الله وعده بمجيء هذا اليوم وقيل: إن العباد فتح مكة، والأول أظهر، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك:

فقال بعضهم: معناه: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، أي: يكفرون بالله ولو سَيَّر لهم الجبال بهذا القرآن. وقالوا: هو من المؤخر الذي معناه التقديم. وجعلوا جواب«لو» مقدَّمًا قبلها، وذلك أن الكلام على معنى قيلهم: ولو أنّ هذا القرآن سُيرت به الجبال أو قطعت به الأرض، لكفروا بالرحمن.

وقال آخرون: بل معناه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ كلامٌ مبتدأ منقطع عن قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾. قال: وجوابُ«لو» محذوف اسْتغنيَ بمعرفة السامعين المرادَ من الكلام عن ذكر جوابها. قالوا: والعرب تفعل ذلك كثيرًا، ومنه قول امرئ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ سَرِيحَةً   وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَقَطَّعُ أَنْفُسَا

وهو آخر بيت في القصيدة، فترك الجواب اكتفاءً بمعرفة سامعه مرادَه.

(١٤٤) أحمر
أسود

وأورد بما يصحح لغيره عن قتادة قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ذكر لنا أن قريشًا قالوا: إن سَرَّك يا محمد، اتباعك أو: أن نتبعك فسيّر لنا جبال تِهَامة، أو زد لنا في حَرَمنا حتى نتَّخذ قَطَائع نخترف فيها، أو أحِي لنا فلانًا وفلانًا! ناسًا ماتوا في الجاهلية. فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يقول: لو فعل هذا بقرآنٍ قبل قرآنكم لفُعِل بقرآنكم.

وبإسنادٍ صحيح ابن زيد في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، الآية، قال: قالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقًا فسيِّر عنا هذه الجبال واجعلها حروثًا كهيئة أرض الشام ومصر والبُلْدان، أو ابعث موتانَا فأخبرهم فإنهم قد ماتوا على الذي نحن عليه! فقال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، لم يصنع ذلك بقرآن قط ولا كتاب، فيصنع ذلك بهذا القرآن.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

اختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى قوله ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾.

فكان بعض أهل البصرة يزعم أن معناه: ألم يعلمْ ويتبيَّن.

وأما بعض الكوفيين فكان ينكر ذلك، ويزعم أنه لم يسمع أحدًا من العرب يقول:«يئست» بمعنى:«علمت». ويقول هو في المعنى وإن لم يكن مسموعًا:«يئست» بمعنى: علمت يتوجَّهُ إلى ذلك.

قال الطبري:

وأما أهل التأويل فإنهم تأولوا ذلك بمعنى: أفلم يعلَم ويتبيَّن.

وقال الطبري:

والصواب من القول في ذلك ما قاله أهل التأويل: إن تأويل ذلك:«أفلم

يتبين ويعلم»، لإجماع أهل التأويل على ذلك، والأبيات التي أنشدناها فيه.

فتأويل الكلام إذاً: ولو أنّ قرآنًا سوى هذا القرآن كان سُيّرت به الجبال، لسُيّر بهذا القرآن، أو قُطَعت به الأرض لُقطعت بهذا، أو كُلِّم به الموتى، لكُلِّم بهذا، ولكن لم يُفْعل ذلك بقرآن قبل هذا القرآن فيُفْعل بهذا ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، يقول ذلك: كله إليه وبيده، يهدى من يشاءُ إلى الإيمان فيوفِّقه له، ويُضِل من يشاء فيخذله، أفلم يتبيَّن الذين آمنوا بالله ورسوله إذْ طمِعوا في إجابتي من سأل نبيَّهم ما سأله من تسيير الجبال عنهم، وتقريب أرض الشأم عليهم، وإحياء موتاهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا إلى الإيمان به من غير إيجاد آية، ولا إحداث شيء مما سألوا إحداثه؟ يقول تعالى ذكره: فما معنى محبتهم ذلك، مع علمهم بأن الهداية والإهلاك إليّ وبيدي، أنزلت آيةً أو لم أنزلها؛ أهدي من أشاءُ بغير إنزال آية، وأضلّ من أردتُ مع إنزالها.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، من قومك ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ من كفرهم بالله، وتكذيبهم إياك، وإخراجهم لك من بين أظهرهم ﴿قَارِعَةٌ﴾، وهي ما يقرعهم من البلاء والعذاب والنِّقم، بالقتل أحيانًا، وبالحروب أحيانًا، والقحط أحيانًا ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾، أنت يا محمد، يقول: أو تنزل أنت ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ بجيشك وأصحابك ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ الذي وعدك فيهم، وذلك ظهورُك عليهم وفتحُك أرضَهمْ، وقهرْك إياهم بالسيف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾، يقول: إن الله منجزك، يا محمد ما وعدك من الظهور عليهم، لأنه لا يخلف وعده.

وأورد الطبري أقوالًا في تفسير ﴿قَارِعَةٌ﴾ منها سرية أي: سرية ترسلها يا

رسولالله فتقتلهم وتسبيهم وتغنم أموالهم.

وقولًا آخر أن القارعة قارعة من العذاب، وكذا أورد قولين في تفسير: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أحدهما فتح مكة، والآخر يوم القيامة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مادحا للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له، ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله، عَزَّوَجَلَّ، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل فلا هادي له، ومن يهد الله فلا مضل له.

وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع، قال الإمام أحمد[(١)]:

والمراد بالقرآن هنا الزبور.

حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُفِّفَت عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ أَنْ تُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسرج دَابَّتُهُ، وَكَانَ لا يَأْكُلُ إِلَّا مَنْ عَمَلِ يَدَيْهِ**». انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو

(١) أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٣٤١٧).

يتبينوا ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله. وثبت في الصَّحِيح أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» معناه: أن معجزة كل نبي انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا. وقرأ آخرون: (**أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا**).

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ أي: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧﴾ [الأحقاف: ٢٧] وقال ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الأنبياء: ٤٤].

قال قتادة، عن الحسن: ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق.

وأورد أقوالًا في المراد بـ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ منها: يوم القيامة، ومنها: فتح مكة.

قال ابن كثير:

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾ أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو

ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مبينا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ من الكتب الإلهية ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ جنانا وأنهارا ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ لكان هذا القرآن. ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟.

﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعا ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء، ويضل من يشاء ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على كفرهم، لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم أو تحل قريبا منها، وهم مصرون على كفرهم ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ الذي وعدهم به، لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

ج: هذه - والله أعلم-: مواساة لرسول الله ﷺ فإن كان القوم قد استهزءوا بك يا رسول الله فلا تجزع لذلك، فقد استهزئ بإخوانك المرسلين من قبلك، فاصبر كما صبروا فإنني أنتصر لك كما انتصرت لهم، وإن كنت قد أخَّرت العقوبة عن هؤلاء فإنني أخرتها شيئًا ما عن الذين كفروا من قبل ولم يكن تأخيري لهم عن ترك وعدم مؤاخذة بل أمهلتهم كي يزدادوا إثمًا مكا قال

تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ثم أخذتهم أخذة شديدة فانظر كي كان عقابي وأخذي لهم لقد كان أخذًا شديدًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد إن يستهزئ هؤلاء المشركون من قومك ويطلبوا منك الآيات تكذيبًا منهم ما جئتهم به، فاصبر على أذاهم لك وامض لأمر ربك في إنذارهم، والإعذار إليهم، فلقد استهزأت أممٌ من قبلك قد خلَت فمضتْ بُرسلِي، فأطلتُ لهم في المَهَل، ومددت لهم في الأجَل، ثم أحللتُ بهم عذابي ونقمتي حين تمادَوْا في غيِّهم وضَلالهم، فانظر كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم، ألم أذقهم أليم العذاب، وأجعلهم عبرةً لأولي الألباب؟

و«الإملاء» في كلام العرب، الإطالة، يقال منه:«أمْليَتُ لفلان»، إذا أطلت له في المَهَل.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: فلك فيهم أسوة، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ﴾ أخذة رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨] وفي الصحيحين: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله -مثبتا له ومسليا- ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فلست

أول رسول كذب وأوذي ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برسلهم أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بأنواع العذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ كان عقابا شديدا وعذابا أليما، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: أفرب العباد الله ﷻ الذي هو قائم على كل نفس يحفظ عليها أعمالها ويكتبه عليها ويدبر أمر الأنفس كلها ويتولاها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها أحق بالعبادة أم الشركاء الذين اتخذوهم مع الله ﷻ وعبدوهم معه.

فجواب قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ محذوف ولكنه مفهوم، والعلم عند الله، وهو أحق بالعبادة أم الأوثان والأصنام وسائر المعبودات؟!!

أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: هؤلاء المشركون عبدوا مع الله ﷻ آلهة أُخرى فارتجوا نفعها وأنها تكشف عن الضرَّ، فقل لهؤلاء المشركين سموا هؤلاء الذين زعمتم أنهم آلهة مع الله، أعلمونا بهم وأخبرونا بأسمائهم وحقيقتهم وأيضًا اذكروا لنا صفاتهم وسيماهم هل منهم الرازق هل منهم الشافي والذي يكشف الضرَّ ويجيب المضطر، وقل يا رسول الله لهؤلاء المشركين أتخبرون الله ﷻ بأمور لا يعلمها في السموات ولا في الارض

أتظنون أن هناك آلهة في السموات أو في الأرض والله لا يعلمها، كلا فالله يعلم كل شيء، وليست هنالك مع الله آلهة أخرى.

أو قوله تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ فقيل في معناه: أم، وقيل: المراد، أم بباطل من القول، وقيل: أم بظنٍّ من القول، ألا فاعلم أنه ليس لله شريك، وإنما زين للذين كفروا شركهم وكيدهم ومكرهم، وصُرفوا عن طريق الحق، ومن يصرفه الله عن طريق الحق فلن تجد من يهديه ولا من يسدده.

فلهؤلاء الكفار الذين أضلهم الله وصرفهم عن الحق لهم عذاب في الحياة الدنيا، سواء بقتلك لهم أو إرسال السرايا عليهم، أو بتسليط الأمراض والأوبئة عليهم، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وذلك يوم القيامة اشق من عذاب الدنيا وأشد وما لهم من الله من واق يقيهم عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢﴾ [المعارج: ٢] والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: أفَالرَّبُ الذي هو دائمٌ لا يَبيدُ ولا يَهْلِك، قائم بحفظ أرزاق جميع الخَلْق، متضمنٌ لها، عالمٌ بهم وبما يكسبُونه من الأعمال، رقيبٌ عليهم، لا يَعْزُب عنه شيء أينما كانوا، كَمن هو هالك بائِدٌ لا يَسمَع ولا يُبصر ولا يفهم شيئًا، ولا يدفع عن نفسه ولا عَمَّن يعبده ضُرًّا، ولا يَجْلب إليهما نفعًا؟ كلاهما سَواءٌ؟

وحذف الجواب في ذلك فلم يَقُل، وقد قيل ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾: ككذا وكذا، اكتفاءً بعلم السامع بما ذَكَر عما ترك ذِكْره. وذلك أنه لما قال جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، عُلِمَ أن معنى الكلام: كشركائهم التي اتخذوها آلهةً. كما قال الشاعر:

تَخَيَّـــرِي خُيِّـــرْتِ أُمَّ عَـــالِ ... بَـــيْنَ قَصِـــيرٍ شِـــبْرُهُ تِنْبَـــالِ

(١٥٢) أحمر
أسود

أَذَاكَ أَمْ مُنْخَرِقُ السِّرْبَالِ وَلا يَزَالُ آخِرَ اللَّيَالِي

مُتْلِفَ مَالٍ وَمُفِيدَ مَالِ

ولم يقل وقد قال: «شَبْرُهُ تِنْبَال»، وبين كذا وكذا، اكتفاء منه بقوله: «أذاكَ أم منخرق السربال»، ودلالة الخبر عن المنخرق السربال على مراده في ذلك.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾، ذلكم ربكم تبارك وتعالى، قائمٌ على بني آدمَ بأرزاقهم وآجالهم، وحَفظ عليهم والله أعمالهم.

وقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ ﴾، يقول تعالى ذكره: أنا القائم بأرزاق هؤلاء المشركين، والمدبِّرُ أمورهم، والحافظُ عليهم أعمالَهُمْ، وجعلوا لي شركاء من خلقي يعبدُونها دوني، قل لهم يا محمد: سمّوا هؤلاء الذين أشركتموهم في عبادة الله، فإنهم إن قالوا: آلهة فقد كذبوا، لأنه لا إله إلا الواحد القهار لا شريك له ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: أتخبرونه بأن في الأرض إلهًا، ولا إله غيرُه في الأرض ولا في السماء؟

وقوله: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ ﴾، مسموع، وهو في الحقيقة باطلٌ لا صحة له.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل، غير أنهم قالوا: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ﴾، معناه: أم بباطل، فأتوا بالمعنى الذي تدل عليه الكلمة دون البيان عن حَقيقة تأويلها.

وقوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾، يقول تعالى ذكره: ما لله من شريك في السموات ولا في الأرض، ولكن زُيِّن للمشركين الذي يدعون من دونه إلهًا، مَكْرُهم، وذلك افتراؤهُم وكذبهم على الله.

وأما قوله: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾، فإن القَرَأة اختلفت في قراءته.

فقرأته عامة قَرَأة الكوفيين: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾، بضم «الصاد»، بمعنى: وصدَّهم الله عن سبيله لكفرهم به، ثم جُعلت «الصاد» مضمومة إذ لم يُسَمَّ فاعله.

وأما عامة قرأة الحجاز والبصرة، فقرأوه بفتح «الصاد»، على معنى أن المشركين هم الذين صَدُّوا الناس عن سبيل الله.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكل واحدة منهما أئمةٌ من القرأة، متقاربتا المعنى، وذلك أن المشركين بالله كانوا مصدودين عن الإيمان به، وهم مع ذلك كانوا يعبدون غيرهم، كما وصفهم الله به بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

[الأنفال: ٣٦]

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ٣٣﴾، يقول تعالى ذكره: ومن أضلَّه الله عن إصابة الحق والهدى بخذلانه إياه، فما له أحدٌ يهديه لإصابتهما، لأن ذلك لا يُنَال إلا بتوفيق الله ومعونته، وذلك بيد الله وإليه دُون كل أحد سواه.

ويقول تعالى ذكره، لهؤلاء الكفار الذين وَصَف صفتَهم في هذه السورة، عذابٌ في الحياة الدنيا بالقتل والإسار والآفاتِ التي يُصيبهم الله بها ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾، يقول: ولتعذيبُ الله إياهم في الدار الآخرة أشدُّ من تعذيبه إيَّاهم في الدنيا.

«وأشقّ» إنما هو «أفعلُ» من المشقَّة.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ٣٤﴾، يقول تعالى ذكره: وما لهؤلاء الكفار من أحدٍ يقيهم من عذاب الله إذا عذَّبهم، لا حَمِيمٌ ولا وليٌّ ولا نصيرٌ، لأنه جل جلاله لا يعادُّه أحدٌ فيقهره، فيتخَلَّصَه من عذابه بالقهر، ولا يشفع عنده أحدٌ

إلا بإذنه، وليس يأذن لأحد في الشفاعة لمن كفر به فمات على كفره قبل التَّوبة منه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود:٦] وقال: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرعد: ١٠] وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه: ٧] وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو هكذا كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ أي: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية.

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ قال مجاهد: بظن من القول.

وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول.

أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى

ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ ﴾ قال مجاهد: قولهم، أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فصلت: ٢٥].

﴿وَصَدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ﴾: من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنهم لما زين لهم ما فيه وأنه حق، دعوا إليه وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل. ومن قرأها ﴿وَصُدُّوا۟﴾ أي: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدوا به عن سبيل الله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ كما قال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ [المائدة: ٤١] وقال: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل: ٣٧].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار: فقال بعد، إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي: بأيدي المؤمنين قتلا وأسرا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: المدخر لهم مع هذا الخزي في الدنيا، « أشق » أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**» وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦] وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥﴾ [الفرقان: ١١- ١٥].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى كمن ليس كذلك؟

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له ولا ند ولا نظير، ﴿قُلۡ﴾ لهم إن كانوا صادقين: ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾ لتعلم حالهم ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة وهو لا يعلم له شريكا، علم بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يُعَلِّمُ الله أن له شريكا وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون؛ ولهذا قال: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم.

وأما في الحقيقة، فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئا من العبادة، ولكن ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ الذي مكروه وهو كفرهم وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾ يقيهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ يعني: نفسه ۵. ومعنى القيام

هاهنا: التولي لأمور خَلقه، والتدبير لأرزاقهم وآجالهم، وإِحصاء أعمالهم للجزاء، والمعنى: أفمن هو مجازي كلّ نفس بما كسبت، يثيبها إِذا أحسنت، ويأخذها بما جنت، كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام؟ قال الفراء: فتُرك جوابه، لأن المعنى معلوم، وقد بيَّنه بعد هذا بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ كأنه قيل: كشركائهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: بما يستحقونه من الصفات وإِضافةِ الأفعال إِليهم إِن كانوا شركاء لله كما يُسمى الله بالخالق، والرازق، والمحيي، والمميت، ولو سمَّوهم بشيء من هذا لكذبوا.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا استفهام منقطع مما قبله، والمعنى: فإن سمَّوهم بصفات الله، فقل لهم: أتنبئونه، أي: أتخبرونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلم لنفسه شريكًا، ولو كان لَعَلِمَه.

قوله تعالى: ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أم بظن من القول، قاله مجاهد.

والثاني: بباطل، قاله قتادة.

والثالث: بكلام لا أصل له ولا حقيقة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ قال ابن عباس: زين لهم الشيطان الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «وَصَدُّوا» بفتح الصاد، ومثله في «حم المؤمن» [غافر: ٣٧]. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «وصُدُّوا» بالضم فيهما. فمن فتح، أراد: صَدُّوا المسلمين، إِما عن الإِيمان، أو عن البيت الحرام. ومن ضم، أراد: صدهم الله عن سبيل الهدى.

(١٥٨) أحمر
أسود

﴿ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ وهو القتل، والأسر، والسقم، فهو لهم في الدنيا عذاب، وللمؤمنين كفَّارة، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ أي: أشد ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴾ أي: مانع يقيهم عذابه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ ﴾ ليس هذا القيام الذي هو ضد القعود، بل هو بمعنى التولي لأمور الخلق، كما يقال: قام فلان بشغل كذا، فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها، فالمعنى: أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف، والمعنى: أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل. وقيل: ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ ﴾ أي عالم، قاله الأعمش. قال الشاعر:

فلولا رجال من قريش أعزة سرقتم ثياب البيت والله قائم

أي عالم، فالله عالم بكسب كل نفس. وقيل: المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم، عن الضحاك. ﴿وَجَعَلُواْ﴾ حال، أي أوقد جعلوا، أو عطف على ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾ أي استهزءوا وجعلوا، أي سموا ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يعني أصناما جعلوها آلهة. ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾ أي بينوا أسماءهم، على جهة التهديد، أي إنما يسمون: اللات والعزى ومناة وهبل. ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿أَمۡ﴾ استفهام توبيخ، أي أتنبئونه، وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدم في المعنى، لأن قوله: ﴿سَمُّوهُمۡۚ﴾ معناه: ألهم أسماء الخالقين. ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟. وقيل: المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه. ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ يعلمه؟ فإن قالوا: بباطن لا يعلمه أحالوا، وإن قالوا: بظاهر يعلمه فقل لهم: سموهم، فإذا سموهم اللات

والعزى فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكا. وقيل: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ عطف على قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي أفمن هو قائم، أم تنبئون الله بما لا يعلم، أي أنتم تدعون لله شريكا، والله لا يعلم لنفسه شريكا، أفتنبئونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلمه! وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها وإن لم يكن له شريك في غير الأرض لأنهم ادعوا له شركاء في الأرض. ومعنى. ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾: الذي أنزل الله على أنبيائه. وقال قتادة: معناه بباطل من القول، ومنه قول الشاعر:

أعيرتنا ألبانها ولحومها … وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

أي باطل. وقال الضحاك: بكذب من القول. ويحتمل خامسا - أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم، ويكون معنى الكلام: أتجبرونه بذلك مشاهدين، أم تقولون محتجين. ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ أي دع هذا! بل زين للذين كفروا مكرهم قيل: استدراك على هذا الوجه، أي ليس لله شريك، لكن زين للذين كفروا مكرهم. وقرأ ابن عباس ومجاهد-﴿بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ مسمى الفاعل، وعلى قراءة الجماعة فالذي زين للكافرين مكرهم الله تعالى، وقيل: الشيطان. ويجوز أن يسمى الكفر مكرا، لأن مكرهم بالرسول كان كفرا. ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي صدهم الله، وهي قراءة حمزة والكسائي. الباقون بالفتح، أي صدوا غيرهم، واختاره أبو حاتم، اعتبارا بقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧] وقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥]. وقراءة الضم أيضا حسنة في ﴿زُيِّنَ﴾ و﴿وَصُدُّواْ﴾ لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في مذهب أهل السنة، ففيه إثبات القدر، وهو اختيار أبي عبيد. وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة-﴿وصدوا﴾ بكسر الصاد، وكذلك. ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] بكسر الراء أيضا على

ما لم يسم فاعله، وأصلها صددوا ورددت، فلما أدغمت الدال الأولى في الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بخذلانه. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي موفق، وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم، لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ فكذلك قوله: ﴿وَصُدُّواْ﴾. ومعظم القراء يقفون على الدال من غير الياء، وكذلك ﴿الأموال﴾ و﴿وَاقٍ﴾، لأنك تقول في الرجل: هذا قاض ووال وهاد، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين. وقرى ﴿فما له من هادي﴾، ﴿والي﴾ و﴿واقي﴾ بالياء، وهو على لغة من يقول: هذا داعي ووالى وواقي بالياء، لأن حذف الياء في حالة الوصل لالتقائها مع التنوين، وقد أمنا هذا في الوقف، فردت الياء فصار هادي ووالي وواقي. وقال الخليل في نداء قاض: يا قاضي بإثبات الياء، إذ لا تنوين مع النداء، كما لا تنوين في نحو الداعي والمتعالي. قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

أي للمشركين الصادين، بالقتل والسبي والإسار، وغير ذلك من الأسقام والمصائب. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾.

أي أشد، من قولك: شق علي كذا يشق. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

أي مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع. و﴿من﴾ زائدة.



(١٦١) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ
وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ
إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ
مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا
وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾
يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ
ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا
نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ
ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ
نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ
مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ
ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

[الرعد: ٣٥-٤٣]

(١٦٢) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ - ٱلْمُتَّقُونَ - أُكُلُهَا دَآئِمٌ - وَظِلُّهَا - عُقْبَى - وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ - ٱلْأَحْزَابِ - يُنكِرُ بَعْضَهُۥ - مَـَٔابِ - حُكْمًا عَرَبِيًّا - وَلِيٍّ - وَاقٍ - وَذُرِّيَّةً - بِـَٔايَةٍ - لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ - يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ - وَيُثْبِتُ - أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ - نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا - لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ - مَكَرَ - ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا - تَكْسِبُ - عُقْبَى ٱلدَّارِ - عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾	صفة الجنة - شبه الجنة.
﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾	الذي اتقوا الشرك والكبائر.
﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾	ثمرها وطعامها دائم لا يزول ولا ينتقص.
﴿وَظِلُّهَا﴾	ظل أشجارها (دائم أيضًا).
﴿عُقْبَى﴾	العاقبة (الحسنة لأهل التقوى).
﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾	الذين أنزلنا علىى نبيهم الكتاب فتعلموه، وقيل: إنهم اليهود والنصارى الذين آمنوا، وقيل: هم أصحاب محمد ﷺ.
﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾	الأحزاب الكافرة من كفار المشركين وكفار اليهود، والنصارى الذين لم يؤمنوا وغيرهم من أهل الكفر.
﴿يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾	يكفر ببعضه ويقول: ليس هو من عند الله.
﴿مَـَٔابِ﴾	مرجع، والمراد مرجعي يوم القيامة - مصيري.

(١٦٣) أحمر
أسود

﴿حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾	أحكامًا وشرائع بلسان عربيٍّ، وقيل: دينًا عربيًّا، وقيل: محكمًا معربًا.
﴿وَلِيّٖ﴾	نصير – متولي أمرك.
﴿وَاقٖ﴾	من يقيك الشر والعذاب – دافع يدفع عنك الشر والعذاب.
﴿وَذُرِّيَّةٗۚ﴾	أبناء وأحفاد.
﴿بِـَٔايَةٍ﴾	بمعجزة.
﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾	لكل مدة زمنية كتاب مكتوب فيه ما سيعمل منها، وقيل هنا تقديم وتأخير والمعنى لكل كتاب نزل زمن يعمل به فيه.
﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ﴾	يُزيل – يُغيِّر – يُبدل.
﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾	يترك بلا تغيير ولا إزالة.
﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾	أصل الكتاب الذي يرجع إليه.
﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾	نفتحها لرسول الله ﷺ فيضيق الخناق على الكفار. وقيل: نقبض علمائها وفقهاءها، وقيل: نقلل بركتها وثمارها، وقيل: ندمر بعض البلاد كي يتعظ الآخرون.
﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾	لا راد لقضائه – لا يتعقبه أحد.
﴿مَكَرَ﴾	كاد – تآمر.
﴿ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾	الكيد والمكر والتدبير.
﴿تَكۡسِبُ﴾	تعمل.

(١٦٤) أحمر
أسود

﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾	العاقبة (الحسنة) في الدار الآخرة للمؤمنين، والعاقبة (السيئة) لأهل الكفر.
﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾	علم التوراة والإنجيل - وقيل: العلم بالقرآن.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: صفة الجنة التي وعدها الله ﷻ من اتقوا الشرك بالله، وعبدوا الله ووحدوه واتقوا محارمه ومساخطه صفتها: أنها تجري من تحتها الأنهار، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى.

والطعام والثمار الذي في الجنة لا يزول بل هو دائم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ص: ٥٤]، وكذلك ظلها دائم، فهذه هي العاقبة الحسنة للذين اتقوا، أما عاقبة الكافرين فيه النار والعياذ بالله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن أورد أقوالًا في تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال ذكر (المثل) فقال: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ والمراد: الجنة، ثم وصفت الجنة بصفتها وليست صفتها شيئًا غيرها...

ثم قال:

وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾، يعني: ما يؤكل فيها، يقول: هو دائم لأهلها، لا ينقطع عنهم، ولا يزول ولا يبيد، ولكنه ثابتٌ إلى غير نهاية ﴿وَظِلُّهَا ۚ﴾، يقول: وظلها أيضًا دائم، لأنه لا شمس فيها.

﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ﴾، يقول: هذه الجنة التي وصف جل ثناؤه، عاقبة الذين اتَّقَوا الله، فاجتنبوا مَعَاصيه وأدَّوْا فرائضه.

وقوله: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾، يقول: وعاقبةُ الكافرين بالله النارُ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ ﴾ أي: صفتها

ونعتها، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيرا، أي: يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد: ١٥].

وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ أي: فيها المطاعم والفواكه والمشارب، لا انقطاع لها ولا فناء.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[١]، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، وَفِيهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تكعْكعت فَقَالَ: «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ -أَوْ: أُرِيتُ الْجَنَّةَ- فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا**».

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]

وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾ [الإنسان: ١٤].

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النساء: ٥٧].

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[٢] مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْمُجِدُّ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠﴾ [الْوَاقِعَةِ: ٣٠].

---

(١) البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).
(٢) البخاري (٣٢٥١)، ومسلم (٢٨٢٧).

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة ويحذر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: والذين أنزلنا على نبيهم الكتاب فآمنوا به وصدقوه يفرحون بالقرآن الذي ينزل عليك يا رسول الله.

أما من هم الذين عناهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، ففيهم قولان:

أحدهما: أنهم مؤمنوا أهل الكتاب، أي: الذين آمنوا من اليهود والنصارى.

والقول الثاني: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين آمنوا به واتبعوه وصدقوه.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي: ومن الأحزاب الكافرة من مشركي مكة واليهود والنصارى وغيرهم ممن تخربوا على الكفر من ينكر بعض هذا القرآن، ومن هذا البعض الذي ينكروه نبوة النبي ﷺ، وبعض أحكام الشريعة من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك، وكذا اسم الرحمن، وكذا البعث فإن كثيرين ينكرون ذلك.

فقل لهؤلاء الجاحدين المنكرين، إنما أُمرت أن أعبد الله وحده لا شريك له، ولا اشرك في عبادته أحدًا، وإلى عبادة الله ﷻ لا شريك له أدعو الخلق، وإلى الله مصيري ومرجعي يوم القيامة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

(١٦٨) أحمر
أسود

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين أنزلنا إليهم الكتاب ممَّن آمن بك واتبعك، يا محمد، ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ منه ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، يقول: ومن أهل الملل المتحزِّبين عليك، وهم أهل أدْيان شَتَّى، من ينكر بعضَ ما أنزل إليك. فقل لهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾، أيها القوم ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ وحده دون ما سواه ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾، فأجعل له شريكًا في عبادتي، فأعبدَ معه الآلهةَ والأصنامَ، بل أخلِص له الدين حَنِيفًا مسلمًا ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾، يقول: إلى طاعته وإخلاص العبادة له أدعو الناسَ ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾، يقول: وإليه مصيري.

وهو «مَفْعَل»، من قول القائل: «آبَ يَؤُوب أوْبًا ومَآبًا».

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أولئك أصحابُ محمدٍ ﷺ، فرحوا بكتاب الله وبرسوله وصدَّقوا به قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، يعني اليهودَ والنصارى.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، قال: هذا مَنْ آمنَ برسول الله ﷺ من أهل الكتاب فيفرحون بذلك. وقرأ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [يونس: ٤٠]. وفي قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، قال: «الأحزاب»: الأممُ، اليهودُ والنصارى والمجوس منهم من آمنَ به، ومنهم من أنكره.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة: ١٢١] وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة، وكائنا، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك.

وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ اليهود والنصارى، من ينكر بعضه ما جاءك من الحق. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ أي: إلى سبيله أدعو الناس، ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ أي: مرجعي ومصيري.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني مشركي مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس. وقيل: هم العرب المتحزبون على النبي ﷺ. وقيل: ومن أعداء المسلمون من ينكر بعض ما في القرآن، لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السماوات والأرض. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفا على «أعبد». وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف أي أفرده بالعبادة وحده لا شريك له، وأتبرأ

عن المشركين، ومن قال: المسيح ابن الله وعزير ابن الله، ومن اعتقد التشبيه كاليهود. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس. ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ أي أرجع في أموري كلها.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: مننَّا عليهم به وبمعرفته، ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فيؤمنون به ويصدقونه، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضا وهذه حال من آمن من أهل الكتابين، ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق، من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقه.

﴿فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ إنما أنت يا محمد منذر تدعوا إلى الله، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي: بإخلاص الدين لله وحده، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه والقيام بما أمرت به.

ذكر ابن الجوزي في زاد المسير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ﴾ وبيان الذين يفرحون أقوالًا:

أحدها: أنهم مسلمو اليهود، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: هم عبد الله بن سلام وأصحابه.

والثاني: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ قاله قتادة.

والثالث: مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى، ذكره الماوردي.

والذي أُنزل إِليه: القرآن، فرح به المسلمون وصدَّقوه، وفرح به مؤمنو أهل الكتاب، لأنه صدَّق ما عندهم. وقيل: إِن عبد الله بن سلام ومن آمن معه من أهل الكتاب، ساءهم قِلَّة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذِكره في التوراة، فلما

نزل ذِكره فرحوا، وكفر المشركون به، فنزلت هذه الآية.

فأما الأحزاب، فهم الكفار الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ بالمعاداة، وفيهم أربعة أقوال:

أحدها: أنهم اليهود والنصارى، قاله قتادة.

والثاني: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، قاله ابن زيد.

والثالث: بنو أمية وبنو المغيرة وآل أبي طلحة بن عبد العزّى، قاله مقاتل.

والرابع: كفار قريش، ذكره الماوردي.

وفي بعضه الذي أنكروه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ذِكر الرحمن والبعثِ ومحمدٍ ﷺ، قاله مقاتل.

والثاني: أنهم عرفوا بعثة الرسول في كتبهم وأنكروا نبوَّته.

والثالث: أنهم عرفوا صِدقه، وأنكروا تصديقه، ذكرهما الماوردي.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وكذلك انزلنا هذا القرآن عليك يا رسول الله أحكامًا بلسان عربيٍّ، ودينًا بلسانٍ عربي، وقيل مُحكمًا بلسان عربي ولئن اتبعت آراء هؤلاء الكفار وما تهواه نفوسهم من الغيِّ والضلال والفكر بعد ما جاءك من العلم في هذا الكتاب العزيز ما لك من الله من وليٍّ يتولاك ولا واقٍ يقيك عذاب الله ﷻ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وكما أنزلنا عليك الكتاب، يا محمد، فأنكرهُ بعض

الأحزاب، كذلك أيضًا أنزلنا الحكم والدين حُكْمًا عربيًا وجعل ذلك ﴿عَرَبِيًّاۚ﴾، ووصفه به لأنه أنزل على محمدٍ ﷺ وهو عربيٌّ، فنسب الدين إليه، إذ كان عليه أنزل، فكذَّب به الأحزابُ. ثم نهاه جل ثناؤه عن ترك ما أنزل إليه واتباع الأحزاب، وتهدَّده على ذلك إنْ فعله فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ﴾ يا محمد ﴿أَهۡوَآءَهُم﴾، أهواء هؤُلاء الأحزاب ورضاهم ومحبتَهم وانتقلت من دينك إلى دينهم، ما لك من يَقيك من عَذاب الله إنْ عذّبك على اتباعك أهواءَهم، وما لك من ناصر ينصرك فيستنقذك من الله إن هو عاقبك، يقول: فاحذر أن تتّبع أهَواءهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ﴾ أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا، شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ أي: آراءهم، ﴿بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: من الله تعالى ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ أي: من الله تعالى. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ﴾ أي وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا، وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ، وهو عربي، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا. وقيل نظم الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا،

أي بلسان العرب، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله، لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي أهواء المشركين في عبادة ما دون الله، وفي التوجيه إلى غير الكعبة. ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي ناصر ينصرك. ﴿وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ يمنعك من عذابه، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد الأمة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكما، عربيا أي: محكما متقنا، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا توعد رسوله -مع أنه معصوم- ليمتن عليه بعصمته ولتكون أمته أسوته في الأحكام فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ يقيك من الأمر المكروه.

أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك يا رسول الله، وكانوا بشرًا كما أنك بشرٌ فقد كانت لهم أزواج، وكان لهم أيضًا ذرية، وما كان لرسول منهم أن يأتي بمعجزة من تلقاء نفسه، إنما يسأل الله ذلك فتأتي المعجزة من عند الله على الوجه الذي يشاؤه الله، وفي التوقيت الذي يريده الله، وبإذنه عَزَّوَجَلَّ.

أما قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: لكل مدة من الزمن كتاب مكتوب فيه ما سيحدث في هذه المدة الزمنية.

والثاني: أن هنا تقديم وتأخير، والمعنى لكل كتاب من الكتب التي أنزلها الله ﷻ أجل ينتهي عنده ويأتي كتاب آخر من عند الله ينسخ بعض ما في الكتاب المتقدم من الأحكام إلى أن نزل القرآن ولا ناسخ له بل هو المهيمن على الكتب كلها، والله أعلم.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾، يا محمد ﴿رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى أمم قَدْ خَلَتْ من قبلِ أمتك، فجعلناهم بَشرًا مثلَك، لهم أزواج ينكحون، وذريةٌ أنْسَلوهم، ولم نجعلهم ملائكةً لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعلَ الرسولَ إلى قومك من الملائكة مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشرًا مثلهم، كما أرسلنا إلى من قبلهم من سائر الأمم بشرًا مثلهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يقول تعالى ذكره: وما يقدِر رسولٌ أرسله الله إلى خلقه أنْ يأتي أمّتَه بآية وعلامة، من تسيير الجبال، ونقل بَلْدةٍ من مكان إلى مكان آخر، وإحياء الموتى ونحوها من الآيات ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، يقول: إلا بأمر الله الجبالَ بالسير، والأرضَ بالانتقال، والميتَ بأن يحيَا ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾، يقول: لكلِّ أجلِ أمرٍ قضاه الله، كتابٌ قد كتبَه فهو عنده.

وقد قيل: معناه: لكل كتابٍ أنزله الله من السماء أجَلٌ.

وأورد بإسنادٍ ضعيف عن الضحاك في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾، يقول: لكل كتاب ينزل من السماء أجل، فيمحُو الله من ذلك ما يشاءُ ويُثْبت، وعنده

أمُّ الكتاب.

قال أبو جعفر: وهذا على هذا القول نظيرُ قول الله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [ق: ١٩]، وكان أبو بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرؤه ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾، وذلك أن سَكْرة الموت تأتي بالحق والحق يأتي بها، فكذلك الأجل له كتاب وللكتاب أجَلٌ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وكما أرسلناك، يا محمد، رسولا بشريا كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجا وذرية، وقد قال الله تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[١]: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَآكُلُ الدَّسَمَ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

وقال ابن كثير أيضًا:

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، عَزَّوَجَلَّ، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ أي: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحج: ٧٠].

وكان الضحاك بن مزاحم[٢] يقول في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ أي:

---

(١) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) بنحوه.

(٢) وفي السند عند الطبري عن الضحاك ضعف، والله أعلم..

لكل كتاب أجل يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا يمحو ما يشاء منها ويثبت، يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات- ما تقدم ذكره في هذه السورة- فأنزل الله ذلك فيهم، وظاهر الكلام حظر ومعناه النفي، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله، قال الحسن. وقيل: فيه تقديم وتأخير، المعنى: لكل كتاب أجل، قال الفراء والضحاك، أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم، نظيره. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، بين أن المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب. وقيل: المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدر لا تقف عليه الملائكة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين، فلأي شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك؛ إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟ وإن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شيء.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر مع أنه تعالى فعال لما يريد.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لكل أجل من آجال الخَلق كتاب عند الله، قاله الحسن.

والثاني: أنه من المقدّم والمؤخّر، والمعنى: لكل كتاب ينزل من السماء أجل. قاله الضحاك والفراء.

والثالث: لكل أجل قدَّره الله ﷻ، ولكل أمر قضاه، كتاب أُثبت فيه، ولا تكون آية ولا غيرها إِلا بأجل قد قضاه الله في كتاب، هذا معنى قول ابن جرير.



مبحث في المحو والإثبات

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن الآية متعلقة بما قبلها فقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، متعلق بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾، وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ من المقدم والمؤخر، بمعنى لكل كتاب أنزله الله على رسوله (للشرائع والأحكام التي فيه أجل) إلى أن يأتي كتاب آخر من عند اله فينسخ الله من الكتاب الأول ما يشاء بالكتاب الثاني، أو يتركه بلا نسخ،فمثلًا التوراة لها زمنٌ معين فإذا جاء الإنجيل نُسخ منها بعض الأحكام، وأثبتت أحكام كما هي عليه.

ويأتي القرآن بعد الإنجيل فينسخ بعض أحكام الإنجيل ويثبت أحكامًا أخر.

أما القرآن فلا كتاب من عند اله بعده.

فعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ من الكتب التي أنزلها على الرسل عليهم صلوات الله وسلامه.

الوجه الثاني: أن قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ متعلق باللوح المحفوظ، يُغيِّر الله في الأقدار التي قدرها ما يشاء ويثبت ما يشاء، وقد ورد عن عددٍ من السلف أنهم كانوا يقولون في دعائهم: اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيًّا فامحه واكتبني سعيدًا.

الوجه الثالث: كالوجه الثاني، لكن هناك أشياء في اللوح المحفوظ لا تتغير، وهي الشقاوة والسعادة، والحياة والموت، وما سواها يتغير أو يترك كما يشاء

الله ﷻ.

الوجه الرابع: أن الكتاب كتابان، أحدهما: اللوح المحفوظ لا يتغير ولا يتبدل فيه شيء والآخر كتاب، قيل: بأيدي الملائكة يتغير فيه أمور، وتثبت فيه أمور كما يريد الله فكان البعض يقولون: إن حاصل ذلك أن الله يقول لملائكته إذا عمل عبدي حسنة كذا وكذا فزيدوه في الرزق كذا وكذا، أو في الأجل كذا وكذا، أو غير ذلك، وإلا فلا تزيدوه، ونحو ذلك، والله أعلم بما تنتهي إليه الأمور، وقد أثبت ما تنتهي إليه الأمور في اللوح المحفوظ.

الوجه الخامس: أن قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ متعلق بالناسخ والمنسوخ اللذين في القرآن، فيترك الله بعض الآيات بلا نسخ وينسخ آيات أُخر.

الوجه السادس: يمحو الله ﷻ من سيئات العبد ما يشاء بمغفرته وعفوه، ويترك سيئات آخرين يؤاخذهم بها.

الوجه السابع: يمحو الله من يشاء من الخلق بإماتته ويترك ما يشاء حيًّا.

الوجه الثامن: يمحو الله ما يشاء من آياته ويترك آيات أخر، أعني الآيات التي في الآفاق، كالليل، والنهار، والشمس، والقمر، قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

الوجه التاسع: أن ذلك متعلق بأحوال العباد فمنهم من يعلم بطاعة الله ﷻ زمانًا ثم يُمحى هذا ويعمل بالمعصية فيموت عليها.

ومنهم من يعمل بمعصية الله ﷻ زمانًا ثم يُمحى هذا ويعمل بطاعة الله ﷻ.

الوجه العاشر: أن هذا متعلق بالأشخاص أثناء نومهم فيقبض الله أرواح بعضهم أثناء نومهم ويترك آخرين يرد إليهم أرواحهم.

هذا وثمَّ أقوال أخر، والوجوه الأُول قوية، والله أعلم بالصواب من تاويل كتابه.

أما قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ فالمراد به والله أعلم أصل الكتاب وجملته. والله أعلم.

وإن كان لأم الكتاب معان أُخر قدمت ذكرها في مقدمة سورة الفاتحة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: يمحو الله ما يشاء من أمور عبادِه، فيغيّره، إلا الشقاء والسعادة، فإنهما لا يُغيَّران.

وأورد بسندٍ ضعيف عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾، قال: يدبّر الله أمرَ العباد فيمحو ما يشاءُ، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت.

وبسندٍ صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾، قال: إلا الحياة والموت والسعادة والشقاوة فإنَّهما لا يتغيَّران.

وأورد الطبري من وجه آخر عن منصور قال: سألت مجاهدًا فقلت: أرأيت دعاءَ أحدنا يقول: «اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه واجعله في السعداء»، فقال: حَسنٌ. ثم أتيته بعد ذلك بحَوْلٍ أو أكثر من ذلك، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ [الدخان: ٣، ٤] قال: يُقْضى في ليلة القدر ما يكون في السَّنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدِّم ما يشاء ويؤخر ما يشاء. فأما كتاب الشقاء والسعادة فهو ثابتٌ لا يُغيَّر.

قال الطبري:

وقال آخرون: معنى ذلك: أنّ الله يمحو ما يشاء ويثبت من كتابٍ سوى أمّ الكتاب الذي لا يُغَيَّرُ منه شيء.

وأورد بسندٍ ضعيف عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾، قال: كتابان: كتابٌ يمحو منه ما يشاء ويثبت، وعنده أمّ الكتاب.

وبسندٍ صحيح عن عكرمة قال: الكتابُ كتابان، كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه يمحو كل ما يشاء، ويثبت كل ما أراد.

وأورد بسندٍ صحيح عن شقيق (وهو أبو وائل شقيق بن سملة) أنه كان يقول: «اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء، فامحنَا واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاءُ وتثبت وعندَك أمّ الكتاب».

ومن وجه آخر صحيح عن أبي وائل أيضًا قال: كان مما يكثر أن يدعو بهؤلاء الكلمات:«اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحنا واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب».

وأورد الطبري بسنده إلى أبي عثمان النَّهْديّ (والإسناد قابل للتحسين ويتمم السقط الذي فيه ابن كثير)[1]، أن عمر بن الخطاب قال وهو يطوف بالبيت ويبكي: اللهم إن كنت كتبت علي شِقْوة أو ذنبًا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادةً ومغفرةً.

ونحوه بإسناد فيه مقال عن ابن مسعود.

---

(١) ففي السند سقط شيخ الطبري، وأوضحه ابن كثير إذ ساق الإسناد، وهو عمرو بن علي شيخ الطبري.

(١٨٢) أحمر
أسود

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنّ الله ينسخ ما يشاء من أحكام كِتَابه، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسَخُه.

وأورد بسندٍ ضعيف عن ابن عباس: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، قال: من القرآن. يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء فلا يبدله ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾، يقول: وجملة ذلك عنده في أمّ الكتاب، الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كلُّ ذلك في كتاب.

وبسندٍ صحيح عن قتادة قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، هي مثل قوله: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [سورة البقرة:١٠٦]، وقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾: أي جُملة الكتاب وأصله.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، بما ينزل على الأنبياء، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء مما ينزل على الأنبياء، قال: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾، لا يغيَّر ولا يبدَّل.

وقال آخرون: معنى ذلك أنه يمحو من قد حان أجله، ويثبت من لم يجئ أجله إلى أجله.

وأورد بسندٍ صحيح عن الحسن (البصري) قال: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾، يقول: يمحو من جاء أجله فذهب، والمثبت الذي هو حيٌّ يجري إلى أجله.

وأورد بسندٍ ضعيف عن مجاهد قول الله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، قالت قريش حين أنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: ما نراك، يا محمد تملك من شيء، ولقد فُرغ من الأمر! فأنزلت هذه الآية تخويفًا ووعيدًا لهم: إنا إن شئنا أحدَثْنا له من أمرنا ما شئنا، ونُحدِث في كل رمضان، فنمحو ونثبتُ

ما نشاء من أرزاق الناس وَمصَائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ويغفر ما يشاء من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية وأشبهُها بالصّواب، القولُ الذي ذكرناه عن الحسن ومجاهد، وذلك أن الله تعالى ذكره توعَّد المشركين الذين سألوا رسولَ الله ﷺ الآياتِ بالعقوبة، وتهدَّدهم بها، وقال لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾، يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلا مُثْبَتًا في كتاب، هم مؤخَّرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يجيء الله بما شَاء ممن قد دَنا أجله وانقطع رزقه، أو حان هلاكه أو اتضاعه من رفعة أو هلاك مالٍ، فيقضي ذلك في خلقه، فذلك مَحْوُه، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله، فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه.

وأورد أحاديث فيها مقال في هذا الصدد.

أما قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ فأورد الطبري أيضًا أقوالًا منها معناه: وعنده الحلال والحرام.

ومنها معناه: وعنده جملة الكتاب وأصله، وأورد هذا بسندٍ صحيح عن قتادة.

ومنها: بسندٍ فيه مقالٌ عن ابن عباس أنه سأل كعبًا عن «أم الكتاب» قال: علم الله ما هو خَالقٌ وما خَلْقُه عاملون، فقال لعلمه: كُنْ كتابًا، فكان كتابًا.

قال الطبري: وقال آخرون: هو الذكر.

(١٨٤) أحمر
أسود

قال الطبري:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ من قال:«وعنده أصل الكتاب وجملته، وذلك أنه تعالى ذكره أخبر أنه يمحُو ما يشاء ويثبت ما يشاء، ثم عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾، فكان بيِّنًا أن معناه. وعنده أصل المثبّت منه والمَمحوّ، وجملتُه في كتاب لديه.

وأورد الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ قراءتين في قوله تعالى: ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ أحدهما: يُثبِّت، والأخرى يثبت مخففة فالأولى بالتشديد (تشديد الباء) بمعنى ويتركه ويقرِّه على حاله فلا يمحوه.

وأورد القرطبي إضافة إلى ما ذُكر أقوالًا منها: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾. وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهم إن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. وقد تقدم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول:« **من سره أن يبسط له رزقه وينسأ له أثره فليصل رحمه**». ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال:« **من أحب**» فذكره بلفظه سواء، وفيه تأويلان: أحدهما- معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت. والآخر- يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ، والذي في علم الله ثابت لا تبدل له، كما قال:﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾. وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **من أحب أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه**» كيف يزاد في العمر والأجل؟! فقال: قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ٢].

فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني-

يعني المسمى عنده- من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله، فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ، ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البرزخ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤] فتوافق الخبر والآية، وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ، في اختيار حبر الأمة[١].

وذكر القرطبي أقوالًا في المحو والإثبات منها:

وقال الحسن: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من جاء أجله، ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ من لم يأت أجله. وقال الحسن: يمحو الآباء، ويثبت الأبناء. وعنه أيضا. ينسي الحفظة من الذنوب ولا ينسى. وقال السدي: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: القمر، ﴿ويثبت﴾ يعني: الشمس، بيانه قوله: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: ١٢] وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالة النوم، يقبضها عند النوم، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه، بيانه قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ الآية [الزمر: ٤٢]. وقال علي بن أبي طالب يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ [يس: ٣١] ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١﴾ [المؤمنون: ٣١] فيمحو قرنا، ويثبت قرنا. وقيل: هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله، فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب، فيمحوه الله من ديوان السيئات، ويثبته في ديوان الحسنات.

(١) ولم أقف على سندٍ صحيح لهذا الأثر.

(١٨٦) أحمر
أسود

وقال القرطبي أيضًا:

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ أصل ما كتب من الآجال وغيرها. وقيل: أم الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير. وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأخر. وسيل ابن عباس عن أم الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتابا، ولا تبديل في علم الله، وعنه أنه الذكر، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهذا يرجع معناه إلى الأول، وهو معنى قول كعب. قال كعب الأحبار: أم الكتاب علم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق[(١)].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأقدار ﴿وَيُثۡبِتُ﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير لأن ذلك محال على الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب

(١) قلت (مصطفى): والإشكالية في هذه الآثار عدم التيقن من ثبوتها فالذي وقفت عليه من أسانيدها ضعيف، والله أعلم.

قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: «ويثبت» ساكنة الثاء خفيفة الباء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: «ويثبِّت» مشددة الباء مفتوحة الثاء. قال أبو علي: المعنى: ويثبِّته، فاستغنى بتعدية الأول من الفعلين عن تعدية الثاني.

واختلف المفسرون في المراد بالذي يمحو ويثبِت على ثمانية أقوال:

أحدها: أنه عامّ، في الرزق، والأجل، والسعادة. والشقاوة، وهذا مذهب عمر، وابن مسعود، وأبي وائل، والضحاك، وابن جريج.

والثاني: أنه الناسخ والمنسوخ، فيمحو المنسوخ، ويثبت الناسخ، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وقتادة، والقرظي، وابن زيد. وقال ابن قتيبة: «يمحو الله ما يشاء» أي: ينسخ من القرآن ما يشاء «ويثبت» أي: يدعه ثابتًا لا ينسخه، وهو المُحكَم.

والثالث: أنه يمحو ما يشاء، ويثبت، إلا الشقاوة والسعادة، والحياة والموت، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، ودليل هذا القول، ما روى مسلم في «صحيحه»[١] من حديث حذيفة بن أَسِيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا مضت على النطفة خمس وأربعون ليلة، يقول الملَك الموكَّل: أذَكر أم أنثى؟ فيقضي الله تعالى، ويكتب الملَك، فيقول: أشقي، أم سعيد؟ فيقضي الله، ويكتب الملَك، فيقول: عمله وأجله؟ فيقضي الله، ويكتب الملَك، ثم تطوى الصحيفة، فلا يزاد فيها ولا يُنقص منها»**.

(١) مسلم ٤/ ٢٠٣٧ ورواية المصنف هنا بالمعنى.

والرابع: يمحو ما يشاء ويثبت، إلا الشقاوة والسعادة لا يغيَّران، قاله مجاهد.

والخامس: يمحو من جاء أجله، ويُثبت من لم يجيء أجله، قاله الحسن.

والسادس: يمحو من ذنوب عباده ما يشاء فيغفرها، ويثبت ما يشاء فلا يغفرها، روي عن سعيد بن جبير.

والسابع: يمحو ما يشاء بالتوبة، ويثبت مكانها حسنات، قاله عكرمة.

والثامن: يمحو من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، قاله الضحاك، وأبو صالح. وقال ابن السائب: القول كلُّه يُكتَب، حتى إذا كان في يوم الخميس، طُرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلتُ، شربت، دخلت، خرجت، ونحوه، وهو صادق، ويُثبت ما فيه الثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال الزجاج: أصل الكتاب. قال المفسرون: وهو اللوح المحفوظ الذي أُثبت فيه ما يكون ويحدث.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: وقد نرينك يا رسول الله ما نعد هؤلاء الكفار من العذاب، فيحل بهم العذاب وأنت حيٌّ وتقر عينك ويشفى صدرك بالانتقام منهم فنحن قادرون على ذلك، فإذا فعلنا بهم ذلك أو توفيناك قبل أن ترى ذلك فيهم فإن الذي عليك هو البلاغ، وقد أديته، أما حسابهم فعلى الله ﷻ، هو جامعهم ليوم القيامة يحاسب كلًّا على ما صنع.

والآية كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى

وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢]، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإما نرينك، يا محمد في حياتك بعضَ الذي نعدُ هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم أو نتوفينَّكَ قبل أن نُريَك ذلك، فإنما عليك أن تنتهِيَ إلى طاعة ربك فيما أمرك به من تبليغهم رسالتَه، لا طلبَ صلاحِهم ولا فسادِهم، وعلينا محاسبتهم، فمجازاتهم بأعمالهم، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد بلغت ما أمرت به، ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ ﴿مَّا﴾ زائدة، والتقدير: وإن نرينك بعض الذي نعدهم، أي من العذاب لقوله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٣٤] وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١] أي إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ فليس عليك إلا البلاغ، أي التبليغ، ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ أي الجزاء والعقوبة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ إياه في الدنيا فتقر بذلك عينك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل

إصابتهم فليس ذلك شغلا لك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ والتبيين للخلق.

﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به، مما عليهم، وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: أولم يرهؤلاء المكذبون بالبعث الجاحدون وحدانية الله ﷻ، الذين اتخذوا مع الله إلهًا آخر أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها، وفي نقصانها من أطرافها.

أقوال للعلماء:

أحدها: أن الناس يسلمون قومًا بعد قومٍ فيضيق الخناق على أهل الشرك بمكة، وذلك بالفتوحات التي يفتحها الله على رسوله ﷺ والبلاد التي تفتح ويدخل أهلها الإسلام، فيومًا بعد يومٍ يضيق الخناق على كفار مكة ويتحول صديقهم الكافر إلى وليٍّ حميم لرسول الله ﷺ بعد إسلامه.

الوجه الثاني: أن خرابًا يحلُّ ببعض البلاد يوم بعد يوم فالمعنى، أولم يروا متعقلين ما يحدث حولهم من تخريب بعض البلاد وتدميرها فيأخذونه من ذلك عبرة ويخشون أن يحلَّ بهم ما يحل بهؤلاء.

الوجه الثالث: أن المراد بإنقاص الأرض من أطرافها نقصان البركة والثمار.

الوجه الرابع: أن إنقاص الأرض من أطرافها موت العلماء والفقهاء.

وثمَّ وجوهٌ أُخر في هذا المعنى.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

فمعناه: والله يقضي ما يشاء من أقضيته ويفعل بالعباد والخلق ما يشاء وما يريد، لا راد لقضائه ولا دافع لمراده وهو سريع الحساب، يحاسب هؤلاء الأقوام ويحصى عليهم أقوالهم وأعمالهم ويجازيهم عليها.

فلا يستعجل هؤلاء الكفار العذاب فإنه آت وأعمالهم مُحصاة عليهم وكذا أقوالهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: أولم ير هؤلاء المشركون مِنْ أهل مكة الذين يسألون محمدًا الآيات، أنا نأتي الأرض فنفتَحُها له أرضًا بعد أرض حَوَالَيْ أرضهم؟ أفلا يخافون أن نفتح لَهُ أرضَهم كما فتحنا له غيرها؟

وأورد بإسنادٍ صحيح بمجموع طرقه عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، قال: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟

وقال آخرون: بل معناه: أولم يروا أنا نأتي الأرض فنخرِّبها، أو لا يَخافون أن نفعل بهم وبأرضهم مثل ذلك فنهلكهم ونخرِّب أرضهم؟

وأخرج بسندٍ صحيح عن ابن عباس في قوله: ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، قال: أولم يروا إلى القرية تخربُ حتى يكون العُمْران في ناحية؟

وقال آخرون: بل معناه: ننقص من بَرَكتها وثَمرتها وأهلِها بالموت.

وقال آخرون: معناه: أنا نأتي الأرض ننقصها من أهلها، فنتطرَّفهم بأخذهم بالموت.

وقال آخرون: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بذهاب فُقَهائها وخِيارها.

وأورد بسنده إلى ابن عباس قال: ذهابُ علمائها وفقهائِها وخيار أهلِها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قولُ من قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾، بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها وقَهْرِهم أهلها، أفلا يعتبرون بذلك فيخافون ظُهورَهم على أرْضِهم وقَهْرَهم إياهم؟ وذلك أن الله توعَّد الذين سألوا رسولَه الآيات من مشركي قومه بقوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾، ثم وبَّخهم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم ما يعاينون من فعل الله بضُرَبائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ بقهر أهلها، والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، وهم لا يعتبرون بما يَرَوْن من ذلك.

وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾، يقول: والله هو الذي يحكم فيَنْفُذُ حكمُه، ويَقْضي فيَمْضِي قضاؤه، وإذا جاء هؤلاء المشركين بالله من أهل مكة حُكْمُ الله وقضاؤُه لم يستطيعوا رَدَّهَ. ويعني بقوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾: لا راد لحكمه،

«والمعقب»، في كلام العرب، هو الذي يكرُّ على الشيء.

وقوله: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾، يقول: والله سريع الحساب يُحْصي أعمال هؤلاء المشركين، لا يخفى عليه شيء، وهو من وراءِ جزائهم عليها.

واختار ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ أن المراد ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال متوعدا للمكذبين ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ قيل بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين،

ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال.

والظاهر -والله أعلم- أن المراد بذلك أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويجتاحها، ويحل القوارع بأطرافها، تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤١﴾ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب فإن كل ما هو آت، فهو قريب.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وقد كاد الكفار الذين كانوا قبل كفار قريش لرسلهم، ومكروا برسلهم لقتلهم أو لإخراجهم من بلادهم، أو لسجنهم وحبسهم قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

مكر الكفار برسلهم وحاولهم قتلهم، ولكن هم يكيدون ويمكرون، والله يكيد لهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وبلا شك فمن كاد الله له قصمه الله، ومن أراد الله إذلاله فلا مُعزَّ له ولا ناصر، ولا عاصم له من أمر الله فالتدبير كله لله، والله يعلم ما تكسب الأنفس من أعمال من حسنات وسيئات، وسيعلم أهل الكفر عن قريبٍ لمن ستكون

العاقبة الحسنة في الآخرة. ولمن ستكون العاقبة السيئة في الدنيا والآخرة إن العاقبة الحسنة في الآخرة لأهل الإيمان وهي الجنة.

والعاقبة السيئة في الدار الآخرة، وهي النار والعياذ بالله لأهل الكفر والشقاوة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قد مكر الذين من قَبْل هؤلاء المشركين من قُريشٍ من الأمم التي سلفت بأنبياء الله ورُسله ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، يقول: فلله أسبابُ المكر جميعًا، وبيده وإليه، لا يضرُّ مكرُ من مَكَر منهم أحدًا إلا من أراد ضرَّه به، يقول: فلم يضرَّ الماكرون بمكرهم إلا من شاء الله أن يضرَّه ذلك، وإنما ضرُّوا به أنفسهم لأنهم أسخطوا ربَّهم بذلك على أنفسهم حتى أهلكهم، ونجَّى رُسُلَه: يقول: فكذلك هؤلاء المشركون من قريش يمكرون بك، يا محمد، والله منَجّيك من مكرهم، ومُلْحِقٌ ضُرَّ مكرهم بهم دونك.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾، يقول: يعلم ربك، يا محمد ما يعمل هؤلاء المشركون من قومك، وما يسعون فيه من المكر بك، ويعلم جميعَ أعمال الخلق كلهم، لا يخفى عليه شيء منها ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾، يقول: وسيعلمون إذا قَدِموا على ربهم يوم القيامة لمن عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخلُ المؤمنون بالله ورسوله الجَنَّة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ الآية [النمل: ٥٠-٥٢].

وقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ أي: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزي كل عامل بعمله.

﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾ وقرئ: ﴿ٱلۡكُفَّرُ﴾ ﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴿٤٢﴾﴾ أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل؟ كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي من قبل مشركي مكة، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم. ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ أي هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضر إلا بإذنه. وقيل: فلله خير المكر، أي يجازيهم به. ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ من خير وشر، فيجازي عليه. ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ﴾ كذا قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. الباقون« الكفار» على الجمع. وقيل: عني به أبو جهل. ﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴿٤٢﴾﴾ أي عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا، أو لمن الثواب والعقاب في الدار الآخرة، وهذا تهديد ووعيد.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ برسلهم وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم ولم يصنعوا شيئا فإنهم يحاربون الله ويبارزونه، ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره،

فإذا كانوا يمكرون بدينه فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسبها فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئا، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين لا للكفر وأهله.



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ عِندَهُۥ..﴾ سبب نزول؟

ج: لم أقفلها على سبب نزول بسندٍ صحيح.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم- ويقول أهل الكفر من مشركي مكة وغيرهم من أهل الشرك، يقولون لك: يا رسول الله لست مرسلًا من عند الله، فقل لهؤلاء المكذبين برسالتك كفى بالله شهيدًا بيني وبينكم يشهد عليَّ ويشهد عليكم، يشهد لي باني رسول من عنده ﷻ، ويشهد عليكم بشرككم وبتكذيبكم.

وكذا يشهد لي بأني رسولٌ من عند الله، مَن عنده علم الكتاب، قيل: المراد بهم المؤمنون من أهل الكتاب شهدوا للرسول بالرسالة إذ كتبهم أخبرت بذلك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وكما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وكما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧] إلى غير ذلك.

فالقول الأول في تفسير: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: والذين آمنوا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري وعدي بن حاتم الطائي وغيرهم.

والقول الثاني: أن الذي عنده علم الكتاب هو الله ﷻ.

القول الثالث: أن الذي عنده علمٌ من الكتاب جبريل عليه السلام.

القول الرابع: أن الذي عنده علمٌ من الكتاب عليٌّ رضي الله عنه.

وأظهر الأقوال أن المراد: علماء أهل الكتاب الذين آمنوا، ولا يمنع أن يدخل معهم غيرهم.

أما القول بأن الذي عنده علم الكتاب هو الله، فلا شك أن الله يعلم، وعنده علم الكتاب، ولكن المراد بالآية بشرٌ، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ ثم العطف بقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ فهذا يدل - في الغالب على التغاير، والله أعلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره ويقول الذين كفروا بالله من قومك يا محمد لست مرسلا! تكذيبا منهم لك، وجحودًا لنبوّتك، فقل لهم إذا قالوا ذلك: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، يقول: قل حَسْبي الله ﴿شَهِيدًۢا﴾، يعني شاهدًا ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، عليّ وعليكم، بصدقي وكذبكم ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

فـ«مَنْ» إذا قرئ كذلك في موضع خفضٍ عطفًا به على اسم الله، وكذلك قرأته قَرَأَة الأمصار بمعنى: والذين عندهم علم الكتاب أي الكتب التي نزلت قبلَ القرآن كالتوراة والإنجيل. وعلى هذه القراءة فسَّر ذلك المفسِّرون.

واورد الطبري بعض الأقوال في تعيين الذي عنده علم الكتاب.

فقال بعضهم: هو عبد الله بن سلام.

وقال آخرون: هو رجل من الإنس.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ ﴾، قال: قول مشركي قريش: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾، أناس من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحقّ ويقرُّون به، ويعلمون أن محمدًا رسول الله، كما يُحدَّث أن منهم عبد الله بن سَلام.

وفي رواية عن قتادة: كان منهم عبدُ الله بن سَلام، وسَلْمَان الفارسي، وتميمٌ الدَّاريّ.

وأورد الطبري أقوالاً بنيت على قراءة **(مِن عنده علم الكتاب)** بكسر الميم في مِن، والمعنى ومن عند الله يتأتى العلم بالكتاب، وأورد حديثًا بذلك عن رسول الله ﷺ وضعَّفه الطبري بقوله ليس له أصل عند الثقات من أصحاب الزهري.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإذْ كان ذلك كذلك وكانت قرأء الأمصار من أهل الحجاز والشأم والعراق على القراءة الأخرى، وهي: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾، كان التأويل الذي على المعنى الذي عليه قرأة الأمصار أولى بالصواب ممّا خالفه، إذ كانت القراءة بما هم عليه مجمعون أحقَّ بالصواب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول: ويكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًاۚ ﴾ أي: ما أرسلك الله، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي: حسبي الله، وهو الشاهد علي وعليكم، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان.

وقال في ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾:

والصحيح في هذا: أن ﴿ومن عنده﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ الآية: [الشعراء: ١٩٧]. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد في حديث الأحبار، عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ﴾ أي: يكذبونك ويكذبون ما أرسلت به، ﴿قُلْ﴾ لهم -إن طلبوا على ذلك شهيدا: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته.

وأما فعله فلأن الله تعالى أيد رسوله ونصره نصرا خارجا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط وحل له ماله ودمه والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول من آمن واتبع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده

شهادة لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم والله أعلم.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فيه سبعة أقوال:

أحدها: أنهم علماء اليهود والنصارى، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثاني: أنه عبد الله بن سلام، قاله الحسن، ومجاهد، وعِكرمة، وابن زيد، وابن السائب، ومُقاتل.

والثالث: أنهم قوم من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحق، منهم عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداريّ، قاله قتادة.

والرابع: أنه جبريل غ، قاله سعيد بن جُبير.

والخامس: أنه علي بن أبي طالب، قاله ابن الحنفية.

والسادس: أنه بنيامين، قاله شمر.

والسابع: أنه الله تعالى، روي عن الحسن، ومجاهد، واختاره الزجاج

تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الرعد.



(٢٠١) أحمر
أسود

تفسير سورة إبراهيم

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ
رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ
فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ
فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ وَلَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥ وَإِذۡ
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ
نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ
لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ
إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾

[إبراهيم: ١-٨٠]

(٢٠٢) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ - ٱلنُّورِ - بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ - صِرَٰطِ - ٱلۡحَمِيدِ - يَسۡتَحِبُّونَ - وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ - وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ - ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ - بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ - فَيُضِلُّ - بِـَٔايَٰتِنَآ - بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ - صَبَّارٖ - شَكُورٖ - يَسُومُونَكُمۡ - سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ - وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ - بَلَآءٌ - تَأَذَّنَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾	الكفر والضلالة والشك والارتياب.
﴿ٱلنُّورِ﴾	الإيمان والهدى واليقين والحق.
﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾	بأمر ربهم – بتوفيق ربهم.
﴿صِرَٰطِ﴾	طريق.
﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾	المحمود على نعمه وإحسانه.
﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾	يؤثرون – يفضلون.
﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	يصرفون الناس عن الطريق الموصل إلى جنة الله ورضوانه.
﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾	يريدونها طرقًا معوجة لا توصل إلى مرضاة الله، ويحرفون ويبدلون كذبًا وزورًا وغشًّا وتضليلًا.
﴿ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾	ذهاب بعيد عن طريق الحق.
﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾	بلغة قومه.
﴿فَيُضِلُّ﴾	فيصرف عن الحق.

(٢٠٣) أحمر
أسود

﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾	بحججنا وأدلتنا على قدرتنا ووحدانيتنا.
﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾	بنعم الله، وقيل: بأيام العقوبات التي مرَّت بهم.
﴿صَبَّارٍ﴾	كثير الصبر على أقدار الله وعلى أوامره واجتناب نواهيه.
﴿شَكُورٍ﴾	كثير الشكر لله ﷻ.
﴿يَسُومُونَكُمْ﴾	يذيقونكم.
﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾	أسوأ صور العذاب.
﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾	يتركون نساءكم أحياء (للامتهان والاستخدام والإذلال).
﴿بَلَآءٌ﴾	اختبار.
﴿تَأَذَّنَ﴾	أَعْلَم وأخبر.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: أن ألف ولام وراء أحرفٌ منها كتاب أنزلناه إليك يا رسول الله، لا يستطيعون الإتيان بمثله، أنزلناه إليك لتخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال والشك والارتياب إلى نور الإيمان والهدى واليقين بتوفيق الله لهم إذا أراد الله لهم التوفيق فها أنت قد بينت لهم وأوضحت لهم الطريقين طريق النور والهدى وطريق الغي والضلال، والموفق منهم من وفقه الله، أنزلناه إليك لتخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى طريق الله ﷻ العزيز الذي لا يُغلب ولا يعجز عن شيء يريده المحمود على خصاله وآلائه ونعمه وإحسانه لتهديهم إلى طريق الله الذي له مُلك ما في السموات وما في الأرض يفعل فيها ما يشاء ويقضي ويأمر فيهما بما يريد وويل للجاحدين وحدانية الله، الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، المنكرين لنعمه، ويلٌ له، عذاب شديد لهم، وادٍ في جهنم لهم يوم القيامة.

ويلٌ لهؤلاء الذين يؤثرون الحياة الدنيا ويقدمونها على الآخرة، فيختارون الكفر والمعاصي والشهوات ويقدمونها على طاعة الله ﷻ وعلى مرضاته ويصرفون الناس عن طاعة الله وعن الطريق الموصل لجنته ومرضاته ويريدون للناس الطرق المعوجة التي لا توصل إلى جنة الله ومرضاته، فهؤلاء الذين هذا شأنهم في ذهاب بعيد عن الحق والصواب، هم في واد وطريق، والحق والصواب في وادٍ وطريق آخر.

(٢٠٥) أحمر
أسود

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ فإن معناه: هذا كتاب أنزلناه إليك، يا محمد، يعني القرآن ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يقول: لتهديهم به من ظلمات الضلالة والكفرِ، إلى نور الإيمان وضيائه، وتُبصِّر به أهلَ الجهل والعمَى سُبُل الرَّشاد والهُدَى.

وقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ يعني: بتوفيق ربهم لهم بذلك ولطفه بهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ يعني: إلى طريق الله المستقيم، وهو دينه الذي ارتضاه، وشَرَعُه لخلقه.

و ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾، «فعيل»، صُرِف من «مفعول» إلى « فَعيل»، ومعناه: المحمود بآلائه.

وأضاف تعالى ذكره إخراجَ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم لهم بذلك، إلى نبيه ﷺ، وهو الهادي خَلْقَه، والموفقُ من أحبَّ منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفهُم ما لهم فيه وعليهم. فبيّنٌ بذلك صِحة قولِ أهل الإثبات الذين أضافوا أفعال العباد إليهم كَسبًا، وإلى الله جل ثناؤه إنشاءً وتدبيرًا، وفسادُ قول أهل القَدر الذين أنكرُوا أن يكون لله في ذلك صُنْعٌ.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قال: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي من الضلالة إلى الهدى.

وقال في تأويل قوله عز ذكره: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾.

قال أبو جعفر: اختلفت القرأة في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قَرأة المدينة والشأم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ برفع اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ على الابتداء، وتصيير قوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، خبرَه.

وقرأته عامة قرأة أهل العراق والكوفة والبصرة: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ بخفض اسم الله على إتباع ذلك ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وهما خفضٌ.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك عندي، أنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما أئمة من القُرّاء، معناهما واحدٌ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

ومعنى قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اللهِ الذي يملك جميع ما في السماوات ومَا في الأرض.

يقول لنبيه محمد ﷺ: أنزلنا إليك هذا الكتاب لتدعُوَ عِبادي إلى عِبَادة مَنْ هذه صفته، وَيَدعُوا عبادَةَ من لا يملك لهم ولا لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا من الآلهة والأوثان. ثم توعّد جل ثناؤه من كفر به، ولم يستجب لدعاء رسوله إلى ما دعاه إليه من إخلاص التوحيد له فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ يقول: الوادِي الذي يسيلُ من صديد أهل جهنم، لمن جحد وحدانيته، وعبد معه غيره، مِن عَذَاب الله الشَّدِيد.

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، الذين يختارون الحياة الدنيا ومتاعها ومعاصي الله فيها، على طاعة الله وما يقرِّبهم إلى رضاه من الأعمال النافعة في الآخرة ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يقول: ويمنعون من أراد الإيمان بالله واتّباعَ رسوله على ما جاء به من عند الله، من الإيمان به واتباعه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يقول: ويلتمسون سَبيل الله وهي دينه الذي ابتعث به رسوله ﴿عِوَجًا﴾: تحريفًا وتبديلا بالكذب والزّور.

«والعِوَج» بكسر العين وفتح الواو، في الدين والأرض وكل ما لم يكن قائمًا، فأما في كلِّ ما كان قائمًا، كالحائط والرمح والسنّ، فإنه يقال بفتح العين والواو جميعًا «عَوَج».

(٢٠٧) أحمر
أسود

ويقول الله عز ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ يعني هؤلاء الكافرين الذين يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة. يقول: هم في ذهابٍ عن الحق بعيد، وأخذ على غير هُدًى، وجَوْر عن قَصْد السبيل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم.

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ قرأه بعضهم مستأنفا مرفوعا، وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾ أي: ويل لهم يوم القيامة

إذ خالفوك يا محمد وكذبوك.

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة عائلة وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم -والحالة هذه- صلاح.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ تقدم معناه. ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي بالكتاب، وهو القرآن، أي بدعائك إليه. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي من ظلمات الكفر الضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وهذا على التمثيل، لأن الكفر بمنزلة الظلمة، والإسلام بمنزلة النور. وقيل: من البدعة إلى السنة، ومن الشك إلى اليقين، والمعنى متقارب. ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أي بتوفيقه إياهم ولطفه بهم، والباء في ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ متعلقة بـ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ وأضيف الفعل إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والمنذر الهادي. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ هو كقولك: خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واو، لأنهما شيء واحد، والله هو العزيز الذي لا مثل له ولا شبيه. وقيل: ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي لا يغلبه غالب. وقيل: ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ المنيع في ملكه وسلطانه. ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي المحمود بكل لسان، والممجد في كل مكان على كل حال.



إرسال الرسل
بلسان قومها ومخاطبة الناس بما يفهمون

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وما أرسلنا من رسولٍ إلى قوم إلا وهو يتكلم بلغتهم حتى يفهموا عنه مقاله ويعقلون عنه مراده ليدلهم ويرشدهم ويوضح لهم، ولكن الهداية من عند الله فيضل الله من يشاء أن يضله ويهدي من يشاء أن يهديه، وهم أعلم بخلقه إذ أضلهم وإذ هداهم وهو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء الحكيم فيما يشرع وفي كل شيء يصنعه.

هذا ولا حجة للعجم في الآية الكريمة؛ لأن القرآن تُرجم لهم ووضح لهم، ثم إن هناك من الأدلة ما يفيد عموم بعثته ﷺ، وقدمت ذكرها، منها قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما أرسلنا إلى أمة من الأمم، يا محمد، من قبلك ومن قبلِ قومك، رسولا إلا بلسان الأمة التي أرسلناه إليها ولغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ يقول: ليفهمهم ما أرسله الله به إليهم من أمره ونَهيه، لِيُثْبت حجة الله عليهم، ثم التوفيقُ والخذلانُ بيد الله، فيخذُل عن قبول ما أتاه به رسُوله من عنده من شاء منهم، ويوفّق لقبوله من شاء ولذلك رفع ﴿فَيُضِلُّ﴾، لأنه أريد به الابتداء لا العطف على ما قبله، كما قيل: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: ٥] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنع مما أراده من ضلال أو هداية من أرادَ ذلك

(٢١٠) أحمر
أسود

به ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾، في توفيقه للإيمان من وفَّقه له، وهدايته له من هداه إليه، وفي إضلاله من أضلّ عنه، وفي غير ذلك من تدبيره.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾، أي بلغة قومه ما كانت. قال الله ﷻ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ الذي أرسل إليهم، ليتخذ بذلك الحجة. قال الله ﷻ: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم.

ثم قال:

وقوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾ في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك.

وقد كانت هذه سنة الله في خلقه: أنه ما بعث نبيا في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعطَهُن أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وأحلَّت لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١).

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أي قبلك يا محمد ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي بلغتهم، ليبينوا لهم أمر دينهم، ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة، فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير، ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية، لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي ﷺ ترجمة يفهمها لزمته الحجة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وَقَالَ ﷺ: «أُرْسِلَ كُلُّ نَبِيٍّ إِلَى أُمَّتِهِ بِلِسَانِهَا وَأَرْسَلَنِي اللهُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ مِنْ خَلْقِهِ». وَقَالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولا ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن لم ينقد للهدى، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ممن اختصه برحمته.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾ الذي -من عزته- أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا

(١) مسلم (١٥٣).

إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم وصارت طبيعة لهم فحينئذ قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم.

وقال الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ الآية، بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لم يرسل رسولاً إلا بلغة قومه؛ لأنه لم يرسل رسولاً إلا إلى قومه دون غيرهم، ولكنه بين في مواضع أخر أن نبينا ﷺ أرسل إلى جميع الخلائق دون اختصاص بقومه ولا بغيرهم، كقوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ① ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ الآية [سبأ: ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم رسالته لأهل كل لسان.



شيءٌ من ذِكر موسى عليه السلام مع قومه

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم–: تذكيرٌ لرسول الله ﷺ بنبي الله وكليمه موسى عليه السلام، يقول تعالى ما حاصله وكما أنا أنزلنا إليك الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، فقد أرسلنا موسى أيضًا عليه السلام بحججنا وأدلتنا على وحدانيتنا وقدرتنا كالعصا واليد وسائر الآيات التسع، وكذلك أنزلنا عليه التوراة والألواح وأمرناه أن يدل قومه على طريق الهداية والتوفيق لإخراجهم من ظلمات الكفر والشك والضلال إلى طريق الهداية والنور والإيمان، وأمرناه أن يُذكرهم بأيام الله، أي: بنعم الله عز وجل وفضائله التي أنعم بها عليهم، كما في الحديث...وأيام الله نعماؤه وبلاؤه، وكان من نعم الله عليهم أن الله عز وجل انجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب – على ما سيأتي بيانه عن إن شاء الله–، وكان من نعم الله عليهم تظليل الغمام عليهم، وإنزال التوراة والألواح لهدايتهم وإنزال المن والسلوى عليهم، وكذا تفجير الحجر لهم إلى غير ذلك من نعم الله عز وجل.

هذا، وقد قال بعض العلماء إن أيام الله، أيام العذاب التي كانوا يعذبون فيها من فرعون وقومه.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في ذلك الإنجاء من العذاب، وفي تلك النعم، وفي إرسال موسى عليه السلام لدلالات على قدرة الله عز وجل ووحدانيته لكل صبار على أقدار الله عز وجل وعلى أوامره، ولكل شكور لله عز وجل على نعمائه،

وهذا حال المؤمن دائمًا صبار على المصائب والبلايا، شكور للنعم والآلاء.

والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا موسى بأدلتنا وحُجَجنا من قبلك،،، يا محمد،، كما أرسلناك إلى قومك بمثلها من الأدلة والحجج.

وقوله: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾،كما أنزلنا إليك، يا محمد، هذا الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. ويعني بقوله: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أن ادعهم، من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان.

وقوله: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ يقول ﷻ: وعِظْهُم بما سلف من نُعْمَى عليهم في الأيام التي خلت فاجتُزِئ بذكر «الأيام» من ذكر النعم التي عناها، لأنها أيام كانت معلومة عندهم، أنعم الله عليهم فيها نعمًا جليلةً، أنقذهم فيها من آل فرعون بعدَ ما كانوا فيما كانوا فيه من العذاب المُهين، وغرَّق عدوَّهم فرعونَ وقومَه، وأوْرَثهم أرضهم وديارَهم وأموالَهم.

وكان بعض أهل العربية يقول: معناه: خوِّفهم بما نزل بعادٍ وثمودَ وأشباههم من العذاب، وبالعفو عن الآخرين: قال: وهو في المعنى كقولك: «خُذْهم بالشدة واللين».

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ قال: بنعم الله.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد في قول الله: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ قال: أيامُه التي انتقم فيها من أهل مَعاصيه من الأمم خَوَّفهم بها، وحذَّرهم إياها، وذكَّرهم أن يصيبهم ما أصابَ الذين من قبلهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾، يقول: إن في الأيام التي

سلفت بنِعَمِي عليهم يعني على قوم موسى ﴿لَأَيَٰتٍ﴾، يعني: لعِبرًا ومواعظ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾: يقول: لكل ذي صبر على طاعة الله، وشكرٍ له على ما أنعم عليه من نِعَمه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا.

قال مجاهد: وهي التسع الآيات.

﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: أمرناه قائلين له: ﴿أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بأياديه ونعمه عليهم، في إخراجه إياهم من أسر فرعون.

وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد.

قلت: وأخرج مسلم[1] من حديث أُبي بن كعب مرفوعًا.. أيام الله نعماؤه وبلاؤه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل صبار، أي: في الضراء، شكور، أي: في السراء،

(١) مسلم (٢٣٨٠).

كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر.

وَكَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ[(١)] عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّه عَجَب، لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكر فَكَانَ خيرا له».



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: واذكر يا رسول الله قول موسى عليه السلام لقومه من بني إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم، التي منها أنه ﷻ انجاكم من آل فرعون الذين كانوا يذيقونم أسوأ صور العذاب، بتسخيركم وإذلالكم واستعبادكم، وكانوا يذبحون أبناءكم ويتركون نساءكم لإذلاكم ولاستخدامهن، وفي ذلك الإنجاء من هذا العذاب اختبار من الله عظيم، هل تقدموا له شكرًا أم تكفرونه، فقد يكون الابتلاء بالخير وقد يكون بالشر، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقال بعض العلماء، وفي ذلك الذي كان يفعله فرعون بكم بلاء من ربكم عظيم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكر، يا محمد، إذ قال موسى بن عمْران لقومه من بني إسرائيل: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، التي أنعم بها

(١) مسلم (٢٩٩٩).

عليكم ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، يقول: حين أنجاكم من أهل دين فرعون وطاعته ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أي يذيقونكم شديدَ العذاب ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، مع إذاقتهم إياكم شديد العذاب يذبحون أبناءكم.

وأدْخلت الواو في هذا الموضع، لأنه أريد بقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، الخبرُ عن أن آل فرعون كانوا يعذبون بني إسرائيل بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح. وأما في موضعٍ آخر من القرآن، فإنه جاء بغير الواو: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، في موضع، وفي موضع ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١]، ولم تدخل الواو في المواضع التي لم تدخل فيها لأنه أريد بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وبقوله: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾، تبيينه صفات العذاب الذي كانوا يسومونهم. وكذلك العملُ في كل جملة أريد تفصيلُها،فبغير الواو تفصيلها، وإذا أريد العطف عليها بغيرها وغير تفصيلها فبالواو.

وقوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، يقول: ويُبقون نساءكم فيتركون قتلهن، وذلك استحياؤهم كَان إياهُنَّ.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾، يقول تعالى: وفيما يصنعُ بكم آلُ فرعون من أنواع العذاب، بلاءٌ لكم من ربكم عظيمٌ، أي ابتلاء واختبارٌ لكم، من ربكم عظيم. وقد يكون «البلاء»، في هذا الموضع نَعْماء، ويكون: من البلاء الذي يصيب النَّاس من الشدائد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن موسى، حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن

(٢١٨) أحمر
أسود

رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها.

وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَآءٌ﴾ أي: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨].



الشكر
سبب لزيادة النعم والكفر سبب لزوالها

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ ﴾.

ج: إيضاحه - والله أعلم -: واذكر إذا أعلم الله ﷻ وأخبر عباده لئن شكرتم نعمى عليكم لأزيدنكم، ولئن جحدتموها وكفرتم بها فاعلموا أن عذابي شديد لمن كفر نعمائي وجحدها هذا، وللعلماء أقوال في النعم وأقوال في الزيادة فمنها لئن شكرتم نعمي عليكم بإرسالي رسول إليكم فآمنتم به ومنها: لئن شكرتم نعمي بصفة عامة كنعمة الإسلام والصحة والعافية، وسعة الرزق والمال والبنين وغير ذلك، وهذا الأخير أعمَّ وأشمل.

أما قوله تعالى: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، قيل: من نعمي عليكم بتوفيقكم إلى مزيد من الطاعة والإيمان، وقيل: لأزيدنكم من عموم نعمي من الإيمان وسعة الأرزاق وسلامة الأبدان وكثرة الأولاد وغير ذلك من صور النعم، والله أعلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول جل ثناؤه: واذكروا أيضًا حين آذنكم رَبُّكم.

و«تأذن»، «تفعَّل» من «آذن». والعرب ربما وضعت «تفعَّل» موضع «أفعل»، كما قالوا: « أوعدتُه » «وتَوعَّدته»، بمعنى واحد. و«آذن»، أعلم، كما قال الحارث بن حِلِّزة:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

يعني بقوله: «آذنتنا»، أعلمتنا.

وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، يقول: لئن شكرتم ربّكم، بطاعتكم

إياه فيما أمركم ونهاكم، لأزيدنكم في أياديه عندكم ونعمهِ عليكم، على ما قد أعطاكم من النجاة من آل فرعون والخلاص مِنْ عذابهم.

وأورد قولًا في تفسير قوله: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: من طاعتي.

وقوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾، يقول: ولئن كفرتم، أيها القوم، نعمةَ الله، فجحدتموها بتركِ شكره عليها وخلافِه في أمره ونهيه، وركوبكم معاصيه ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: لئن شكرتم نِعَمي لأزيدنكم من طاعتي، قاله الحسن.

والثاني: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي، قاله الربيع.

والثالث: لئن وحَّدتموني لأزيدنكم خيرًا في الدنيا، قاله مقاتل.

وفي قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ قولان.

أحدهما: أنه كفر بالتوحيد.

والثاني: كفران النِّعَم.

(٢٢١) أحمر
أسود

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن خَلْقه، محمود في أفعاله، لأنه إِمّا متفضِّل بفعله، أو عادل.



دفع إشكال

س: كيف الجواب عما قد يستشكل على البعض بأن هناك من يشكر النعم ومع ذلك فيبتلى ويقل رزقه، وهناك من يكفر ويجحد ويعصي ويُزاد رزقه؟

ج: لأهل العلم أقوال في قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وفي تفسير الزيادة هنا منها ما يلي:

أولا: أن الزيادة في طاعة الله والإيمان به.

ثانيًا: أن الزيادة كائنة ولا بد إما في الدنيا وإلا في الآخرة، وكم من شخص يُدخر له ثوابه على الآخرة.

ثالثًا: أن الزيادة قد تتمثل في صرف السوء والمكروه عن الشخص، فمثلًا قد يكون الشخص سيُبتلى في أهله وماله بخسارة أو بهلاك فبشكره للنعم يُصرف عنه السوء والمكروه فيكون قد ازداد من حيث لا يشعر.

رابعًا: أن الزيادة قد تتمثل في رضا العبد بما أعطاه الله ومن ثم في انشراح في الصدر.

أما كون الكافر يعصى ويُزاد من النعم أحيانًا فلذلك وجوهٌ:

أحدها: أن هذا استدراج كالذي يصعد السلم درجة درجة ثم يبلغ أعلاه فإذا به يسقط متهشمًا مُدمرًا، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم: ٤٤].

الثاني: أن هذا العذاب قد يتأتى للكافر في الدنيا بزوال النعم عنه، وإحلال الأمراض والبلاءات به.

الثالث: أنه قد يُدخر له العذاب الشديد للآخرة.

الرابع: أنه قد ينعم عليه بالمال ومع ذلك يكون المال سببًا في نكده وتعاسته وبلائه.

الخامس: أنه يُنعم عليه ومع ذلك فهو ساخط والنعم في عينه قليلة، وعلى كلٍّ فالله أصدق القائلين ووعده لا يتخلف عزَّ ذِكره وجل جلاله، والله أعلم.



(٢٢٤) أحمر
أسود

صور شكر النعم

س: ما صور شكر النعم؟

ج: شكر النعم يتمثل في حمد الله ﷻ عليها باللسان، وفي شكرها بالقلب، وفي العمل بمقتضى هذا الشكر، عمل بالجوارح والأبدان في طاعة الله وإيصال الخير للعباد كما قال القائل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضمير المُحجبا

والله أعلم.



غنى الله ﷻ عن خلقه

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وقال موسى عليه السلام لقومه إن تكفروا بالله وتجحدوا نعمه ووحدانيته أنتم كلكم ومن الأرض كلهم جميعًا فإنكم لن تضروا الله شيئًا بكفركم فالله ﷻ غنيٌّ عن عباده، وهو المنعم عليهم المحمود على نعمائه.

وقد ورد الحديث القدسي بذلك: «لَو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقص ذَلِكَ مِن مُلْكِي شَيئًا»[(١)].

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وقال موسى لقومه: إن تكفروا، أيها القوم، فتجحدوا نعمةَ الله التي أنعمها عليكم، أنتم ويفعل في ذلك مثل فعلكم مَنْ في الأرض جميعًا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عنكم وعنهم من جميع خلقه، لا حاجة به إلى شكركم إياه على نعمه عند جميعكم ﴿ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾، ذُو حمد إلى خلقه بما أنعم به عليهم.

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كفره من كفره، كما قال: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ ﴾ [الزمر: ٧] وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾ ﴾ [التغابن: ٦].

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢٢٦) أحمر
أسود

وَفِي صَحِيح مُسْلِمٍ[(١)]، عَنْ أَبِي ذَرٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ، ﷻ، أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إلا كما ينقُص المخْيَط إذا أدخل فِي الْبَحْرِ». فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.



(١) مسلم (٢٥٧٧).

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ
مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن
نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ
لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ
ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ
لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ
مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن
وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ

(٢٢٨) أحمر
أسود

وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ
غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ
فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ
﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ [إبراهيم: ٩-٢٠].

(٢٢٩) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿نَبَؤُا - بِٱلۡبَيِّنَٰتِ - فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ - كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ - مُرِيبٖ - فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ - أَجَلٖ مُّسَمّٗى - تَصُدُّونَا - بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ - يَمُنُّ - بِإِذۡنِ ٱللَّهِ - فَلۡيَتَوَكَّلِ - هَدَىٰنَا سُبُلَنَا - مِلَّتِنَاۚ - خَافَ مَقَامِي - وَخَافَ وَعِيدِ - وَٱسۡتَفۡتَحُواْ - وَخَابَ - جَبَّارٍ - عَنِيدٖ - مِّن وَرَآئِهِۦ - مَّآءٖ صَدِيدٖ - يَتَجَرَّعُهُۥ - يُسِيغُهُۥ - وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ - وَمِن وَرَآئِهِۦ - غَلِيظٞ - لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ - يَوۡمٍ عَاصِفٖ - ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ - بِٱلۡحَقِّ - بِعَزِيزٖ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿نَبَؤُاْ﴾	خبر.
﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾	بالحجج الواضحات والمعجزات الظاهرات الباهرات والدلائل النيرات.
﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾	قيل: المراد أن أهل الكفر وضعوا أيديهم في أفواهم تغيظًا على الرسل كما قال تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران: ١١٩]. وقيل: وضعوها على الأفواه سخرية واستهزا، وقيل: ردوا على الرسل أقوالها.
﴿كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾	جحدنا ما أرسلتم به وأنكرناه، أنكرنا التوحيد الذي جئتمونا به، وأنكرنا التب التي تقولون إنها نزلت من عند الله.
﴿مُرِيبٖ﴾	مُحيِّر – يستدعي الريبة ويثير الشكوك.

(٢٣٠) أحمر
أسود

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾	خالقهما على غير مثال سابق.
﴿أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾	وقت محدد.
﴿تَصُدُّونَا﴾	تصرفونا.
﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾	بحجة واضحة ظاهرة.
﴿يَمُنُّ﴾	يتفضل.
﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾	بأمر الله.
﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾	فليعتمد.
﴿هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾	وفقنا لسلوك السبل المقربة إليه.
﴿مِلَّتِنَاۚ﴾	عقيدتنا – ديننا.
﴿خَافَ مَقَامِي﴾	خاف يومًا يقوم فيه بين يدي – راقبني وخشيتي، وعلم أنني عليه قائم بأموره وشؤونه.
﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾	خاف وعيدي وزجري (بالآيات التي أنزلتها في كتابي).
﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾	طلبوا الفتح وهو القضاء والحكم، وقيل: إنهم الرسل، وقيل: الكفار، ولا يمنع أن يكون الجميع قد اسفتفح.
﴿وَخَابَ﴾	لم ينل مطلوبه ولم ينج من مرهوبه.
﴿جَبَّارٍ﴾	متكبر على العباد ظالم لهم معتد عليهم.
﴿عَنِيدٖ﴾	معاند للحق.
﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾	من أمامه – في انتظاره.

(٢٣١) أحمر
أسود

﴿مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾	ماء حار طعمه طعم القيح والدم ورائحته رائحته.
﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾	يشربه جرعة جرعة.
﴿يُسِيغُهُۥ﴾	يستطعمه ويبتلعه ويستسيغه.
﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾	تأتيه أسباب الموت وصنوف العذاب تحلَّ ولكنه لا يموت.
﴿غَلِيظٌ﴾	شديد.
﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾	لا يمكنهم استرجاع شيء مما عملوه، لا يمكنهم الاستفادة من عمل صالح عملوه.
﴿يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾	يوم ذي رياح عاصفة شديدة الهبوب.
﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾	الانصراف الشديد عن الحق والصواب.
﴿بِٱلۡحَقِّ﴾	للحق، كي يستدل بها على قدرة الله ووحدانيته وعلى الثواب والعقاب وعلى البعث بعد الموت.
﴿بِعَزِيزٖ﴾	بممتنع ولا شاق.



(٢٣٢) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ألم يأتكم يا معشر قريش، يا أهل الشرك ويا أيها الناس عمومًا خبر الأمم المكذبة من قبلكم التي حلَّ بها من أمر الله ما حلَّ ونزل بها من بلائه ما نزل، وهم قوم نوح إذ أتاهم الطوفان فأغرقهم (إلا من آمن) وقوم عادٍ إذ أخذوا بريح صرصرٍ عاتية، وقوم ثمود إذ أخذتهم الصيحة الطاغية الشديدة التي أهلكتهم، وكذا أمم من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أفناهم الله وأهلكهم وأبادهم، فهؤلاء جميعًا أرسل الله ﷻ إليهم رسلًا منهم وأيد هؤلاء الرسل بالحجج الواضحات والدلالات الظاهرات على وحدانيته ﷻ، ولكن ما قبلوا من الرسل ذلك بل كذبوهم وعاندوهم وردوا أيديهم في أفواههم عندما أخبرتهم الرسل بوحدانية الله وبأوامره ونواهيه.

ولأهل العلم أقوال في قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾:

أحدها: أن أهل الكفر وضعوا أيديهم في أفواههم تغيظًا على الرسل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

الثاني: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم ساخرين مستهزئين كالذي يضحك ساخرًا ويضع يده على فمه.

الثالث: أن المراد أنهم ردوا على الرسل قولهم ورفضوا ما جاءتهم به رسلهم.

الرابع: أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل يمنعونهم من الكلام.

أما قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ...﴾ فهذا قول الكفار لرسلهم يقولون لهم: إنا جحدنا ما أرسلتم به، وأنكرنا ما أرسلتم به ومن ثمَّ فلن نتبعه،

فإذا كنتم تدعوننا إلى عبادة الله وحده لا شريك له فإنا جحدنا ذلك وكفرنا بذلك وأنكرنا ذلك، ثم إننا في شكٍّ محيِّر مما تدعوننا إليه، شك يجلب الرِّيبة والتردد. فلن نؤمن لكم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيل موسى لقومه: يا قوم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، يقول: خبر الذين من قبلكم من الأمم التي مضت قبلكم ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾، وقوم نوح مُبيَّنٌ بهم عن «الذين»، و«عاد» معطوف بها على «قوم نوح»، ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، يعني من بعد قوم نوح وعاد وثمود ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، يقول: لا يحصي عَدَدهم ولا يعلَمُ مبلغهم إلا الله.

وأورد بإسناد صحيح عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون: ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، قال: كذَب النسَّابون.

وورد هذا أيضًا عند الطبري بإسنادٍ صحيح عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود.

قلت (مصطفى): والمعنى كذب الذين يدعون علم الأنساب فإن هناك انقطاع بين القرون المذكورة لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وقوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، يقول: جاءت هؤلاء الأمم رسلُهم الذين أرسلهم الله إليهم بدعائهم إلى إخلاص العبادة له «بالبينات»، يعني بحججٍ ودلالاتٍ على حقيقة ما دعوهم إليه من مُعْجِزاتٍ.

وقوله: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. فقال بعضهم: معنى ذلك: فعضُّوا على أصابعهم، تغيُّظًا عليهم في دعائهم إياهم إلى ما دَعَوهم إليه.

وأورد بإسناد صحيح عن أبي الأحوص، عن عبد الله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، قال: عضوا عليها تغيُّظًا.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، فقرأ: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران: ١١٩]، قال: هذا، «ردُّوا أيديهم في أفواههم». قال: أدخلوا أصابعهم في أفواههم. وقال: إذا اغتاظ الإنسان عضَّ يده.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم لما سمعوا كتابَ الله عجبوا منه، ووضعوا أيديهم على أفواههم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم كذبوهم بأفواههم.

وأورد بإسنادٍ صحيح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، يقول: قومُهم كذّبوا رسلهم وردُّوا عليهم ما جاءوا به من البينات، وردُّوا عليهم بأفواههم، وقالوا: إنا لفي شك مما تَدعوننا إليه مُريب.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم كانوا يَضَعُون أيديهم على أفواه الرّسل ردًّا عليهم قولَهم، وتكذيبًا لهم.

وقال آخرون: هذا مَثَلٌ، وإنما أُرِيد أنهم كفُّوا عَمَّا أُمروا بقَوْله من الحق، ولم يؤمنوا به ولم يسلموا. وقال: يقال لِلرَّجل إذا أمسَك عن الجواب فلم يجبْ: « ردّ يده في فمه ». وذكر بعضهم أن العرب تقول: « كلمت فلانًا في حاجة فرَدّ يدَه في فيه»، إذا سكت عنه فلم يجب.

قال أبو جعفر: وهذا أيضًا قول لا وَجْه له، لأن الله عزَّ ذكره، قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾، فقد أجابوا بالتكذيب.

قال أبو جعفر: وأشبه هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل هذه الآية،

القولُ الذي ذكرناه عن عبد الله بن مسعود: أنهم ردُّوا أيديهم في أفواههم، فعضُّوا عليها، غيظًا على الرسل، كما وصف الله جل وعز به إخوانهم من المنافقين، فقال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾. فهذا هو الكلام المعروف والمعنى المفهوم من «ردِّ اليدِ إلى الفم».

وقوله: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾، يقول ﷻ: وقالوا لرسلهم: إنا كفرنا بما أرسلكم به مَنْ أرسلكم، من الدعاء إلى ترك عبادة الأوثان والأصنام ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ من حقيقة ما تدعوننا إليه من توحيد الله ﴿مُرِيبٍ ٩﴾، يقول: يريبنا ذلك الشك، أي يوجب لنا الريبَة والتُّهمَةَ فيه.

يقال منه: «أرابَ الرجل»، إذا أتى بريبة، «يُريبُ إرابةً».

وقال ابن كثير رحمه الله:

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل موسى لقومه.

يعني: وتذكاره إياهم بأيام الله، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل.

وفيما قال ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصه عليهم ذلك فلا شك أن تكون هاتان القصتان في «التوراة»، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصي عددهم إلا الله ﷻ أتتهم رسلهم بالبينات، أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات.

وأورد أقوالًا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ نحوًا مما ذكره الطبري رحمه الله.

ثم قال في ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ٩﴾

(٢٣٦) أحمر
أسود

يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عندنا فيه شكا قويا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم-: جواب رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه، جوابه لأممهم المكذبة الجاحدة، قالوا لأقوامهم أفي الله شك! أفي وحدانية الله شك؟؟ أفي قدرة الله شك؟!!

أفي عبادة الله وحده لا شريك له شك؟!!

وهو فاطر السموات والأرض، خالقهما على غير مثالٍ سابقٍ، يدعوكم إلى توحيده وعبادته وحده لا شريك له ليغفر لكم ذنوبكم التي أسلفتموها وجرائمكم التي ارتكبتموها إن آمنتم وأطعتم، كذا يؤخركم بلا عذاب إلى أن تموتوا بآجالكم التي كتبها الله لكم وحدَّدها لكم؟!!

فقال الأقوام حينئذٍ لأنبيائهم ورسلهم: إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا، ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، صوركم كصورنا، تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق كما نأكل ومشي، أنتم بشر منا شأنكم شأننا فكيف تدعون أن الله ﷻ أرسلكم إلينا، كلا بل أنتم تريدون فقط أن تصرفونا عن عبادة الأوثان والأصنام التي كان يعبدها آباؤنا وأسلافنا ولستم برسلٍ من رسل الله، فأتونا بحجة بيِّنة على كونكم رسل، ائتونا بمعجزة تدل على أن الله أرسلكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قالت رُسل الأمم التي أتتها رسُلها: ﴿أَفِي ٱللَّهِ﴾، أنه المستحق عليكم، أيها الناس، الألوهة والعبادةَ دون جميع خلقه ﴿شَكٌّ﴾

وقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، يقول: خالق السماوات والأرض ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾، يقول: يدعوكم إلى توحيده وطاعته ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾، يقول: فيستر عليكم بعضَ ذنوبكم بالعفو عنها، فلا يعاقبكم عليها، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ﴾، يقول: وينسئ في آجالكم، فلا يعاقبكم في العاجل فيهلككم، ولكن يؤخركم إلى الوقت الذي كتبَ في أمّ الكتاب أنه يقبضكم فيهِ، وهو الأجل الذي سمَّى لكم. فقالت الأمم لهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾، أيها القوم ﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، في الصورة والهيئة، ولستم ملائكة، وإنما ﴿تُرِيدُونَ﴾ بقولكم هذا الذي تقولون لنا ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، يقول: إنما تريدون أن تصرِفونا بقولكم عن عبادة ما كان يعبدُه من الأوثان آباؤنا ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾، يقول: فأتونا بحجة على ما تقولون تُبين لنا حقيقتَه وصحتَه، فنعلم أنكم فيما تقولون محقُّون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾

وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

وقالت لهم الرسل: ندعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم، أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ الآية [هود: ٣]، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نر منكم معجزة؟ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: خارق نقترحه عليكم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهام معناه الإنكار، أي لا شك في الله، أي في توحيده، قال قتادة. وقيل: في طاعته. ويحتمل وجها ثالثا: أفي قدرة الله شك؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها، يدل عليه قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم، لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي إلى طاعته بالرسل والكتب. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيد:« من» زائدة. وقال سيبويه: هي للتبعيض، ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع.

وقيل:« من» للبدل وليست بزائدة ولا مبعضة، أي لتكون المغفرة بدلا من الذنوب. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ يعني الموت، فلا يعذبكم في الدنيا. ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم. ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الهيئة والصورة، تأكلون مما

نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستم ملائكة. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي بحجة ظاهرة، وكان محالا منهم، فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

ج: هذا جواب رسل اله لأقوامهم لما رفضوا الإيمان متعللين بأن رسل الله بشرٌ طالبين معجزةً دالة على نبوتهم، فحينئذٍ أجابتهم الرسل بقولهم ما نحن إلا بشر مثلكم، صدقتكم في كونكم قلتم ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، فنحن بشر مثلكم، ولكن الله ﷻ يمنُّ ويتفضل على من يشاء من عباده فيرسله رسولًا لخلقه ويوحي إليه.

أما كونكم تطالبوننا بمعجزة، بحجة دالة على أننا رسلٌ من عند الله، فالمعجزات أمرها ليس إلينا، إنما أمرها موكول إلى الله ﷻ فلن نستطيع أن نأتيكم بمعجزة إلا من عند الله، وبإذن من الله بذلك وعلى الله فليعتمد المؤمنون في كل شيء، يعتمدون عليه في قضاء حوائجهم ومطالبهم، يعتمدون عليه في كشف الضر عنهم، يعتمدون عليه لتثبيتهم على الإيمان، يعتمدون عليه في كل وقتٍ وحين، وفي كل زمان ومكان وفي كل شأن وحالٍ.

فلذا فإننا سنعتمد على ربنا فنحن به مؤمنون.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قالت الأمم التي أتتهم الرّسلُ رُسُلهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ

مِّثْلُكُمْ ﴾، صدقتم في قولكم، إن أنتم إلا بشر مثلنا، فما نحنُ إلا بَشَر من بني آدم، إنسٌ مثلكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾، يقُول: ولكن الله يتفضل على من يشاء من خلقه، فيهديه ويوفقه للحقّ، ويفضّله على كثير من خلقه ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ ﴾، يقول: وما كان لنا أن نأتيكم بحجة وبرهان على ما ندعوكم إليه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، يقول: إلا بأمر الله لنا بذلك ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾، يقول: وبالله فليثق به من آمن به وأطاعه، فإنا به نثق، وعليه نتوكل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي: صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي: بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ ﴾ على وفق ما سألتم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا في ذلك، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ أي: في جميع أمورهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي في الصورة والهيئة كما قلتم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي يتفضل عليه بالنبوة. وقيل، بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه.

وقال القرطبي أيضًا:

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ ﴾ أي بحجة وآية. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي بمشيئته، وليس ذلك في قدرتنا، أي لا نستطيع أن نأتي بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته، فلفظه لفظ الخبر، ومعناه النفي، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: صحيح وحقيقة أنا بشر مثلكم، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق فإن ﴿ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به فإن كان حقا فاقبلوه وإن كان غير ذلك فردوه ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ فإن هذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته وعميم إحسانه، ويثقون به في تيسير ذلك وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: أن الرسل قالوا لأقوامهم وما الذي يمنعنا أن نتوكل على الله، وبأي وجه نمتنع من الاعتماد عليه والالتجاء غليه وقد وفقنا للإيمان وهدانا للطرق الموصلة إليه وإلى مرضاته، فليس لنا أي عذرٍ في ترك

التوكل عليه، بل نحن على الله متوكلون، ولنصبرن على الأذى الذي تلحقونه بنا من ضرب وسجن وتهديد بالقتل وشتم وغير ذلك من صور الأذى، وعلى الله فليعتمد المعتمدون لقضاء حوائجهم ولكشف الضرِّ عنهم ولحفظهم وفي شؤونهم كلها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قِيل الرسل لأممها: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، فنثق به وبكفايته ودفاعه إياكم عنَّا ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾، يقول: وقد بَصَّرنا طريقَ النجاة من عذابه، فبين لنا ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾، في الله وعلى ما نلقى منكم من المكروه فيه بسبب دُعائنا لكم إلى ما ندعوكم إليه، من البراءة من الأوثان والأصنام، وإخلاص العبادة له ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾، يقول: وعلى الله فليتوكل من كان به واثقًا من خلقه، فأما من كان به كافرًا فإنّ وليَّه الشيطان.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قالت الرسل: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾ أي: من الكلام السيئ، والأفعال السخيفة، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ «ما» استفهام في موضع رفع بالابتداء، و«لنا» الخبر، وما بعدها في موضع الحال، التقدير: أي شي لنا في ترك التوكل على الله. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾ أي الطريق الذي يوصل إلى رحمته، وينجي من سخطه ونقمته. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ لام قسم، مجازه: والله لنصبرن ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾ به، أي من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة

بالله أنه يكفينا ويثيبنا. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ أي: أي شيء يمنعنا من التوكل على الله والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامنا على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كالإشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم بآية عظيمة، وهو أن قومهم -في الغالب- لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدتهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾ الآيات.

وقول هود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود: ٥٤-٥٥].

﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾ أي ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى احتسابا للأجر ونصحا لكم لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده لا على غيره ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب وهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم.



دومًا الكفار يتهددون
أهل الإيمان بالطرد والإبعاد من البلاد

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

ج: هذا - والله تعالى أعلم-: إخبارٌ من الله ﷻ يُخبر نبيه ﷺ، ويُخبر من آمنوا به أن من سنة الكفار في كل زمانٍ ومكان توعد الرسل عليهم الصلاة والسلام، بالطرد والإبعاد عن البلاد، فلم يكن الذي يحدث لرسول الله ﷺ ببدع من الفعل، وببدع من القول بل هي سنة مضطردة لأهل الكفر في توعد الأنبياء وأهل الفضل والصلاح فالآية تحمل تثبيتًا وتصبيرًا لرسول الله ﷺ.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾، أي: من بلادنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾ ملة الكفر والشرك والعياذ بالله، وهذا كما قال قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾.

وكما قال قوم لوط عليه السلام: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦]، وكما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكما قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: «ليتني أكون حيًّا، ليتني أكون فيها جذعًا، إذ يخرجك قومك، فقال ﷺ: «**أومُخرجي هم**» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي».

فأمام هذه التهديدات بالإخراج من البلاد يثبت الله ﷻ المرسلين، فيقول تعالى ذكره: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى رسلنا، ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ من بعد إهلاكهم، كما قال في شأن بني إسرائيل مع فرعون ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: خاف يومًا يقوم فيه بين يدي الله ﷻ يسأله ربُّه ﷻ عما صنع، ويحاسبه عما قدم، وقال بعض العلماء: معنى قوله: خاف مقامي راقبني وعلم أنني قائم بأمره أفعل فيه ما أشاء وأقضي فيه بما أريد، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي: خاف تحذيري إذ حذرته في كتابي الذي أنزلته على رسولي، حذرته بالنار إذ هو عصاني وخالف أمري.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول عزّ ذكره: وقال الذين كفروا بالله لرسلهم الذين أرسلوا إليهم، حين دعوهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وفراق عبادة الآلهة والأوثان ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾، يعنون: من بلادنا فنطردكم عنها ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، يعنون: إلا أن تَعُودوا في دِيننا الذي نحن عليه من عبادة الأصنام.

وأدخلت في قوله: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ «لام»، وهو في معنى شرطٍ، كأنه جواب لليَمين، وإنما معنى الكلام: لنخرجَنكم من أرضنا، أو تعودون في ملتنا.

وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾، الذين ظلموا أنفسهم، فأوجبوا لها عقاب الله بكفرهم. وقد يجوز أن يكون قيل لهم: «الظالمون» لعبادتهم من لا تجوز عبادته من الأوثان والآلهة، فيكون بوضعهم العبادةَ في غير موضعها، إذ كان ظلمًا، سُمُّوا بذلك.

وقوله: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾، هذا وعدٌ من الله مَنْ وَعد من

أنبيائه النصرَ على الكَفَرة به من قومه. يقول: لما تمادتْ أمم الرسل في الكفر، وتوعَّدوا رسُلهم بالوقوع بهم، أوحى الله إليهم بإهلاك من كَفَر بهم من أممهم ووعدهم النصر. وكلُّ ذلك كان من الله وعيدًا وتهدُّدا لمشركي قوم نبيِّنا محمد ﷺ على كفرهم به، وجُرْأتهم على نبيه، وتثبيتًا لمحمد ﷺ، وأمرًا له بالصبر على ما لقي من المكروه فيه من مشركي قومه، كما صبر من كان قبله من أولي العزم من رسله ومُعرِّفَة أن عاقبة أمرِ من كفر به الهلاكُ، وعاقبتَه النصرُ عليهم، سُنَّةُ الله في الذين خَلَوْا من قبل.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ﴾، قال: وعدهم النصرَ في الدنيا، والجنَّةَ في الآخرة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾، يقول جل ثناؤه: هكذا فِعْلي لمن خاف مَقامَه بين يديّ، وخاف وعيدي فاتّقاني بطاعته، وتجنَّب سُخطي، أنصُرْه على ما أراد به سُوءًا وبَغَاه مكروهًا من أعدائي، أهلك عدوّه وأخْزيه، وأورثه أرضَه وديارَه.

وقال: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾، ومعناه ما قلت من أنه لمن خاف مَقَامه بين يديَّ بحيث أقيمه هُنالك للحساب، كما قال: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٢] ، معناه: وتجعلون رِزقي إياكم أنّكُم تكذبون. وذلك أن العرب تُضيف أفعالها إلى أنفسها، وإلى ما أوقعت عليه، فتقول: «قد سُرِرتُ برؤيتك، وبرؤيتي إياك»، فكذلك ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقال

قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل: ٥٦]، وقال تعالى إخبارا عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكان من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارا وأعوانا وجندا، يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقيه الله تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم، و من سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ أي: وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي، كما

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٤١]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي مقامه بين يدي يوم القيامة، فأضيف المصدر إلى الفاعل. والمقام مصدر كالقيام، يقال: قام قياما ومقاما، وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به. والمقام بفتح الميم مكان الإمامة، وبالضم فعل الإقامة، و﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي قيامي عليه، ومراقبتي له، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾. وقال الأخفش: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي عذابي، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي القرآن وزواجره. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿أضواء البيان﴾:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار توعدوا الرسل بالإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي، وقد نص في آيات أخر أيضًا على بعض ذلك مفصلاً كقوله من قوم شعيب: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ الآية [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وقوله عن قوم لوط: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦]، وقوله عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى رسله أن العاقبة والنصر لهم على أعدائهم وأنه يسكنهم الأرض بعد إهلاك أعدائهم، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [غافر: ٥١].

وقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَاۖ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: وطلبوا الفتح والحكم والقضاء، أما الذين استفتحوا فمن هم؟ فللعلماء فيهم قولان: اشهرهما أن الذين استفتحوا هم رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه طلبوا من الله ﷻ أن يقضي بينهم وبين قومهم، وأن ينصرهم على قومهم، قال تعالى في شأن شعيب عليه السلام إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقبله قال

نـــــوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء: ١١٧-١١٨].

هذا، والقول الآخر أن الذين استفتحوا هم الكفار، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولا مانع أن يكون الذين استفتحوا هؤلاء وأولئك فكلٌّ طلب من الله ﷻ أن يقضي بينه وبين الآخر.

أما قوله تعالى: ﴿وَخَابَ﴾ أي: لم ينل مطلوبه ولم يَنْجُ من مرهوبه ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ متكبر عن الحق رافض لقبوله حائد عن توحيد الله ﷻ متطاول على العباد ﴿عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ معاندٌ للحق رافض له.

أما قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ فقال بعض العلماء: إن معناها من أمامه جهنم تنتظره.

وقال آخرون: هي له بالمرصاد تلاحقه أينما كان والأكثرون على القول الأول.

أما قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: أن هذا الكافر شرابه ﴿مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ قيل: هو القيح والدم الذي يخرج من الجروح، وقيل: هو ماءٌ حارٌ في غاية الحرارة يشبه الصديد في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة.

أما قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يشربه جرعة جرعة مضطرًا لشربه ولكن لحرارته ولقذارته ولخبث رائحته لا يكاد يستساغ فإذا قرَّب إلى وجهه شواه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

وإذا وصل الماء إلى الأمعاء قطعها، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ [محمد: ١٥].

أما قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فمعناه - والله أعلم - وتأتيه أسباب الموت وصور العذاب، وأنواع العذاب التي هي كفيلة بإماتته لو كان هناك موتٌ، تأتيه أنواع العذاب من كل اتجاه، فمن أمامه عذاب، ومن خلفه عذاب، يضرب من الأمام ومن الخلف ومن أسفل ومن أعلى، ومن داخل جسمه فإذا أكل مكانًا وقف في حلقه قال تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ [المزمل: ١٣]، وهذا كفيل، بإماتته لكن ربنا ما قضى عليه بالموت، قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ [الأعلى: ١٣].

يأتيه ضرب بالمطارق من فوق رأسه، وهذا كفيل بإماتته ولكنه لا يموت.

تأتيه النار من أعلاه ومن أسفله، فهي مهاده وفراشه، وسرادقها يُحيط به، وكل هذا كفيل بإماتته لو كان هناك، جلده يُشوى، أمعاؤه تتقطع، وكل هذا كفيل بإماتته لكن يضرب ولا يموت، نعوذ بالله من العذاب فلا أحد يشفق عليه، ولا أحد يهتم به، ولا أحد يدفع عنه العذاب، وإذ وجد وجد اللعنات تصاحبه وتحلُّ به حيث كان.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ فالمراد: والله أعلم، أن بعد هذا العذاب الذي يُعذب به وبعض أسباب الموت التي يعاينها عذاب أخر شديد في النار، فلا تخفيف، بل زيادة في اعذاب، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ: ٣٠].

وبنحو ما ذكر قال العلماء في تفسير الآيات المذكورة.

(٢٥٣) أحمر
أسود

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: واستفتحت الرُّسل على قومها: أي استنصرت الله عليها ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾، يقول: هلك كل متكبر جائر حائدٍ عن الإقرار بتوحيد الله وإخلاص العبادة له.

و«العنيد» و«العاند» و«العَنُود»، بمعنى واحد.

وأورد الطبري أقوالًا كثيرة في أن الذين استفتحوا هم الرسل.

وكذا أورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، ما مفاده أن الذين استفتحوا هم الكفار فأورد بإسناد صحيح في قوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾، قال: استفتاحهم بالبلاء، قالوا: اللهم إن كان هذا الذي أتى به محمد هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء، كما أمطرتها على قوم لوط، أو ائتنا بعذاب أليم. قال: كان استفتاحهم بالبلاء كما استفتح قوم هود: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف: ٧٠] قال: فالاستفتاح العذاب، قال: قيل لهم: إنّ لهذا أجلا! حين سألوا الله أن ينزل عليهم، فقال: «بلْ نُؤخِّرُهُمْ لِيَوْم تَشْخَصُ فِيهِ الأبْصَار». فقالوا: لا نريد أن نؤخر إلى يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ عذابنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص: ١٦]. وقرأ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ حتى بلغ: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٥].

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول عزّ ذكره: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾، من أمام كل جبار ﴿جَهَنَّمُ﴾، يَرِدُونها.

و«وراء» في هذا الموضع، يعني أمام، كما يقال: «إن الموت مِنْ ورائك»، أي قُدّامك.

وقوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾، يقول: ويسقى من ماءٍ، ثم بيَّن ذلك

الماء جل ثناؤه وما هو، فقال: هو «صديد»، ولذلك رد «الصَّديد» في إعرابه على «الماء»، لأنه بيَانٌ عنه.

و «الصديد»، هو القَيْحُ والدم.

وأورد بإسنادٍ صحيح بطريقيه عن قتادة، قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾، و«الصديد»، ما يسيل من لحمه وجلدِه.

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، يتحسَّاه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، يقول: ولا يكاد يزدرده من شدة كراهته، وهو مُسيغه من شدّة العطش.

والعرب تجعل «لا يكاد» فيما قد فُعِل، وفيما لم يُفْعَل. فأما ما قد فعل، فمنه هذا، لأن الله جل ثناؤه جعل لهم ذلك شرابًا. وأمَّا ما لم يفعل وقد دخلت فيه «كاد» فقوله: حتى ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، فهو لا يراها.

وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، فإنه يقول: ويأتيه الموت من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، ومن كل موضع من أعضاء جسده ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، لأنه لا تخرج نفسه فيموت فيستريح، ولا يحيا لتعلُّق نفسه بالحناجر، فلا ترجع إلى مكانها.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾، يقول: ومن وراء ما هو فيه من العذاب يعني أمامه وقدامه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ الوجهين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾.

الأول: أن المراد الرسل.

والثاني: أن المراد الكفار.

وقال ابن كثير:

ويحتمل أن يكون هذا مرادا وهذا مرادا، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿ إن

(٢٥٥) أحمر
أسود

﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ الآيـة [الأنفـال: ١٩]، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾ أي: متجبر في نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦﴾ [ق: ٢٤-٢٦].

وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ و«وراء» ها هنا بمعنى «أمام»، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾.

أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدوا وعشيا إلى يوم التناد.

﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يتغصصه ويتكرهه، أي: يشربه قهرا وقسرا، لا يضعه في فيه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ [الحج: ٢١].

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذي لا يستطاع.

﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه.

قال ميمون بن مهران: من كل عظم، وعرق، وعصب.

وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره.

وقال ابن جرير: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله ومن سائر أعضاء جسده.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ [الصافات: ٦٤ -٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم عياذا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠]، وقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة: ٤١ -٤٤]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ [ص: ٥٥ -٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله، ﷻ، جزاء وفاقا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ...﴾.

ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك، لقول تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ﴾ [فاطر: ٣٦] وبذلك وردت السنة، فأحوال

(٢٥٧) أحمر
أسود

الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائما، والله أعلم. ﴿وَمِن وَرَآبِهِۦ﴾ أي من أمامه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ أي شديد متواصل الآلام من غير فتور، ومنه قوله: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] أي شدة وقوة. وقال فضيل بن عياض في قول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآبِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ قال: حبس الأنفاس.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآبِهِۦ...﴾

قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآبِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ الآية، وراء هنا بمعنى أمام كما هو ظاهر ويدل له إطلاق وراء بمعنى إمام في القرآن، وفي كلام العرب فمنه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩]، أي: أمامهم ملك، وكان ابن عباس يقرؤها **(وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً)**، ومن إطلاق وراء بمعنى أمام في كلام العرب قول لبيد:

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تحني عليها الأصابع

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿مِّن وَرَآبِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من ورودها فيذاق حينئذ العذاب الشديد، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ من العطش الشديد ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه وإذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء، ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت ولكن الله قضى أن لا يموتوا كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: الجبار العنيد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: قوي شديد لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: همُّ الموت وكربه وألمه ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: من كل شعرة في جسده، رواه عطاء عن ابن عباس. وقال سفيان الثوري: من كل عِرْق. وقال ابن جريج: تتعلق نفسه عند حنجرته، فلا تخرج من فيه فتموت، ولا ترجع إِلى مكانها فتجد راحة.

والثاني: من كل جهة، من فوقه وتحته، وعن يمينه وشماله، وخلفه وقُدَّامه، قاله ابن عباس أيضًا.

والثالث: أنها البلايا التي تصيب الكافر في النار، سماها موتًا، قاله الأخفش.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: موتًا تنقطع معه الحياة. ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: من بعد هذا العذاب. قال ابن السائب: من بعد الصديد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾. وقال إِبراهيم التيمي: بعد الخلود في النار. والغليظ: الشديد.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

ج: هذا - والله أعلم-: مثلٌ ضُرب لأعمال الكفار التي عملوها، وخاصة أعمال البر التي قاموا بها في دنياهم كصلة الأرحام وإطعام المساكين وغير ذلك، مثل أعمال الذين جحدوا وحدانية الله وعبدوا معه غيره كرمادٍ طيَّرته الرياح الشديدة، شديدة الهبوب والعصوف في يوم شديدة الرياح فيه تعصف

بكل شيء وتزيله عن مكانه، فأصبحوا غير قادرين على الانتفاع بشيء من أعمالهم التي عملوها في دنياهم فالأعمال شُبِّهت بالرماد (التراب) والشرك بالله ﷻ شبه بالرياح العاصفة فكما أن الرياح العاصفة تزيل ذرات التراب والغبار ولا يقدر الشخص بحالٍ من الأحوال على ردها والانتفاع بها، فكذلك أعمال أهل الشرك يُذهبا الشرك بالله ﷻ ويحبطها ويذهب بثوابها.

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ أي: سعيهم الذي سعوا وعملهم الذي عملوه وهم على الشرك هو الانحراف الشديد، والبُعد البعيد عن الحق والصواب والرشاد، والله أعلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ أي: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئا، ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ أي: ذي ريح عاصفة قوية، فلا يقدرون على شيء من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣ ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ

فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (التفسير القيم):

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾.

شبه الله تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف.

فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلا كالهباء المنثور، لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونها لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، وعلى غير أمره: برماد طيرته الريح العاصف. فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه. فلذلك قال: لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء. فلا يرون له أثرا من ثواب، ولا فائدة نافعة. فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، موافقا لشرعه.

والأعمال أربعة: فواحد مقبول. وثلاثة مردودة.

فالمقبول: الخالص الصواب. فالخالص: أن يكون لله لا لغيره.

والصواب: أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله.

والثلاثة المردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سرّ بديع. وذلك للتشابه بين أعمالهم وبين الرماد، في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا. فكانت الأعمال التي لغير الله، وعلى

غير مراده: طعمة للنار، وبها تسعّر النار على أصحابها.

وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارا وعذابا، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيما وروحا، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا. فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار.

قال الشنقيطي في أضواء البيان:

قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ ﴾ الآية، ضرب الله تعالى لأعمال الكفار مثلاً في هذه الآية الكريمة برماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف، أي: شديد الريح، فإن تلك الريح الشديدة العاصفة تطير ذلك الرماد، ولم تبق له أثراً فكذلك أعمال الكفار كصلات الأرحام وقري الضيف والتنفيس عن المكروب وبر الوالدين ونحو ذلك يبطلها الكفر ويذهبها كما تطير تلك الريح ذلك الرماد، وضرب أمثالاً أخر في آيات أخر لأعمال الكفار بهذا المعنى كقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين في موضع آخر أن الحكمة في ضربه للأمثال أن يتفكر الناس فيها فيفهموا الشيء بنظرة، وهو قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر: ٢١٢١]، ونظيره قوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وبين في موضع آخر أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم، وهو قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وبين في موضع آخر أن المثل المضروب يجعله الله سبب هداية لقوم فهموه، وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة٢٦]، وبين في موضع آخر أنه تعالى لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ولو كان المثل المضروب بعوضة فما فوقها قيل: فما هو أصغر منها؛ لأنه يفوقها في الصغر، وقيل: فما فوقها، أي فما هو أكبر منها، هو قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾ [البقرة: ٢٦]، ولذلك ضرب المثل بالعنكبوت في قوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وضربه بالحمار في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ ﴾ الآية [الجمعة:٥]، وضربه بالكلب في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، إلى غير ذلك، والعلم عند الله تعالى.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهلُ العربية في رافعِ «مَثَلُ».

فقال بعض نحويي البصرة: إنما هو كأنه قال: ومما نقصّ عليكم مَثَلُ الذين كفروا، ثم أقبل يفسّر، كما قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الرعد: ٣٥]، وهذا كثير.

وقال بعض نحويي الكوفيين: إنما المثل للأعمال، ولكن العرب تقدّم

الأسماء، لأنها أعرفُ، ثم تأتي بالخبر الذي تخبر عنه مع صاحبه. ومعنى الكلام: مَثَلُ أعمال الذين كفروا بربهم كرماد، كما قيل: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، ومعنى الكلام: ويوم القيامة ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة. قال: ولو خفض «الأعمال» جاز، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧]، وقوله: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الرعد: ٣٥]. قال: فـ«تجري»، هو في موضع الخبر، كأنه قال: أن تجري، وأن يكون كذا وكذا، فلو أدخل «أن» جاز.

قال: ومنه قول الشاعر:

ذَرِينِي إِنَّ أَمْرَكِ لَنْ يُطَاعَا ... وَمَا أَلْفَيْتِنِي حِلْمِي مُضَاعَا

قال: فالحلمُ منصوبٌ ب «ألفيتُ» على التكرير، قال: ولو رفعه كان صوابًا. قال: وهذا مثلٌ ضربه الله لأعمال الكفّار فقال: مَثَلُ أعمال الذين كفروا يوم القيامة، التي كانوا يعملونها في الدنيا يزعمُون أنهم يريدون الله بها، مَثَلُ رمادٍ عصفت الريح عليه في يومٍ ريح عاصفٍ، فنسفته وذهبت به، فكذلك

أعمال أهل الكفر به يوم القيامة، لا يجدون منها شيئًا ينفعهم عند الله فينجيهم من عذابه، لأنهم لم يكونوا يعملونها لله خالصًا، بل كانوا يشركون فيها الأوثان والأصنام.

يقول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾، يعني أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، التي يشركون فيها مع الله شركاء، هي أعمالٌ عُملت على غير هُدًى واستقامة، بل على جَوْر عن الهُدَى بعيد، وأخذٍ على غير استقامة شديد.

وقيل: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، فوصف بالعُصوف اليومَ، وهو من صفة الريح، لأن الريح تكون فيه، كما يقال: «يوم بارد، ويوم حارّ»، لأن البردَ والحرارة

يكونان فيه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾، أي الخطأ البينُ، البعيدُ عن طريق الحق.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قال المفسرون: ومعنى الآية: أن كل ما يتقرَّب به المشركون يَحْبَط ولا ينتفعون به، كالرماد الذي سَفَتْه الريح فلا يُقدَر على شيء منه، فهم لا يقدرون مما كسبوا في الدنيا على شيء في الآخرة، أي: لا يجدون ثوابه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ من النجاة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله، بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد، الذي هو أدق الأشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه لا يبقى منه شيئا، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل، فكذلك أعمال الكفار ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ ولا على مثقال ذرة منه لأنه مبني على الكفر والتكذيب.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾ حيث بطل سعيهم واضمحل عملهم، وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق، فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك ومكرهم عائد عليهم ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: ألم تر يا رسول الله بقلبك، ألم تعلم، والم تر أيضًا ببصرك وفكرك أن الله ﷻ خلق السموات والأرض بقدرته ولحكمة يعلمها، وليستدل العباد بخلقها على قدرته فيوحدونه ولا يشركون به شيئًا، وكذا ليستدلوا بها على البعث والثواب والعقاب.

فالذي خلقهما ﷻ قادر على أن يذهب بكم أيها الناس ويأت بأناس آخرين أطوع له منكم وأعبد له منكم كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، وكما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: وما إماتتكم والذهاب بكم والإتيان بخلق جديد بأمر ممتنع على الله أو شاق عليه بل هو على كل شيء قدير.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول عز ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ألم تر، يا محمد، بعين قلبك، فتعلم أن الله أنشأ السماوات والأرض بالحق منفردًا بإنشائها بغير ظهير ولا مُعين ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾، يقول: إن الذي تفرد بخلق ذلك وإنشائه من غير معين ولا شريك، إن هو شاء أن يُذْهبكم فيفنيكم، أذهبكم وأفناكم، ويأتِ بخلق آخر سواكم مكانكم، فيجدِّد خلقهم ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾، يقول: وما إذهابكم وإفناؤكم وإنشاء خلقٍ آخر سواكم مكانكُم، على الله بممتنع ولا متعذّر، لأنه القادر على ما يشاء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحاري وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٧ -٨٣].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأتي بآخرين على غير صفتكم.

كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ -١٧].

وقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

وقـــال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائـدة: ٥٤]، وقـال: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣].

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: ألم تُخْبَر، قاله ابن السائب.

والثاني: ألم تعلم، قاله مقاتل، وأبو عبيدة.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ قال المفسرون: أي: لم يخلقهن عبثًا، وإنما خلقهن لأمر عظيم. ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ قال ابن عباس: يريد: يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قومًا غيركم خيرًا منكم وأطوع، وهذا خطاب لأهل مكة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ أي: بممتنع متعذِّر.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ينبه تعالى عباده بأنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم وليستدلوا بهما وما فيهما على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض -على عظمهما وسعتهما- قادر على أن يعيدهم خلقا جديدا، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك ولهذا قال: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩﴾.

يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقا جديدا، ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة.

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠ ﴾ أي: بممتنع بل هو سهل عليه جدا، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ
ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا
تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ
إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

[إبراهيم: ٢١-٢٣]

(٢٧٠) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:
﴿ وَبَرَزُوا -ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ - تَبَعًا - مُّغْنُونَ عَنَّا - لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ - سَوَآءٌ عَلَيْنَآ - أَجَزِعْنَآ - صَبَرْنَا -مَّحِيصٍ - قُضِيَ ٱلْأَمْرُ - وَعْدَ ٱلْحَقِّ - سُلْطَٰنٍ - بِمُصْرِخِكُمْ - بِمُصْرِخِيَّ - كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ - بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ وَبَرَزُوا ﴾	ظهروا – خرجوا إلى البراز (الفضاء).
﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ ﴾	الأتباع الذين اتبعوا ساءتهم وكبراءهم على الكفر ورضوا بذلك.
﴿تَبَعًا﴾	أتباعًا.
﴿مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾	دافعون عنا.
﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾	لو بيَّن الله لنا سبيلًا للنجاة الآن لبيَّناه لكم. لو وفقنا الله للإيمان في الدنيا لأرشدناكم
﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾	يستوي شأننا عند جزعنا أو عند صبرنا لا تغير في أحوالنا بتخفيف العذاب.
﴿أَجَزِعْنَآ﴾	أظهرنا الجزع والذي هو الخوف الشديد والألم الشديد.
﴿صَبَرْنَا﴾	تصبرنا على العذاب ولم نظهر تألمًا.
﴿مَّحِيصٍ﴾	مهرب – مفرّ.

(٢٧١) أحمر
أسود

﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾	انتهى الأمر، وانتهى الحساب، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.
﴿وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾	الوعد الحق، الوعد الذي تحقق.
﴿سُلۡطَٰنٍ﴾	حجة - برهان - بينة - قوة.
﴿بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾	بمغيثكم - بمنقذكم - بمخلِّصكم.
﴿بِمُصۡرِخِيَّ﴾	بمغشيِّ - بمنقذي- بمخلِّصي.
﴿كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾	أنكرت عبادتكم لي واتخاذكم لي شريكًا مع الله، وطاعتكم التي أطعتموني إذ دعوتكم للكفر بالله.
﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾	بأمر ربهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: أن الخلق جميعهم خرجوا من قبورهم يوم القيامة، فكانوا في فضاء من الأرض كانوا بالبراز ظاهرين، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ [غافر: ١٦] فعندها، وقد أيقن الأتباع الضعفاء الذين رضوا بما صنعوه أئمة الضلال وتابعوهم عليه، قالوا للذين كانوا في الدنيا أهل كبر واستعلاء على الحق ورفضٍ له، قالوا لهم: إنا كنا لكم في الدنيا أتباعًا فهل أنتم اليوم دافعون عنا شيئًا من عذاب الله، فقال لهم سادتهم، وكبراؤهم الذين كانوا لهم سادة وكبراء في الدنيا، لو بيَّن الله ﷻ لنا طريقًا للخلاص من العذاب هاهنا لدللناكم عليه وأرشدناكم إليه، ولكن ليس هناك طريق للخلاص وليس هناك مفرٌّ من العذاب، فيستوي أمرنا إن أظهرنا الجزع والألم الشديد والخوف الشديد، الذي بنا وسواء علينا أخفيناه وتصبَّرنا على العذاب، فكل ذلك ليس بمجدٍ ولا بمُخفف للعذاب، وليس لنا من مفرٍّ نفرُّ إليه ولا من مهربٍ تهرب غليه.

هذا، وثمَّ قول آخر في تفسير قولهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ حاصله لو كان الله ﷻ قد وفقنا في الدنيا للإيمان لارضشدناكم إلى ذلك. والله أعلم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وظهر هؤلاء الذين كفروا به يوم القيامة من قبورهم، فصاروا بالبَراز من الأرض ﴿جَمِيعًا﴾، يعني كلهم ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾، يقول: فقال التُّبَّاع منهم للمتبوعين، وهم

الذين كانوا يستكبرون في الدنيا عن إخلاص العبادة لله واتباع الرسل الذين أرسلوا إليهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، في الدنيا.

و«التبع» جمع «تابع»، كما الغَيَب جمع «غائب».

وإنما عنوا بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، أنهم كانوا أتباعهم في الدنيا يأتمرون لما يأمرونهم به من عبادة الأوثان والكفر بالله، وينتهون عما نهوهم عنه من اتّباع رسل الله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، يعنون: فهل أنتم دافعون عنَّا اليوم من عذاب الله من شيء.

قوله: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾، يقول عز ذكره: قالت القادةُ على الكفر بالله لتُبَّاعها: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، يعنون: لو بَيَّن الله لنا شيئًا ندفع به عَذَابَه عنا اليوم ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾، لبيَّنا ذلك لكم حتى تدفعوا العذابَ عن أنفسكم، ولكنا قد جزعنا مِن العذاب، فلم ينفعنا جزعُنا منه وصَبْرُنا عليه ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ٢١﴾، يعنون: ما لهم من مَراغٍ يرُوغون عنه.

يقال منه: «حاص عن كذا»، إذا راغ عنه، «يَحِيصُ حَيْصًا، وحُيُوصًا وحَيَصَانًا».

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ٢١﴾، قال: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدركَ أهل الجنة الجنَّةَ ببكائهم وتضرُّعهم إلى الله، فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله! قال: فبكوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنَّما أدرك أهل الجنة الجنّةَ بالصبر، تعالوا نصبر! فصبروا صبرًا لم يُرَ مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ٢١﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ أي: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده

الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدا.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ أي: فهل تدفعون عنا شيئا من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٦ -٦٨].

وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ

(٢٧٥) أحمر
أسود

عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَبَرَزُوا۟ ﴾ أي: الخلائق ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ويبرزون له لا يخفى عليه منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟

فيقول ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ ﴾ أي: التابعون والمقلدون ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾ وهم: المتبوعون الذين هم قادة في الضلال: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي: في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا فأغويتمونا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ أي: ولو مثقال ذرة، ﴿قَالُوا۟ ﴾ أي: المتبوعون والرؤساء ﴿أغويناكم كما غوينا﴾ و ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ﴾ فلا يغني أحد أحدا، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ ﴾ من العذاب ﴿أَمْ صَبَرْنَا ﴾ عليه، ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ لفظه لفظ الماضي، ومعناه المستقبل، والمعنى: خرجوا من قبورهم يوم البعث، واجتمع التابع والمتبوع، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾ وهم المتبوعون. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ قال الزجاج: هو جمع تابع، يقال: تابِع وتَبَع، مِثْل: غائب وغَيَب، والمعنى:

تبعناكم فيما دعوتمونا إليه.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أي: دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾. قال القادة: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: لو أرشدنا في الدنيا لأرشدناكم، يريدون: أن الله أضلَّنا فدَعوناكم إلى الضلال، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ قال ابن زيد: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالَوْا نبكي ونضرع، فإنما أدرك أهلُ الجنة الجنةَ ببكائهم وتضرُّعهم، فَبَكَوْا وتضرعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم، قالوا: تعالَوْا نصبر، فانما أدرك أهل الجنة الجنةَ بالصبر، فصبروا صبرًا لم يُرَ مثلُه قط، فلم ينفعهم ذلك، فعندها قالوا: «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص».



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾.

ج: هذا - والله أعلم-: بيان لبعض أحوال أهل النار فلما قضي الحساب، ودخل أهل الجنة الجنة ودخل أهل النار النار، قام الشيطان خطيبًا في أهل النار قائلًا: إن الله وعدكم في الدنيا وعودًا فتحققت تلك الوعود، وعدكم على كفركم النار وهاأنتم قد دخلتموها، أما أنا فوعدتكم وغششتكم وأخبرتكم أنه لا جنة ولا نار فكنت كاذبًا في ذلك ومنَّيتكم أماني باطلة فلم تتحقق، وما كان لي في الدنيا عليكم من سلطان، أي: من حجة وبرهان فلم تكن عندي حجةٌ ولا بينة تدل على صدقي، وكذا لم يكن معي قوة أقهركم بها لاتباعي، إنما فقط دعوتكم إلى الكفر والشهوات والشبهات فأجبتموني وفكرتم واتبعتم

أهواءكم وشهواتكم فلا تتوجهوا إليَّ باللوم، ولكن لوموا أنفسكم ووبِّخوها أما الآن فما أنا بمغيثكم ولا منقذكم مما أنتم فيه، وما أنتم بمنقذيَّ ولا بمغيثيَّ إني كفرت بما صنعتموه في شأني، كفرت بجعلكم إياي شريكًا مع الله فأطعتموني وعصيتم ربكم.

إني أنكرت وجحدت ما صنعتموه من اتخاذكم إياي شريكًا مع الله، ومن عبادتكم إلهًا آخر مع الله، إن الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله لهم عذابٌ مؤلمٌ موجع.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال إبليس، ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، يعني لما أدخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ، واستقرّ بكل فريق منهم قرارهم، أن ﴿ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ﴾، أيها الأتباعُ، النارَ، ووعدتكم النُّصْرة، فأخلفتكم وعدي، ووفى الله لكم بوعده ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾، يقول: وما كان لي عليكم، فيما وعدتكم من النصرة، من حجة تثبت لي عليكم بصدق قولي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ﴾. وهذا من الاستثناء المنقطع عن الأول، كما تقول: «ما ضربْتُه إلا أنه أحمق»، ومعناه: ولكن ﴿دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾. يقول: إلا أن دعوتكم إلى طاعتي ومعصية الله، فاستجبتم لدعائي ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾، على إجابتكم إياي ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾، عليها ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾، يقول: ما أنا بمُغِيثكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾، ولا أنتم بمُغيثيَّ من عذاب الله فمُنْجِيَّ منه ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾، يقول: إني جَحدْت أن أكون شريكًا لله فيما أشركتموني فيه من عبادتكم ﴿مِن قَبۡلُۗ﴾ في الدنيا ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾، يقول: إن الكافرين بالله لهم عذاب ﴿أَلِيمٞ﴾، من الله موجع.

يقال: « أصْرَختُ الرجلَ»، إذا أغثته «إصراخًا»، و «قد صَرَخ الصَّارخ،

(٢٧٨) أحمر
أسود

يصرُخ، ويَصْرَخ، قليلة، وهو الصَّرِيخ والصُّراخ».

وأورد بإسنادٍ صحيح عن داود، عن الشعبي قال: يقوم خطيبان يوم القيامة، أحدهما عيسى، والآخر إبليس. فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول: ﴿أَلِيمٌ﴾، فتلا داود حتى بلغ: ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾، فلا أدري أتمَّ الآية أم لا؟ وأما عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقال له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فتلا حتى بلغ: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

وبإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾، ما أنا بمغيثكم، وما أنتم بمغيثي قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾، يقول: عصيت الله قبلكم.

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد قال: خطيبُ السَّوْء الصادق إبليس، أفرأيتم صادقًا لم ينفعه صِدقهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، أقهركم به ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾، قال: أطعتموني ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾، حين أطعتموني ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾، ما أنا بناصركم ولا مغيثكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾، وما أنتم بناصريّ ولا مغيثيّ لما بي ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عما خطب به إبليس لعنه الله أتباعه، بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس -لعنه الله- حينئذ خطيبا ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وغبنا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدا حقا، وخبرا صدقا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ اليوم، ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾.

قال قتادة: أي بسبب ما أشركتمون من قبل.

وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكا لله، ﷻ.

وهذا الذي قال هو الراجح كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطبا لأهل النار ومتبرئا منهم ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ على ألسنة رسله فلم تطيعوه، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم، ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ الخير ﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ أي:

لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: هذا نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعا لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ كل له قسط من العذاب.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: تبرأت من جعلكم لي شريكا مع الله فلست شريكا لله ولا تجب طاعتي، ﴿إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ خالدين فيه أبدا.

وهذا من لطف الله بعباده، أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وحزبه أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤].

واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠] فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلا على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤُزّهم إلى المعاصي أزّا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ قال المفسرون: يعني به إبليس، ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: فُرِغ منه، فدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فحينئذ يجتمع أهل النار باللَّوم على إبليس، فيقوم فيما بينهم خطيبًا ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: وعدكم كَوْن هذا اليوم فَصَدَقكم ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ أنه لا يكون ﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ الوعد ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ أي: ما أظهرت لكم حُجَّةً على ما ادَّعيت. وقال بعضهم: ما كنت أملككم فأُكرهكم ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ﴾ وهذا من الاستثناء المنقطع، والمعنى: لكن دعوتكم ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ حيث أجبتموني من غير برهان، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: بمغيثكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ أي: بمغيثيَّ. قرأ حمزة «بمُصرِخيِّ» فحرك الياء إلى الكسر، وحرَّكها الباقون إلى الفتح. قال قُطرب: هي لغة في بني يربوع، يعني: قراءة حمزة. قال اللغويون: يقال: استصرخني فلان فأصرخته، أي: استغاثني فأغثته. ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾ اليوم بإشراككم إياي في الدنيا مع الله في الطاعة، ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: المشركين.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

ج: هذا - والعلم عند الله -: بيانٌ لحال أهل الإيمان ومصيرهم بعد أن بُيِّن حال أهل الكفر والعصيان والمآل الذي صاروا إليه، يقول تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ حدائق وبساتين ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾ أي: أن دخولهم بإذن الله لهم بالدخول وإلا فأعمالهم لا تؤهلهم لدخولها.

دخولها بفضل الله، وبإنعام من الله عليهم، فأذن الله لهم بالدخول.

أما قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾، أي: تحية بعضهم لبعض بالسلام وبالكلام الطيب، وكذا تُحَيِّهم الملائكة بالسلام كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وكذا فيأتيهم سلام من الله ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول عز ذكره: وأدخل الذين صدقوا الله ورسوله، فأقرُّوا بوحدانية الله وبرسالة رُسله. وأنّ ما جاءت به من عند الله حق ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، يقول: وعملوا بطاعة الله. فانتهوا إلى أمر الله ونهيه ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، بساتين تجري من تحتها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، يقول ماكثين فيها أبدًا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، يقول: أُدخلوها بأمر الله لهم بالدخول ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾، وذلك إن شاء الله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال. وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين أبدا لا يحولون ولا يزولون، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب الطائعين فقال: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: قاموا بالدين، قولا وعملا واعتقادا ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا بحولهم وقوتهم بل بحول الله وقوته ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يحيي بعضهم بعضا بالسلام والتحية والكلام الطيب.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ
وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ
ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ
خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ
وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ
دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا
لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ
فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ
فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ
بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ
لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤ ﴾

[إبراهيم: ٢٤-٣٤]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً - أَصْلُهَا ثَابِتٌ - تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا - كُلَّ حِينِۭ - بِإِذْنِ رَبِّهَا - يَتَذَكَّرُونَ - كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ - ٱجْتُثَّتْ - قَرَارٍ - بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ - وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ - بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا - وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ - دَارَ ٱلْبَوَارِ - أَندَادًا - لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ - وَلَا خِلَٰلٌ - دَآئِبَيْنِ - لَا تُحْصُوهَآ - كَفَّارٌ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾	المراد بها لا إله إلا الله، ويلحق بها كل كلم يقرب من الله ﷻ ويرضيه.
﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾	مستقرها بجذعها في الأرض.
﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾	تعطي ثمرتها.
﴿كُلَّ حِينِۭ﴾	كل وقت معين.
﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾	بأمر الله ﷻ.
﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾	يتعظون ويعتبرون.
﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾	المراد بها كلمة الشرك، وكل كلم يباعد من الله ﷻ ويُسخطه.
﴿ٱجْتُثَّتْ﴾	استؤصلت – انتزعت.
﴿قَرَارٍ﴾	ثبات (في الأرض).
﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾	المراد به قول لا إله إلا الله، وتثبيت المؤمن عليه في الدنيا وفي القبر عند سؤال الملكين..

(٢٨٦) أحمر
أسود

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾	يصرف الله الظالمين عن طريق الحق.
﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾	غيروا شكر نعمة الله إلى جحود ونكران وكفران.
﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ﴾	أنزلوا قومهم.
﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾	دار الهلاك.
﴿أَندَادٗا﴾	أمثالًا – أشباهًا – نظراء.
﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾	ليصرفوا الناس عن طريق الله ﷻ. (وقيل: إن اللام لام العاقبة أي: أنهم صرفوا الناس بذلك عن طريق الله، هذه عاقبة اتخاذهم الأنداد).
﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾	ولا صداقة شديدة تنفع.
﴿دَآئِبَيۡنِۖ﴾	مستمرين في جريانهما.
﴿لَا تُحۡصُوهَآ﴾	لا تستطيعوا عدَّها.
﴿كَفَّارٞ﴾	جحود لنعم الله غير شاكر لها.



مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: الم تر بعين قلبك - ألم تر بفكرك وحسن نظرك وبصيرتك كيف ضرب الله مثلًا للكلمة الطيبة؟!!

لقد ضر لها مثلًا بشجرة طيبة!

أما الكلمة الطيبة فهي عند الأكثرين قول لا إله إلا الله، فهي أطيب كلمة على الإطلاق، بها ينجو العبد من النار ويَسْلَم من النار إذا علم بمقتضاها.

أما الشجرة الطيبة فهي النخلة كما أفاده حديث النبي ﷺ إذ قال: «**إنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَة مثلَهَا مِثلَ المؤمِن**»[1] ثم قال: «**هِيَ النَّخْلَة**».

فالنخلة شجرة طيبة كثيرة المنافع يكاد يُنتفع بكل شيء فيها.

فالكلمة الطيبة لا إله إلا الله شبهت بالشجرة الطيبة التي هي النخلة وكما أن النخلة أصلها ثابت في الأرض وثمرتها عالية فكذلك قول لا إله إلا الله، ثابت في قلب المؤمن، وتصعد ثمرته، وثمرة العمل المبني عليه إلى السماء فتتقبل من قائلها الأقوال والأعمال.

فينتفع صاحب الكلمة الطيبة، كلمة لا إله إلا الله بقوله وبعمله وبصالح نواياه كما أن صاحب النخلة ينتفع بثمة نخلته.

وكما أن النخلة تؤتى ثمرتها كل مدةٍ زمنية بإذن ربها فكذلك كلمة لا غله إلا الله يؤتي قائلها ثوابها كل حين بإذن الله ﷻ، فكلما عمل قائلها بمقتضاها

---

(١) البخاري (٤٦٩٨)، ومسلم (٢٨١١).

وكلما كررها صاحبها يأتيه ثوابها وثواب العمل بها وينتفع بذلك ويثبت ذلك في صحيفة عمله يلقاه يوم يلقى ربَّه ﷻ فلا يزال يرفع لقائل لا إله إلا الله عمل صالح وقول صالح كذلك بإذن الله ﷻ.

هذا، ولا يمنع أن يدخل مع كلمة لا إله إلا الله، كل كلمة ابتغي بها وجه الله ﷻ فيكون لها نفع في وقتٍ من الأوقات.

وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: يتعظون ويعتبرون.

أما الكلمة الخبيثة، وهي كلمة الشرك والعياذ بالله فضرب لها مثلٌ بشجرة خبيثة، قال عدد من المفسرين: إنها الحنظل، وقد ورد بذل حديث عن رسول الله ﷺ في سنده ضعف.

وهذه الشجرة الخبيثة ليس لها قرار ولا ثبات بل تأتيها الرياح فتعصف بها.

فالكلمة الخبثة كلمة الشرك لا يصعد لصاحبها عمل صالح إلى السماءن فأعماله مردودة عليه، وأقواله مردودة عليه، عمله حابط، وسعيه باطل في ضلال، كشجرة استؤصلت من فوق الأرض وأُلقي بها ولم يُعبأ بها ولم يهتم، فالكافر لا أصل له ولا فرع لا إيمان في قلبه ولا ثمرة لعمله ولا لقوله.

فلا يقبل مع الشرك عمل، والشجرة الخبيثة التي ليس لها قرار لا تثمر ثمرةً ينتفع بها ولا يمتنع أن يدخل مع هذه الكلمة الخبثة كلمة الشرك كل باطلٍ لا يبتغى به وجه الله كذلك.

هذا، وبنحو الذي ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، يقول تعالى

ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ألم تر، يا محمد، بعين قلبك، فتعلم كيف مثَّل الله مثَلا وشبَّه شبَهًا ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾، ويعني بالطيبة: الإيمانَ به جل ثناؤه، كشجرة طَيِّبة الثمرة، وترك ذكر «الثمرة» استغناء بمعرفة السَّامعين عن ذكرها بذكر «الشَّجرة». وقوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾، يقول عز ذكره: أصلُ هذه الشجرة ثابتٌ في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا﴾، وهو أعلاها في ﴿السَّمَاءِ﴾، يقول: مرتفع علُوًّا نحوَ السماء. وقوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، يقول: تطعم ما يؤكل منها من ثمرها كلّ حين بأمرِ ربها ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾، يقول: ويمثِّل الله الأمثال للناس، ويشبّه لهم الأشباهَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾، يقول: ليتذكروا حُجَّة الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعظوا، فينزجروا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بالكلمة الطيبة.

فقال بعضهم: عُني بها إيمانُ المؤمن.

وأورد بسندٍ ضعيف عن ابن عباس، قوله: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾، شهادةُ أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهو المؤمن ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، يقول: لا إله إلا الله، ثابتٌ في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾، يقول: يُرْفَع بها عملُ المؤمن إلى السماء.

وقال آخرون: بل عُني بها المؤمن نفسُه.

وأورد بسندٍ أشد ضعفًا عن ابن عباس قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، يعني بالشجرة الطيبة المؤمنَ، ويعني بالأصل الثابت في الأرض، وبالفرع في السماء، يكون المؤمن يعمَلُ في الأرض، ويتكلَّم، فيبلغ عمله وقولُه السَّماءَ وهو في الأرض.

قال الطبري: واختلفوا في هذه «الشجرة» التي جعلت للكلمة الطيبة مثلًا.

فقال بعضهم: هي النخلة.

وأورد بسندٍ صحيح عن أنس: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: هي النخلة.

وكذا أورد بسندٍ صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النخل.

قال الطبري: وقال آخرون: بل هي شجرة في الجنة.

واختار الطبري القول القائل أنها (النخلة) مستدلًّا بحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ من الشجر شجرةً، وهي مثل المؤمن؟ أخبروني ما هي**، فوقع الناس في شجر البَوادي، فقال رسول الله ﷺ: «**هي النخلة**».

قال الطبري رحمه الله:

واختلف أهل التأويل في معنى «الحين» الذي ذكر الله ﷻ في هذا الموضع فقال: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

فقال بعضهم: معناه: تؤتي أكلَها كلّ غَداةٍ وعَشِيَّة.

وأورد بسندٍ صحيح ابن عباس قال: «الحين» قد يكون غُدْوَة وَعشيّة.

قال الطبري: وقال آخرون: معنى ذلك: تؤتي أكلها كل ستة أشهر، من بين صِرَامها إلى حَمْلها.

وأورد بسندٍ صحيح عن طارق بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «الحين»، ستة أشهر.

وبسند صحيح عن أيوب قال: قال عكرمة: سُئلت عن رجل حَلَف أن لا يصنع كذا وكذا إلى حين؟ فقلت: إن من الحين حينًا يُدْرَك، ومن الحين حينًا لا يُدْرَك، فالحين الذي لا يدرك قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾ [ص: ٨٨]، والحين الذي يدرك، ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، قال: وذلك من حين تُصْرَم النخلة إلى حين تُطْلِعُ، وذلك ستَّة أشهر.

(٢٩١) أحمر
أسود

وقال الطبري: وقال آخرون: بل «الحين» ههنا سنة.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن شعبة قال: سألت حمادًا والحكم عن رجل حلف ألا يكلم رجلا إلى حين؟ قالا الحينُ: سنة.

وقال آخرون: بل «الحين» في هذا الموضع: شهرَان.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ من قال: عنى بالحين، في هذا الموضع، غدوةً وعشيةً، وكلَّ ساعة، لأن الله تعالى ذكره ضَرَب ما تؤتي هذه الشجرة كلَّ حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامِه مثلا ولا شك أن المؤمن يُرفع لهُ إلى الله في كلّ يوم صالحٌ من العمل والقول، لا في كل سنة، أو في كل ستة أشهر، أو في كل شهرين. فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن المَثَل لا يكون خِلافًا للمُمَثَّل به في المعنى. وإذا كان ذلك كذلك، كان بَيّنًا صحةُ ما قلنا.

فإن قال قائل: فأيُّ نخلة تؤتي في كل وقت أكلا صيفًا وشتاء؟ قيل: أما في الشتاء، فإن الطَّلْع من أكْلها، وأما في الصيف فالبَلَح والبُسْرُ والرُّطَب والتَّمرُ، وذلك كله من أكلها.

وذهب الطبري إلى أن قوله: ﴿ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا ﴾ معناه: ثمرها، وأورد ذلك بإسنادٍ صحيح بطريقيه عن قتادة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: ومثل الشِّركَ بالله، وهي «الكلمة الخبيثة»، كشجرة خبيثة.

اختلف أهل التأويل فيها أيّ شجرة هي؟

فقال أكثرهم: هي الحنظل.

وأورد بإسنادٍ عن أنس قال: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾، قال: الحنظل.

وقال آخرون: هذه الشجرة لم تُخْلَق على الأرض.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد روي عن رسول الله ﷺ بتصحيح قول من قال: هي الحنظلة، خبَرٌ. فإن صحَّ، فلا قولَ يجوز أن يقال غيرُه، وإلا فإنها شجرة بالصِّفة التي وصفها الله بها.

ذكر الخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ:

حدثنا سَوَّار بن عبد الله قال، حدثنا أبي قال، حدثنا حماد بن سلمة، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، قال: هي الحنظلة قال شعيب: وأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كانوا يقولون.

وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾، يقول: استؤْصِلت. يقال منه: اجتثثْتُ الشيء، أَجْتَثُّه اجتثاثًا: إذا استأصلتَه.

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، يقول: ما لهذه الشجرة من قَرار ولا أصل في الأرض تثْبُت عليه وتقوم. وإنما ضُرِبت هذه الشجرة التي وصَفها الله بهذه الصفة لكُفر الكافر وشركِه به مثلا. يقول: ليس لكُفر الكافر وعَمَله الذي هو معصيةُ الله في الأرض ثباتٌ، ولا له في السماء مَصْعَد، لأنه لا يَصْعَد إلى الله منه شيء.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، قال قتادة: إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم فقال: ما تقول في« الكلمة الخبيثة»، فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا، ولا

(٢٩٣) أحمر
أسود

في السماء مَصْعَدًا، إلا أن تَلْزَم عُنُق صاحبها، حتى يوافي بها القِيامة.

وأورد بسندٍ يُحسَّن عن الربيع بن أنس: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾، قال: هذا الكافر ليس له عمل في الأرض، ولا ذكرٌ في السماء ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾، قال: لا يصعد عمله إلى السماء، ولا يقوم على الأرض. فقيل: فأين تكون أعمالهم؟ قال: يَحْمِلون أوزارهم على ظُهورهم.

وأورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث[1]: ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ -أَوْ: كَالرَّجُلِ -الْمُسْلِمِ، لا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا لا صَيفًا وَلا شِتَاءً وَتُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ**». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**». فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَا، وَاللهِ لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ. قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّمَ؟ قَالَ: لَمْ أَرَكُمْ تَتَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا. قَالَ عُمَرُ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: كاملا حسنا كثيرا طيبا، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: «الشريان». رواه شعبة، عن

(١) البخاري (٤٦٩٨)، ومسلم (٢٨١١).

معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: «**أنها شجرة الحنظل**»[١].

وقوله: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾ أي: استؤصلت ﴿مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦﴾ أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

فأما الحكمة في تمثيل الإيمان بالنخلة، فمن أوجه:

أحدها: أنها شديدة الثبوت، فشبِّه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بثباتها.

والثاني: أنها شديدة الارتفاع، فشُبِّه ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروعها.

والثالث: أن ثمرتها تأتي كل حين، فشُبِّه ما يكسب المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين على اختلاف صنوفها، فالمؤمن كلما قال: لا إله إلا الله، صَعِدَتْ إلى السماءِ، ثم جاءه خيرها ومنفعتها.

والرابع: أنها أشبهُ الشجر بالإنسان، فإن كل شجرة يقطع رأسها تتشعب غصونها من جوانبها، إلا هي، إذا قُطع رأسها يبست، ولأنها لاتحمل حتى تلقَّح.

وقال أيضًا:

قوله تعالى: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾ قال ابن قتيبة: استؤصلت وقُطعت. قال الزجاج: ومعنى اجتثثت الشي في اللغة: أخذت جُثته بكمالها.

وفي قوله: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ قولان:

أحدهما: ما لها من أصل، لم تَضرِب في الأرض عِرقًا.

والثاني: ما لها من ثبات.

---

(١) ضعيف، وقد تقدمت الإشارة إليه.

ومعنى تشبيه الكافر بهذه الشجرة أنه لا يصعد للكافر عمل صالح، ولا قول طيب، ولا لقوله أصل ثابت.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ » وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وفروعها ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهي النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا﴾ منتشر ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ وهي كثيرة النفع دائما. ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا ﴾ أي: ثمرتها ﴿كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علما واعتقادا. وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة في السماء دائما يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه، فإن في ضرب الأمثال تقريبا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته وحسن تعليمه. فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها، في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفروعها فقال: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ المأكل والمطعم وهي: شجرة الحنظل ونحوها، ﴿ٱجْتُثَّتْ ﴾ هذه الشجرة ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ٢٦﴾ أي: من ثبوت فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة، تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يستضر به صاحبه، ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

(٢٩٦) أحمر
أسود

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شبه سبحانه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة. لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع. وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله. فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة. فكل عمل صالح مرض لله فهو ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال[1]: كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلا الله. كشجرة طيبة: وهو المؤمن. أصلها ثابت قول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

وقال الربيع بن أنس: كلمة طيبة: هذا مثل الإيمان. فإن الإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه. وفرعها في السماء: خشية الله. والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن. فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء. ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها. فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها. فعرف حقيقة إلهيته التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفي تلك الحقيقة

(١) سنده ضعيف.

ولوازمها عن كل ما سوى الله وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا. كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا. فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت. فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى.

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلما كثيرا طيبا، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ [فاطر: ١٠] فأخبر سبحانه، أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب. وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحا كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيا وإثباتا، ومتصفا بموجبها، قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته.

فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه. وفروعها متصلة بالسماء. وهي مخرجة ثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة. ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه. كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي[1] عن ابن عباس في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض، والفرع في السماء: بكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم، فيبلغ عمله وقوله السماء. وهو في الأرض.

(١) سنده ضعيف جدًّا.

وقال عطية العوفي[١] في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله.

وقال الربيع بن أنس: أصلها ثابت وفرعها في السماء، قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، أصلها ثابت قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وفرعها في السماء قال: ذكره في السماء.

ولا اختلاف بين القولين.

والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مشبهة به، وهو مشبه بها. وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك.

ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة. فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الرب الذي تكلم به، وحكمته سبحانه.

فمن ذلك: أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر.

فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه له. فعروقها: العلم والمعرفة، واليقين وساقها: الإخلاص، وفروعها: الأعمال وثمرتها: ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسّمت الصالح والهدى والدّلّ المرضي. فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور.

فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في

---

(١) سنده ضعيف جدًّا.

القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدى والدّل والسّمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها: علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة، التي اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها. فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس. فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، وإلا أوشك أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم**»[1].

وبالجملة: فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك.

ومن هاهنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، ومن عظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده: أن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب، ليس من جنسه. فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه كمل الغرس والزرع، واستوى وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب، وأذكى. وإن تركه أوشك أن يغلب على الغراس والزرع، ويكون الحكم له أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به، فإنه يفوته ربح كبير.

وهو لا يشعر.

(١) ضعيف.

فالمؤمن دائما سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها.

فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم. والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم.

ولعلها قطرة من بحر، بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة. وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وذكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم وبينهم في الفضل. والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله، ويختص من يشاء برحمته.

فصل

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة. فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية. فلا أصل، ولا جنّى، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت. فلا أسفلها مغدق، ولا أعلاها مونق ولا جنى لها، ولا تعلو، بل تعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبهم. وجده كذلك. فالخسران كل الخسران: الوقوف معه، والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، الذي هو كتاب الرب سبحانه.

قال الضحاك: ضرب الله مثل الكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. يقول: ليس لها أصل ولا فرع. وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة.

كذلك الكافر لا يعمل خيرا، ولا يقوله، ولا يجعل له فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ومثل كلمة خبيثة: وهي الشرك، كشجرة خبيثة:

يعني الكافر. اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان. ولا يقبل الله مع الشرك عملا، فلا يقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرا، ولا في السماء مصعدا، إلا أن تلزم عنق صاحبها، حتى يوافي بها القيامة.

وقوله «اجتثت» أي استؤصلت من فوق الأرض.

ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب، وأصحاب الكلم الخبيث. فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين، وهم المشركون عن القول الثابت. فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: يثبت الله ﷻ أهل الإيمان على قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلى الإسلام عمومًا يثبتهم على ذلك في دنياهم حتى الممات، وعند الممات وكذا يثبتهم عليها في الآخرة.

وأكثر أهل العلم على أن المراد بالتثبيت في الآخرة تثبيتهم بعد الممات في قبورهم، إذا سئلوا في قبورهم: ما ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيلقنهم الله حجتهم ويوفقهم لقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن ديننا هو الإسلام، وقد جاءت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ، وسيأتي ذكرها إن شاء الله هذا، ومن العلماء من قال: إن تثبيتهم بها في الآخرة حين يلقون ربهم ﷻ، يلقونه وهم يشهدون له بالوحدانية كما كانوا يشهدون بذلك في الدنيا، ويشهدون لرسوله بالرسالة، كما كانوا يشهدون في الدنيا.

أما قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ويصرف الله أهل الشرك، عن قول لا إله إلا الله في دنياهم، وفي قبورهم فيعرضون في الدنيا عن قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكذا في قبورهم فإنهم إذا سألهم الملكان عن دينها وعن ربها وعن نبيها، فإنهم لا يدرون الجواب بل ويصرفون عنه فيقول قائلهم: هاها لا أدري فيضربون حينئذٍ بمطارق من حديد على رؤوسهم. كما جاءت بذلك الأحاديث.

فإن سأل سائل لماذا صُرفوا عن الحق ولماذا أضلهم الله؟ فجواب ذلك: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ فهو أعلم بعباده ﷻ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، يحقق الله أعمالَهم وإيمانهم ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾، يقول: بالقول الحق، وهو فيما قيل: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله.

وأما قوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، فإن أهل التأويل اختلفُوا فيه، فقال بعضهم: عنى بذلك أن اللهَ يثَبتهم في قبورهم قبلَ قيام الساعة.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن البَراء بن عازب، في قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، قال: التثبيت في الحياة الدنيا إذا أتاه المَلكان في القبر فقالا له: مَن ربك؟ فقال: ربّي الله. فقالا له: ما دينك؟ قال: دينيَ الإسلام. فقالا له: مَن نبيك؟ قال: نبيِّي محمدٌ ﷺ فذلك التثبيت في الحياة الدنيا.

وبسندٍ صحيح عن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ قال: إن المسلم إذا سئل في القبر فيشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. قال: فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدثني الحسين بن سَلَمة بن أبي كَبْشة، ومحمد بن معمر البَحْراني واللفظ لحديث ابن أبي كبشة قالا حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو قال، حدثنا عبَّاد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فقال: يا أيها الناس، إن هذه الأمة تبتلى في قُبورها، فإذا الإنسان دُفِن وتفرَّق عنه أصحابه، جاءه ملك بيده مِطْراقٌ فأقعده فقال: ما تقولُ في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه ورسوله. فيقول له: صدقْتَ. فيفتح له بابٌ إلى

النار فيقال: هذا منزلك لو كفرتَ بربّك، فأما إذْ آمنت به، فإن الله أبدَلك به هذا. ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة، فيريد أن ينْهَضَ له، فيقال له: اسكُنْ. ثم يُفْسَح له في قبره. وأما الكافِر أو المنافق فيقال له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما أدري! فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَدَرّيتَ ولا اهتديتَ! ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة فيقال له: هذا كان منزلك لو آمنت بربك، فأما إذْ كفرت، فإن الله أبدَلك هذا. ثم يفتح له بابٌ إلى النار، ثم يَقْمَعُه المَلَكُ بالمطراق قَمْعَةً يسمعه خَلْقُ الله كُلهم إلا الثقلين. قال، بعضُ أصحابه، يا رسولَ الله، ما مِنَّا أحدٌ يقوم على رأسه مَلَكٌ بيده مِطْراق إلا هِيلَ عند ذلك! فقال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧ ﴾.

وقال آخرون: معنى ذلك: يثبت الله الذين آمنوا بالإيمان في الحياة الدنيا، وهو «القول الثابت» «وفي الآخرة»، المسألةُ في القبر.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾، أما « الحياة الدنيا» فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، وقوله: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾، أي في القبر.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك ما ثبتَ به الخبر عن رسول الله ﷺ في ذلك، وهو أنّ معناه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ بمثل الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله ﷺ.

وأما قوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ ﴾، فإنه يعني، أن الله لا يوفِّق المنافق والكافر في الحياة الدنيا وفي الآخرة عند المُسَاءَلة في القبر، لما هدي له من

(٣٠٥) أحمر
أسود

الإيمان المؤمن بالله ورسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾، يعني تعالى ذكره بذلك: وبيدِ الله الهداية والإضلال، فلا تنكروا، أيها الناس، قدرتَه، ولا اهتداءَ من كان منكم ضالا ولا ضلالَ من كان منكم مهتديًا، فإنّ بيده تصريفَ خلقه وتقليبَ قلوبهم، يفعل فيهم ما يشاء.

وأورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ، شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾»[1].

وما أخرجه أحمد بسندٍ صحيح[2] من حديث عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلَحَّدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكت بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وحَنُوط مِنْ حَنُوط الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ. ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ**». قَالَ: «**فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاء فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحنُوط، وَيَخْرُجَ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى**

---

(١) البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٧٨١).

(٢) أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٣٠٦) أحمر
أسود

وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ -يَعْنِي بِهَا- على ملأ من الملائكة إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٌ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عليين، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى».

قَالَ: «فتُعَاد رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعث فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ -قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِها وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ. وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ. رَبِّ، أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحِ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ. ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَط مِنَ اللهِ وغَضَبٍ». قَالَ: «فتَفرق فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّود مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ. وَيَخْرُجَ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا

(٣٠٧) أحمر
أسود

الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٌ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللهُ: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحَ رُوحُهُ طَرْحًا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحَجّ: ٣١].

«فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ، لَا تُقِمِ السَّاعَةَ».

وأورد ابن كثير طائفة كثيرة جدًّا من الأحاديث في عذاب القبر ونعيمه.

وأورد كذلك ما أخرجه أبو داود وغيره بسندٍ حسن[(١)] من حديث عُثْمَانَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الرَّجُلِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»، انْفَرَدَ بِهِ أبو دَاوُدَ.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يثبتهم على الحق بالقول

---

(١) أبو داود (٣٢٢١).

(٣٠٨) أحمر
أسود

الثابت، وهو شهادة أن لا إله إلا الله. قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن الحياة الدنيا: زمان الحياة على وجه الأرض، والآخرةُ: زمان المساءلة في القبر، وإلى هذا المعنى ذهب البراء بن عازب، وفيه أحاديث تعضده.

والثاني: أن الحياة الدنيا: زمن السؤال في القبر، والآخرةُ: السؤال في القيامة، وإلى هذا المعنى ذهب طاووس، وقتادة قال المفسرون: هذه الآية وردت في فتنة القبر، وسؤال الملَكين، وتلقين الله تعالى للمؤمنين كلمة الحق عند السؤال، وتثبيته إياه على الحق. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ يعني: المشركين، يضلهم عن هذه الكلمة، ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من هداية المؤمن وإضلال الكافر.

قال ابن القيم رحمه الله (التفسير القيم):

قول الله تعالى ذكره:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾.

تحت هذه الآية كنز عظيم، من وفّق لمعرفته وحسن استخراجه واقتنائه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم.

وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين. فإن لم يثبته الله، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما. وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢] وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «**وهو يسألهم ويثبتهم**» وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: ١٢٠].

والخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت.

ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أمر به العبد.

فبهما يثبت الله عبده. فكل من كان أثبت قولا وأحسن فعلا كان أعظم تثبيتا قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦﴾ [النساء: ٦٦].

فأثبت الناس قلبا: أثبتهم قولا.

والقول الثابت: هو القول الحق الصدق. وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له.

وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها. فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة. ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا، والكاذب من أبغض الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونا، وأقلهم ثباتا. وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاخبار وشجاعته ومهابته.

ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك. ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به؟.

فقال: والله ما فهمت منه شيئا إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست صولة مبطل.

فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول

الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم، ويوم معادهم. كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ: «إن هذه الآية نزلت في عذاب القبر».



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: ألم تنظر بعينيك وبقلبك إلى مصير هؤلاء الذين بدلوا شكر نعمة الله ﷻ بالجحود والنكران والكفران.

ألم تر إلى هؤلاء القرشيين الذين كانوا آمنين مطمئنين في رغدٍ من العيش يأيت بلدتهم رزقها من كل مكان ثم منَّ الله عليهم بنعمة من أعظم النعم وأجلُّ النعم، وهي بعثة رسول الله ﷺ فيهم ومنهم وبلسانهم فكان من اللائق أن يقدموا لكل ذلك شكرًا، ولكنهم بدلوا هذا الشكر بكفر بالله ﷻ وتكذيب لرسول الله ﷺ وتعذيب من آمنوا به، وطرده وطردهم من البلاد فتسببوا لأنفسهم بذلك في عقاب الله ﷻ، وذلك أنهم لم يكتفوا بالذي صنعوه فخرجوا بقومهم من ديارهم بطرًا ورياء وسمعةً، خرجوا إلى بدر للقاء رسول الله ﷺ وقتاله ولتسمع بهم العرب، فأنزلوا قومهم الذين خرجوا معهم والذين تابعوهم على كفرهم أسوار المنازل أنزلوهم دار الهلاك، الذي ليس بعده هلاك فقتل من قتل منهم ببدر، فآل أمره إلى جهنم بعد قتله، آل أمره إلى جهنم يستقر فيها أبد الآبدين!!

آل أمره إلى جهنم يُشوى بحرها ولهيبها فبئس المستقر وبئس المنزل، فنزل هؤلاء الذي نزلوه بعد هلاكهم، لقد جعلوا في دنياهم لله ﷻ أمثالًا من

حجارة تعبد من دونه وتُسال وتُرجى فيسجدون لها ويتضرعون حولها، فأضلوا الناس عن طريق الله ﷻ وصرفوهم عن عبادته إلى عبادة من سواه، فقل لهؤلاء تمتعوا بدنياكم تلك الدنيا الفانية الزائلة، تمتعوا بدنياكم تلك الدنيا الفانية الزائلة، تمتعوا فيها كيف شئتم؟ فإنها لكم مهما كان فيها من نكدٍ لكم ومهما كان فيها من متاع أيضًا، جنةٌ لكم بالنسبة إلى ما أُعد لكم من سوء العذاب في الآخرة.

قل لهم: تمتعوا فإن مصيركم الذي تصيرون إليه ومنتهى أمركم إلى النار.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ألم تنظر يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ يقول: غيروا ما أنعم الله به عليهم من نعمه، فجعلوها كُفرا به، وكان تبديلهم نعمة الله كفرا في نبيّ الله محمد ﷺ، أنعم الله به على قريش، فأخرجه منهم، وابتعثه فيهم رسولا رحمة لهم، ونعمة منه عليهم، فكفروا به، وكذّبوه، فبدّلوا نعمة الله عليهم به كفرا. وقوله: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ يقول: وأنزلوا قومهم من مُشركي قريش دار البوار، وهي دار الهلاك، يقال منه: بار الشيء يبور بورا: إذا هلك وبطل؛ ومنه قول ابن الزِّبعرى، وقد قيل إنه لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

يا رَسُولَ المليكِ إنَّ لِساني ... رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

ثم ترجم عن دار البوار، وما هي؟ فقيل ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ يقول: وبئس المستقرّ هي جهنم لمن صلاها. وقيل: إن الذين بدّلوا نعمة الله كفرا: بنو أمية، وبنو مخزوم.

وأورد الطبري بأسانيد تصح عن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هم كفار قريش، يعني في قوله:

﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ۝٢٨﴾ جهنم.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: هم كفار قريش.

وبإسنادٍ صحيح عن سعيد بن جبير قال: قتلى يوم بدر.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ؟ كَقَوْلِهِ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٤] ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٤٣] الْبَوَارُ: الْهَلَاكُ، بَارَ يَبُورُ بَورًا، وَ ﴿قَوۡمًا بُورًا ﴾ [الْفُرْقَانِ:١٨، الْفَتْحِ: ١٢] هَالِكِينَ.

وأورد البخاري بإسناده عن ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا ﴾ قَالَ: هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ.

وقال العوفي[١]، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمدا ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار.

وأورد ابن كثير[٢] أيضًا بإسناد صحيح عن عليٍّ قال: هم كفار قريش يوم بدر.

وقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ ﴾ أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك.

ثم قال تعالى مهددا لهم ومتوعدا لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾.

(١) العوفي عن ابن عباس بسند ضعيف.

(٢) وعزاه لابن أبي حاتم.

أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٧٠].

وقال الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: وجعل هؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله كفرا لربهم أندادا، وهي جماع نِدّ.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ والأنداد: الشركاء.

قال الطبري:

وقوله: ﴿لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ﴾ اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامَّة قرّاء الكوفيين ﴿لِّيُضِلُّوا﴾ بمعنى: كي يضلوا الناس عن سبيل الله بما فعلوا من ذلك. وقرأته عامَّة قرّاء أهل البصرة: «لِيَضَلُّوا» بمعنى: كي يضلّ جاعلو الأنداد لله عن سبيل الله. وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهم: تمتعوا في الحياة الدنيا وعيدا من الله لهم، لا إباحَة لهم التمتع بها، ولا أمرا على وجه العبادة، ولكن توبيخا وتهددا ووعيدا، وقد بَيَّن ذلك بقوله ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ يقول: استمتعوا في الحياة الدنيا، فإنها سريعة الزوال عنكم، وإلى النار تصيرون عن قريب، فتعلمون هنالك غبّ تمتعكم في الدنيا بمعاصي الله وكفركم فيها به.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ أي: في حياتكم الدنيا، وهذا وعيد لهم. قال ابن

عباس: لو كان الكافر مريضًا لا ينام، جائعًا لا يأكل ولا يشرب، لكان هذا نعيمًا يتمتع به بالقياس إلى ما يصير إليه من العذاب، ولو كان المؤمن في أنعم عيش، لكان بؤسًا عندما يصير إليه من نعيم الآخرة.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى - مبينا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم.

﴿و﴾ صدهم غيرهم حتى ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ وهي النار حيث تسببوا لإضلالهم، فصاروا وبالا على قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم « بدر » ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أي: نظراء وشركاء ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودعوهم إلى عبادتها، ﴿قُلْ﴾ لهم متوعدا: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ بكفركم وضلالكم قليلا فليس ذلك بنافعكم ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير.



الحث على إقامة
الصلاة والإنفاق في الطاعات سرًّا وعلانيةً

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: قل يا رسول الله لعبادي، قل لمن شرفهم الله ﷻ بنسبتهم إليه، قل لعبادي هؤلاء الذين آمنوا بالله وصدقوك فيما أخبرتهم به عن الله ﷻ، قل لهم يحافظوا على الصلوات المكتوبات فيؤدونها كما أمروا وفي الوقت الذي أمروا أن يصلوها فيه ويداوموا على ذلك، ويتبعوا الفرض بالنفل كذلك، وكذا قل لهم يؤدوا الزكاة التي افترضها عليهم في أموالهم وفي زروعهم وفي مواشيهم وغير ذلك على النحو الذي أمرتهم به في كتابي وعلى لسان رسولي، ويتبعوا الفرض بالنفل فيتطوعوا بالصدقات بعد أدائهم الفرائض، قل لهم ينفقوا مما رزقناهم فالرزق من الله، قل لهم ينفقوا سرًّا حيث يحتاج المقام إلى إسرارٍ بالإنفاق، وعلانية حيث يستدعي الأمر على الإعلان، قل لهم: يصلوا ويتصدقوا من قبل أن يأتي يوم القيامة ذلكم اليوم الذي لا بيع فيه، لا يقبل من أحدٍ أي فداء يفتدي به مهما افتدى، ولو كان له ملءُ الأرض ذهبًا فقدمه فديةً فلن يقبل منه، وكذلك لن تنفع في هذا اليوم صداقات، لن تنفع أهل الكفر علاقاتهم التي كانت بينهم في الدنيا ولن ينتفع أحدٌ منهم بصديقه الحميم الذي كان له في الدنيا صديقًا حميمًا.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ﴿ قُل ﴾ يا محمد ﴿لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بك، وصدّقوا أن ما جئتهم به من عندي ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يقول: قل لهم: فليقيموا

الصلوات الخمس المفروضة عليهم بحدودها، ولينفقوا مما رزقناهم، فخوّلناهم من فضلنا سرّا وعلانية، فليؤدّوا ما أوجبت عليهم من الحقوق فيها سرّا وإعلانا ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ يقول: لا يقبل فيه فدية وعوض من نفس وجب عليها عقاب الله بما كان منها من معصية ربها في الدنيا، فيقبل منها الفدية، وتترك فلا تعاقب. فسمى الله جل ثناؤه الفدية عوضا، إذ كان أخذ عوض من معتاض منه. وقوله: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ يقول: وليس، هناك مخالة خليل، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته، بل هنالك العدل والقسط.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرا العباد بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب.

والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها.

وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر، أي: في الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ أي: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [الحديد: ١٥].

وأورد ابن كثير قول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ ثم قال:

والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافرا، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا

شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ظاهرا وباطنا ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ ﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلا أو كثيرا ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ أي: لا ينفع فيه شيء ولا سبيل إلى استدراك ما فات لا بمعاوضة بيع وشراء ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله، ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾، أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بالمبادرة إلى الطاعات كالصلوات والصدقات من قبل إتيان يوم القيامة الذي هو اليوم الذي لا بيع فيه ولا مخالة بين خليلين فينتفع أحدهما بخلة الآخر، فلا يمكن أحداً أن تباع له نفسه فيفديها، ولا خليل ينفع خليله يومئذ، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾ [الحديد: ١٥]، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ

شَيْئًا ﴾ الآية [البقرة: ٤٨]، ونحو ذلك من الآيات، والخلال في هذه الآية، قبل: جمع خلة كقلة وقلال، والخلة: المصادقة، وقيل: هو مصدر خاله على وزن فاعل مخالة وخلالاً، ومعلوم أن فاعل ينقاس مصدرها على المفاعلة والفعال، وهذا هو الظاهر، ومنه قول امرىء القيس:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست بمقلي الخلال ولا قال

أي ليست بمكروه المخالة.



(٣١٩) أحمر
أسود

التذكير
بنعم الله ﷻ وآلائه وقدرته

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

ج: يُذكر الله سبحانه وتعالى خلقه بنعمه عليهم وبقدرته فهو الذي خلق السموات بغير عمدٍ، وزينها به من نجوم وكواكب، وجعل فيها ما جعل من شمس وقمر وغير ذلك، وجعلها سقفًا محفوظًا بما فيها من الآيات والدلالات على وحدانيته ﷻ، وكذا خلق الأرض وجعلها مهاد، وجعل فيها فجاجًا سبلًا لعلهم يهتدون، وأرساها بالجبال الرواسي الشامخات كي لا تميد بمن عليها من الخلق، وأجرى فيها الأنهار وجعل فيها البحار، وأنبت فيها الشجر والنبات والثمر، وبث فيها من كل دابة، وجعل فيها من الآيات ما جعل وأنزل من السماء ماءً (وهو المطر والغيث) فأخرج بسببه من الأرض نباتها وثمارها رزقًا لكم، وكذا سخر لكم السفن العظيمة الهائلة تجري في البحار ماخرة، وأودع الله في البحار ما أودع كي تحمل هذه السفن، وسخر لها الرياح لإجرائها في البحار، كل ذلك بأمر الله وإذنه، وإلا فلو شاء الله ما تحركت كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٣٣].

وكذا فإنه جلَّ ذكره أجرى الأنهار وسخرها لكم بما فيه من عذب المياه سقيًا لزرعكم، وشرابًا لكم ولمواشيكم، وإحياءً لأرضكم.

وكذا فإنه عزَّ جاهه وجل ذِكره سخر لكم الشمس والقمر يتعاقبان ولا

يفتران ولا يتوقفان إلا إذا شاء الله فهذا يعقب تلك، وتلك معقبة له في حركة مستمرة وتعاقب سخرها لكم الشمس لتنتفعوا بها في حياتكم وفي زروعكم وفي رؤيتكم وإبصاركم في النهار، وبكل صور الانتفاع المتأتية من وراء الشمس وكي تستدلوا بها أيضًا على قدرة خالقكم ﷻ وعلى وحدانيته فهو الذي يأتي بها من المشرق، ولا تُشرق إلا بإذنه، وكذا القمر سخره الله لكم فسلطانه في الليل لاستقرار الناس وسكنهم ليلًا، وللانتفاع بكل ما ينتفع به من القمر، وكذا للاستدلال به على قدرة الله ووحدانيته، وكذا فإنه ﷻ سخر لكم الليل لتسكنوا فيه، وجعل نومكم سباتًا أي: راحة، وسخر لكم النهار كي تبتغوا من فضله بسعيكم على معاشكم وتنقلكم في البلاد، وأعطاكم الله ﷻ ووفَّر لكم كل ما به تقوم حياتكم وما يقوم به معاشكم وكذا أعطاكم من جنس كل ما سألتموه، ومن الذي لم تسألوه أيضًا، فإذا دعوتموه أجابكم وإذا سألتموه أعطاكم يعطيكم ما ينفعكم ويصرف عنكم ما دمتم مؤمنين به ما يضركم، فيعطيكم الذي يشاء ويمنع عنكم الذي يُريد أن يمنع، وإن تعدوا نعم الله التي أنعم بها عليكم لا تحصوها، لا تستطيعوا عدَّها ولا إحصاءها ومهما قدمتم لها من شكر فلن تفوا بحقها، فشكركم لله عليها يحتاج إلى شكرٍ، ذلك لأن الذي وفقكم لشكره هو الله ﷻ، فكلما شركتم فشكركم نعمة من الله عليكم تحتاج إلى شكر آخر، فإذا قلتم الحمد لله، فالذي وفقكم لها هو الله، فقولكم لها يحتاج إلى شكر وهكذا، ولكن الإنسان لظلوم لنفسه كثير الظلم، ظلوم لنفسه إذ ينزلها منازل سيئة بعصيانه وبشركِهِ، ظلوم لنفسه ولغيره كذلك كفار جحود لنعم الله ﷻ عيه، لا يقدم شكرًا إلا القليل.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الله الذي أنشأ السماوات والأرض من غير شيء أيها الناس، وأنزل من السماء غيثا أحيا به الشجر والزرع، فأثمرت رزقا لكم تأكلونه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ وهي السفن ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ لكم تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ ماؤُها شراب لكم، يقول تعالى ذكره: الذي يستحقّ عليكم العبادة وإخلاص الطاعة له، من هذه صفته، لا من لا يقدر على ضرّ ولا نفع لنفسه ولا لغيره من أوثانكم أيها المشركون وآلهتكم.

يقول تعالى ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وفعل الأفعال التي وصف ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ يتعاقبان عليكم أيها الناس بالليل والنهار، لصلاح أنفسكم ومعاشكم ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ في اختلافهما عليكم. وقيل: معناه: أنهما دائبان في طاعة الله.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ يختلفان عليكم باعتقاب، إذا ذهب هذا جاء هذا بمنافعكم وصلاح أسبابكم، فهذا لكم لتصرّفكم فيه لمعاشكم، وهذا لكم للسكن تسكنون فيه، ورحمة منه بكم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: وأعطاكم مع إنعامه عليكم بما أنعم به عليكم من تسخير هذه الأشياء التي سخرها لكم والرزق الذي رزقكم من نبات الأرض وغروسها من كل شيء سألتموه، ورغبتم إليه شيئا، وحذف الشيء الثاني اكتفاء بما التي أضيفت إليها كلّ، وإنما جاز حذفه، لأن من تُبعِّض ما بعدها، فكفت بدلالتها على التبعيض من المفعول، فلذلك جاز حذفه، ومثله قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] يعني به: وأوتيت من كل شيء في

(٣٢٢) أحمر
أسود

زمانها شيئا، وقد قيل: إن ذلك إنما قيل على التكثير، نحو قول القائل: فلان يعلم كل شيء، وأتاه كل الناس، وهو يعني بعضهم، وكذلك قوله ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وقيل أيضا: إنه ليس شيء إلا وقد سأله بعض الناس، فقيل ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي قد أتى بعضكم منه شيئا، وأتى آخر شيئا مما قد سأله. وهذا قول بعض نحويّي أهل البصرة.

وكان بعض نحويِّي أهل الكوفة يقول: معناه: وآتاكم من كلّ ما سألتموه لو سألتموه، كأنه قيل: وآتاكم من كلّ سؤلكم، وقال: ألا ترى أنك تقول للرجل، لم يسألك شيئا: والله لأعطينك سُؤْلك ما بلغت مسألتك، وإن لم يسأل.

فأما أهل التأويل، فإنهم اختلفوا في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: وآتاكم من كلّ ما رغبتم إليه فيه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وآتاكم من كل الذي سألتموه والذي لم تسألوه.

ويقول تعالى ذكره: وإن تعدّوا أيها الناس نعمة الله التي أنعمها عليكم لا تطيقوا إحصاء عددها والقيام بشكرها إلا بعون الله لكم عليها. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ يقول: إن الإنسان الذي بدل نعمة الله كفرا لظلوم: يقول: لشاكر غير من أنعم عليه، فهو بذلك من فعله واضع الشكر في غير موضعه، وذلك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم واستحق عليه إخلاص العبادة له، فعبد غيره وجعل له أندادا ليضلّ عن سبيله، وذلك هو ظلمه، وقوله: ﴿كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ يقول: هو جحود نعمة الله التي أنعم بها عليه لصرفه العبادة إلى غير من أنعم عليه، وتركه طاعة من أنعم عليه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السماوات سقفا محفوظا والأرض فراشا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ أي: يسيران لا يقران ليلا ولا نهارا، ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ ﴾ يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم.

وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقرأ بعضهم: «وأتاكم من كل ما سألتموه».

وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل

من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وامسوا توابين.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ، لَكَ الْحَمْدُ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مودَع، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ ربَّنا**»(١).

وَقَدْ رُوِيَ فِي الْأَثَرِ(٢): أَنَّ داود، عليه السلام ، قال: يارب، كَيْفَ أَشْكُرُكَ وَشُكْرِي لَكَ نِعْمَةٌ مِنْكَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: الْآنَ شَكَرْتَنِي يَا دَاوُدُ، أَيْ: حِينَ اعْتَرَفْتَ بِالتَّقْصِيرِ عَنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ.

وقال الشافعي، رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة توجب على مؤدى ماضي نعمه بأدائها، نعمة حادثة توجب عليه شكره بها.

وقال القائل في ذلك:

لَوْ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنِّي لهَا لُغَةٌ ... تُثْني عَلَيكَ بِمَا أولَيتَ مِنْ حَسنِ

لَكَانَ مَا زَادَ شُكري إِذْ شَكَرت بِهِ ... إليكَ أبلغَ فِي الإحسَانِ والمننِ

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وفيه خمسة أقوال:

أحدها: أن المعنى: من كل الذي سألتموه، قاله الحسن، وعكرمة.

والثاني: من كل ما سألتموه، لو سألتوه، قاله الفراء.

والثالث: وآتاكم من كل شيء سألتموه شيئًا، فأضمر الشيء، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل ٢٣] أي، من كل شيء في زمانها شيئًا، قاله الأخفش.

---

(١) البخاري (٥٤٥٨).

(٢) وهذا مما لا سند له تقوم به الحجة.

والرابع: من كل ما سألتموه، وما لم تسألوه، لأنكم لم تسألوا شمسًا ولا قمرًا ولا كثيرًا من النِّعم التي ابتدأ كم بها، فاكتُفي بالأول من الثاني، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل ٨١]، قاله ابن الأنباري.

والخامس: على قراءة ابن مسعود، وأبي رزين، والحسن، وعكرمة، وقتادة، وأبان عن عاصم، وأبي حاتم عن يعقوب: «من كلٍّ ما» بالتنوين من غير إضافة، فالمعنى: آتاكم من كُلٍّ ما لم تسألوه، قاله قتادة، والضحاك.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنعامه ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ لا تُطيقوا الإتيان على جميعها بالعَدِّ لكثرتها. ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ قال ابن عباس: يريد أبا جهل. وقال الزجاج: الإنسان اسم للجنس يُقصَد به الكافر خاصة.

قوله تعالى: ﴿لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ الظَّلوم هاهنا: الشاكرُ غيرَ مَن أنعم عليه، والكَفَّار: الجحود لنِعم الله تعالى.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى: أنه وحده ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ على اتساعهما وعظمهما، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب، ﴿فَأَخۡرَجَ﴾ بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المختلفة الأنواع ﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ ورزقا لأنعامكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي: السفن والمراكب.

﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ﴾ فهو الذي يسر لكم صنعتها وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجاراتكم، وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ﴾ لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم،

وثماركم، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ مبصرا لتبتغوا من فضله.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ فضلا عن قيامكم بشكرها ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصي مقصر في حقوق ربه كفَّار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره، وذكره ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه، آناء الليل والنهار، كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات.



(٣٢٧) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ
ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ
عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي
زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا
نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ
﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

[إبراهيم: ٣٥-٤١]

(٣٢٨) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ءَامِنًا - وَٱجۡنُبۡنِي - ٱلۡأَصۡنَامَ - أَضۡلَلۡنَ - فَإِنَّهُۥ مِنِّي - بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ - أَفۡـِٔدَةً - تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ - عَلَى ٱلۡكِبَرِ - وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ - يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ءَامِنًا﴾	سالمًا من السوء والمكروه ومحفوظًا من الشر - مؤمنا لا يُعتدى على أهله.
﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾	باعدني - اصرفني.
﴿ٱلۡأَصۡنَامَ﴾	الأوثان التي تعبد من دون الله (حجارة وأشجار يعبدونها) من دون الله.
﴿أَضۡلَلۡنَ﴾	تسببن في انصراف الناس عن الحق.
﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾	فإنه على سنتي وطريقتي.
﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾	بواد ليس فيه زرع ولا ثمر.
﴿أَفۡـِٔدَةً﴾	قلوبًا.
﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾	تميل إليهم وتذهب إليهم - تحبهم وتوقرهم.
﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾	وأنا كبير السن.
﴿وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾	تقبل عبادتي - استجب دعائي.
﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾	يوم القيامة الذي فيه حساب العباد.



على الشخص مهما كان
أن يسأل الله الثبات فالقلوب يقلبها الرحمن ﷻ

س: في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ ما يدل على أن الشخص لا يأمن على نفسه وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن إبراهيم عليه السلام، وهو إمام في التوحيد سأل ربَّه أن يصرف عنه وعن بنيِّه عبادة الأصنامن فإنه عليه السلام علم أن الذي يصرف عنه عبادة الأصنام هو الله وأن الذي يثبته هو الله.

وقد أشار عليه السلام إلى هذا المعنى، إذ قال في محاججته لقومه: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠] أي: لو شاء الله لي أن أخشى أصنامكم لخشيتها، وهكذا قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي في ملتكم ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

ولذا كان من دعاء رسول الله ﷺ: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك**»، وكان من دعاء أولي الألباب: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

وكانت يمين النبي ﷺ: «**لا ومقلب القلوب**»[١].



س: ما توجيه قول الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ وقد عُلم أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.؟

ج: توجيه ذلك من وجهين:

أحدهما: أن يقال ومن عصاني فإنك يا رب قادر على هدايته، ومن ثمَّ

---

(١) البخاري (٦٦٢٨)، وله ألفاظ أُخر عند البخاري (٧/ ٦٦) وغيره، منها كثيرًا ما كان النبي ﷺ يحلف: «**لا ومقلب القلوب**».

مغفرته ورحمته تغفر له وترحمه.

الثاني: أنه قال ذلك قبل أن يعلم أن الشرك بالله لا يغفر. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ...﴾ [التوبة: ١١٤]. والله أعلم.



ذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: واذكر يا رسول الله قول إبراهيم عليه السلام إذ دعا ربَّه عز وجل قائلًا: رب اجعل هذا البلدن - ويريد: مكة والحرم - آمنًا من السوء والمكروه وآمنًا بما يقتضيه معنى الأمن، ومعنى كونها حرامًا فمن ذلك كونها لا يعضد شوكها ولا ينفر صيدها ولا يختلى خلاها ولا تلتقط لقطتها..

ثم إن إبراهيم عليه السلام يدعو ربَّه قائلًا، وباعدني يا رب عن عبادة الأصنام أنا وأبنائي ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ ﴾ أي: الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ بسببهن ضلَّ كثيرٌ من الناس عن طريق الحق، فمن تبعني يا رب، فآمن بك ووحدك وأخلص لك فإنه مني مستنٌّ بسنتي عامل بطريقتي، ومن عصاني فإنك قادر على هدايته ومن ثمَّ على المغفرة له ورحمته.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ

ءَامِنًا ﴾ يعني الحَرَم، بلدا آمنا أهله وسكانه ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ يقال منه: جَنَبْته الشرّ فأنا أَجْنُبُه جَنْبا وجَنَّبته الشر، فأنا أجَنِّبه تجنيبا، وأجنبته ذلك فأنا أُجْنِبه إجنابا.

ثم قال:

ومعنى ذلك: أبعدْني وبنيّ من عبادة الأصنام، والأصنام: جمع صنم، والصنم: هو التمثال المصوّر.

وقوله: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يقول: يا ربّ إن الأصنام أضللن: يقول: أزلن كثيرا من الناس عن طريق الهُدى وسبيل الحق حتى عبدوهنّ، وكفروا بك.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يعني الأوثان.

وقوله ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ يقول: فمن تبعني على ما أنا عليه من الإيمان بك وإخلاص العبادة لك وفراق عبادة الأوثان، فإنه مني: يقول: فإنه مستنّ بسنَّتِي، وعامل بمثل عملي ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ يقول: ومن خالف أمري فلم يقبل مني ما دعوته إليه، وأشرك بك، فإنه غفور لذنوب المذنبين الخَطائين بفضلك، ورحيم بعبادك تعفو عمن تشاء منهم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ اسمعوا إلى قول خليل الله إبراهيم لا والله ما كانوا طَعَّانين ولا لعَّانين، وكان يقال: إنّ من أشرّ عباد الله كلّ طعان لعان، قال نبيّ الله ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

وأورد الطبري بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾، وقال عيسى ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾. فرفع يديه ثم قال: اللَّهُمَّ أُمَّتِي، اللَّهُمَّ أُمَّتِي، وبكى، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فاسأله ما يُبكيه؟ فأتاه جبرئيل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، قال: فقال الله: يا جبرئيل اذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يذكر تعالى في هذا المقام محتجا على مشركي العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه، آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولا.

وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته. ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه بريئ ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم كما قال عيسى،

(١) وأخرجه مسلم بنحوه (٣٤٦).

(٣٣٣) أحمر
أسود

عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾. [المائدة: ١١٨]، وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز وقوع ذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ يعني مكة وقد مضى في «البقرة». ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ أي اجعلني جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله: «اجنبني» بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما. وقيل: هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له. وقرأ الجحدري وعيسى «وأجنبني» بقطع الألف والمعنى واحد، يقال: جنبت ذلك الأمر، وأجنبته وجنبته إياه فتجانبه واجتنبه أي تركه. وكان إبراهيم التيمي يقول في قصصه: من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ كما عبدها أبي وقومي. قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لما كانت سببا للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازا، فإن الأصنام جمادات لا تفعل. ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ في التوحيد. ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي من أهل ديني. ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي أصر على الشرك. ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ قيل: قال هذا قبل أن يعرفه الله إن الله لا يغفر أن يشرك به. وقيل: غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت. وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فيما دون الشرك.

وقال ابن الجوزي في (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ أي: جنِّبني وإياهم، والمعنى: ثبِّتني على اجتناب عبادتها. ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: الأصنام، وهي لا توصَف بالإضلال ولا بالفعل، ولكنهم لما ضلّوا بسببها، كانت كأنها أضلَّتهم. ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ أي: على ديني التوحيد ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: فهو على مِلَّتي، ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ومن عصاني ثم تاب فانك غفور رحيم، قاله السدي.

والثاني: ومن عصاني فيما دون الشرك، قاله مقاتل بن حيان.

والثالث: ومن عصاني فكفر فإنك غفور رحيم أن تتوب عليه فتهديه إلى التوحيد، قاله مقاتل بن سليمان. وقال ابن الأنباري: يحتمل أن يكون دعا بهذا قبل أن يُعلِمه الله تعالى أنه لا يغفر الشرك كما استغفر لأبيه.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ الآية،لم يبين هنا هل أجاب دعاء نبيه إبراهيم هذا، ولكنه بين في مواضع أُخر أنه أجابه في بعض ذريته دون بعض، كقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾ [الصافات: ١١٣]، وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ الآية [الزخرف: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ الآية، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال: إن من تبعه فإنه منه وأنه رد أمر من لم يتبعه إلى مشيئة الله تعالى إن شاء الله غفر له؛ لأنه هو الغفور الرحيم، وذكر نحو هذا عن عيسى ابن مريم في قوله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ١١٨]، وذكر عن نوح وموسى التشديد في الدعاء على قومهما، فقال عن نوح إنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ إلى قوله: ﴿فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، وقال عن موسى إنه قال: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: ٨٨]، والظاهر أن نوحـًا وموسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ما دعوا ذلك الدعاء على قومهما إلا بعد أن علما من الله أنهم أشقياء في علم الله لا يؤمنون أبداً، أما نوح فقد صرح الله تعالى له بذلك في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وأما موسى فقد

فهم ذلك من قول قومه له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: ١٣٢]، فإنهم قالوا هذا القول بعد مشاهدة تلك الآيات العظيمة المذكورة في «الأعراف» وغيرها.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو ربَّه ويواصل الدعاء قائلًا: ربنا إني أسكنت ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ بعض ذريتي وهم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أمه هاجر ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ لا زرع فيه ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ بمكة ﴿رَبَّنَا﴾ يا ربنا ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: ربنا اجعلهم يقيموا الصلاة، الثاني: ربنا قد أسكنتهم عند بيتك المحرم ليصلوا هنالك.

هذا، وقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً﴾ أي: قلوبًا ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تذهب إليهم في هذا المكان وتحبهم وتحب سكنى هذا البلد الحرام ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ كي يقدموا شكرًا لك وحمدًا لك.

هذا، ولقد استجاب الله دعوة خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] أي: جعلنا الناس يثوبون إليه، يرجعون إليه بعد أن ينصرفوا عن محبة فيه، ولذلك نرى من اعتمر وحجَّ يُحب أن يرجع إليه ثانية للاعتمار والحج.

وهذه بعض أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال إبراهيم خليل الرحمن هذا القول حين أسكن إسماعيل وأمه هاجَرَ

-فيما ذُكِر- مكة.

وأورد الطبري آثارًا في أسانيدها مقال، ومنها ما هو قابل للتحسين، وذلك ما أورده من طريق حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: جاء نبيّ الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر، فوضعهما بمكة في موضع زمزم، فلما مضى نادته هاجر: يا إبراهيم إنما أسألك ثلاث مرات: من أمرك أن تضعني بأرض ليس فيها ضَرْع ولا زرع، ولا أنيس، ولا زاد ولا ماء؟ قال: ربي أمرني، قالت: فإنه لن يضيِّعنا قال: فلما قفا إبراهيم قال ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ يعني من الحزن ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾. فلما ظمئ إسماعيل جعل يَدْحَض الأرض بعقبه، فذهبت هاجر حتى علت الصفا، والوادي يومئذ لاخ، يعني عميق، فصعدت الصفا، فأشرفت لتنظر هل ترى شيئا؟ فلم تر شيئا، فانحدرت فبلغت الوادي، فسعت فيه حتى خرجت منه، فأتت المروة، فصعدت فاستشرفت هل ترى شيئا، فلم تر شيئا. ففعلت ذلك سبع مرّات، ثم جاءت من المروة إلى إسماعيل، وهو يَدْحَض الأرض بعقبه،وقد نبعت العين وهي زمزم. فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء، فكلما اجتمع ماء أخذته بقدحها، وأفرغته في سقائها. قال: فقال النبيّ ﷺ: «**يَرْحَمُها اللهُ لَوْ تَرَكَتْها لَكانَتْ عَيْنا سائِحَةً تَجْرِي إلى يَوْمِ القِيامَةِ**». قال: وكانت جُرهُمُ يومئذ بواد قريب من مكة، قال: ولزمت الطير الوادي حين رأت الماء، فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادي، قالوا: ما لزمته إلا وفيه ماء، فجاءوا إلى هاجرَ، فقالوا: إن شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك، قالت: نعم. فكانوا معها حتى شبّ إسماعيل، وماتت هاجر فتزوّج إسماعيل امرأة منهم، قال: فاستأذن إبراهيم سارة أن يأتي، هاجر، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فقدم إبراهيم وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت

إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ليس ههنا ذهب يتصيد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيتصيد ثم يرجع، فقال إبراهيم: هل عندك ضيافة، هل عندك طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندي، وما عندي أحد. فقال إبراهيم: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه! وذهب إبراهيم، وجاء إسماعيل، فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ فقالت: جاءني شيخ كذا وكذا، كالمستخفة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال لي: أقرئي زوجك السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه، فطلقها وتزوج أخرى. فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل، فأذنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يصيد، وهو يجيء الآن إن شاء الله، فأنزل يرحمك الله قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، قال: هل عندك خبز أو بر أو تمر أو شعير؟ قالت: لا. فجاءت باللبن واللحم، فدعا لهما بالبركة، فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله برا وشعيرا وتمرا، فقالت له: أنزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بالمقام فوضعته عن شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه، فبقي أثر قدمه عليه، فغسلت شق رأسه الأيمن، ثم حوّلت المقام إلى شقه الأيسر فغسلت شقه الأيسر، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ فقالت: نعم، شيخ أحسن الناس وجها وأطيبه ريحا، فقال لي كذا وكذا، وقلت له كذا وكذا، وغسلتُ رأسه، وهذا موضع قدمه على المقام. قال: وما قال لك؟ قالت: قال لي: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، قال: ذاك إبراهيم، فلبث ما شاء الله أن يلبث، وأمره الله ببناء البيت، فبناه هو

وإسماعيل، فلما بنياه قيل: أذن في الناس بالحجّ، فجعل لا يمرّ بقوم إلا قال: أيها الناس إنه قد بني لكم بيت فحجوه، فجعل لا يسمعه أحد، صخرة ولا شجرة ولا شيء، إلا قال: لبيك اللهم لبيك. قال: وكان بين قوله ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ وبين قوله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ [إبراهيم: ٣٩] كذا وكذا عاما، لم يحفظ عطاء.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال قائل: وكيف قال إبراهيم حين أسكن ابنه مكة ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ وقد رويت في الأخبار التي ذكرتها أن إبراهيم بنى البيت بعد ذلك بمدة. قيل: قد قيل في ذلك أقوال قد ذكرتها في سورة البقرة، منها أن معناه: عند بيتك المحرّم الذي كان قبل أن ترفعه من الأرض حين رفعته أيام الطوفان، ومنها عند بيتك المحرم من استحلال حرمات الله فيه، والاستخفاف بحقه. وقوله ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يقول: فعلت ذلك يا ربنا كي تؤدّى فرائضك من الصلاة التي أوجبتها عليهم في بيتك المحرّم. وقوله ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ يخبر بذلك تعالى ذكره عن خليله إبراهيم أنه سأله في دعائه أن يجعل قلوب بعض خلقه تنزع إلى مساكن ذريته الذين أسكنهم بواد غير ذي زرع عند بيته المحرَّم. وذلك منه دعاء لهم بأن يرزقهم حج بيته الحرام.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن مجاهد: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ قال: لو كانت أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم، ولكنه أفئدة من الناس.

وبإسنادٍ صحيح عن الحكم قال: سألت عكرمة عن هذه الآية ﴿فَٱجۡعَلۡ

أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ فقال: قلوبهم تهوي إلى البيت.

وقال الطبري:

حدثنا الحسن، قال: ثنا يحيى بن عباد، قال: ثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لو كان إبراهيم قال: فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم لحجه اليهود والنصارى والناس كلهم، ولكنه قال ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ .

وقال آخرون: إنما دعا لهم أن يهووا السكنى بمكة.

وقوله: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ يقول تعالى ذكره: وارزقهم من ثمرات النبات والأشجار ما رزقت سكان الأرياف والقرى التي هي ذوات المياه والأنهار، وإن كنت أسكنتهم واديا غير ذي زرع ولا ماء. فرزقهم جلّ ثناؤه ذلك.

وقوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ يقول: ليشكروك على ما رزقتهم وتنعم به عليهم.

قلت: وقد أخرج البخاري[(١)] في صحيحه من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ، خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ، وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ، فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟ قَالَ: إِلَى اللهِ، قَالَتْ: رَضِيتُ بِاللهِ، قَالَ: فَرَجَعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى لَمَّا فَنِيَ المَاءُ، قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، قَالَ فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا فَنَظَرَتْ، وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا،

(١) البخاري (٣٣٦٥).

فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتِ الوَادِيَ سَعَتْ وَأَتَتِ المَرْوَةَ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، تَعْنِي الصَّبِيَّ، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا، فَقَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ، لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا، فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ، فَقَالَتْ: أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإِذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا، وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الأَرْضِ، قَالَ: فَانْبَثَقَ المَاءُ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تَحْفِزُ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: «**لَوْ تَرَكَتْهُ كَانَ المَاءُ ظَاهِرًا**» . قَالَ: فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ المَاءِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، قَالَ: فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بِبَطْنِ الوَادِي، فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ، وَقَالُوا: مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، فَأَتَوْا إِلَيْهَا فَقَالُوا: يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكِ، أَوْ نَسْكُنَ مَعَكِ، فَبَلَغَ ابْنُهَا فَنَكَحَ فِيهِمُ امْرَأَةً، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي، قَالَ: فَجَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، قَالَ: قُولِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ، قَالَ: أَنْتِ ذَاكِ، فَاذْهَبِي إِلَى أَهْلِكِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي، قَالَ: فَجَاءَ، فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، فَقَالَتْ: أَلاَ تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ، فَقَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا المَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: «**بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ**» قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي، فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ، فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي

عَلَيْهِ، قَالَ: إِذَنْ أَفْعَلَ، أَوْ كَمَا قَالَ: قَالَ فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ وَيَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧] . قَالَ: حَتَّى ارْتَفَعَ البِنَاءُ، وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ المَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ وَيَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيدا ورغبة إلى الله، عَزَّ وَجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي: إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده.

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وقوله: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك وكما أنه ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثمارا يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الآية،

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام دعا لذريته الذين أسكنهم بمكة المكرمة أن يرزقهم الله من الثمرات، وبين في «سورة البقرة» أن إبراهيم خص بهذا الدعاء المؤمنين منهم، وأن الله أخبره أنه رازقهم جميعاً مؤمنهم وكافرهم ثم يوم القيامة يعذب الكافر، وذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ الآية [البقرة: ١٢٦]، قال بعض العلماء: سبب تخصيص إبراهيم المؤمنين في هذا الدعاء بالرزق، أنه دعا لذريته أولاً أن يجعلهم الله أئمة ولم يخصص بالمؤمنين، فأخبره الله أن الظالمين من ذريته لا يستحقون ذلك، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فلما أراد أن يدعو لهم بالرزق، خص المؤمنين بسبب ذلك فقال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ﴾ فأخبره الله أن الرزق ليس كالإمامة، فالله يرزق الكافر من الدنيا ولا يجعله إماماً، ولذا قال له في طلب الإمامة: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، ولما خص المؤمنين بطلب الرزق، قال له: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ الآية [البقرة: ١٢٦].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ .

وذلك أنه أتى بـ«هاجر» أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو في الرضاع، من الشام حتى وضعهما في مكة وهي -إذ ذاك- ليس فيها سكن، ولا داع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء فقال -متضرعا متوكلا على ربه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: لا كل ذريتي لأن إسحاق في الشام وباقي بنيه كذلك وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته، وقوله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية فمن أقامها كان مقيما لدينه، ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه فأخرج من ذرية إسماعيل محمدا ﷺ حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي وإلى ملة أبيهم إبراهيم فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.

وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم وجعل فيه سرا عجيبا جاذبا للقلوب، فهي تحجه ولا تقضي منه وطرا على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت والثمار فيها متوفرة والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

فإن قيل: ما وجه قوله: (عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ ولم يكن هناك بيت حينئذ، إنما بناه إِبراهيم بعد ذلك بمُدَّة؟ فالجواب من ثلاثة وجوه.

أحدها: أن الله تعالى حرَّم موضع البيت منذ خلق السموات والأرض، قاله ابن السائب.

والثاني: عند بيتك الذي كان قبل أن يُرفَع أيام الطوفان.

والثالث: عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا



(٣٤٤) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾.

ج: هذا قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: يا ربنا إنك تعلم ما تخفيه في صدورنا ولم يبح به لأحد تعلم يا رب نيتي من إقامة أهلي عند بيتك المحرم، وتعلم يا رب ما نظهره من أعمالنا، لا يخفى يا رب عليك شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

فهذا توسل من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بثنائه على الله وإقراره بعلم الله عَزَّ وَجَلَّ، وكذا توسلٌ من إبراهيم بصالح نواياه عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي: يا رب أنت تعلم نيتي وقصدي وأنه خيرٌ فيا رب لا تخذلني، ويا رب استجب دعائي، ثم يُقدِّم حمدًا لله بعد الثناء على الله، قائلًا الحمد لله الذي ﴿وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ رزقني على كبر سني، فقد كان لا يولد له عَلَيْهِ السَّلَامُ - إسماعيل وإسحاق ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ ففي هذا دليل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ بالذرية الصالحة، ثم يسأل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه عَزَّ وَجَلَّ أن يعينه على المحافظة على إقامة الصلاة وعدم التخلي عنها، يسأل الله ذلك لنفسه ولذريته، قائلًا: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ محافظًا عليها مداومًا ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ أي: واجعل من ذريتي من هو مقيم للصلاة مداومًا عليها محافظًا.

هذا وقوله: «من» في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ إما أن تكون زائدة لتقوية الكلام، أي: واجعل ذريتي مقيمة للصلاة، أو تكون بمعنى (في) ويكون المعنى، وفي ذريتي إقامة الصلاة، وهذا إحسانًا للظنِّ بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ لا يتصور أنه يدعو ربَّه أن تكون بعض ذريته مقيمة للصلاة دون البعض. والله أعلم.

هذا، وقد قال تعالى عن إبراهيم وإسحاق عليهما السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٣]، والله أعلم.

أما قوله: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ فمحتمل لأمرين: أحدهما: وتقبل عبادتي وقرباتي التي أتقرب بها إليك.

والثاني: واستجب دعائي.

ثم يدعو إبراهيم عليه السلام بالمغفرة بادئًا بنفسه ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي﴾ ثم لوالديه بقوله: ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وهذا قبل أن يعلم أن اباه عدوٌّ لله. أمَّا أمه فلم يرد أنه نُهي عن الدعاء لها، فالظاهر أنها كانت مسلمة لذلك ثم عمَّ الدعاء للمؤمنين بقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ أي: يوم القيامة عندما تحاسب الناس.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن استشهاد خليله إبراهيم إياه على ما نوى وقصد بدعائه وقيله ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ ... الآية، وأنه إنما قصد بذلك رضا الله عنه في محبته أن يكون ولده من أهل الطاعة لله، وإخلاص العبادة له على مثل الذي هو له، فقال: ربنا إنك تعلم ما تخفي قلوبنا عند مسألتنا ما نسألك، وفي غير ذلك من أحوالنا، وما نعلن من دعائنا، فنجهر به وغير ذلك من أعمالنا، وما يخفى عليك يا ربنا من شيء يكون في الأرض ولا في السماء، لأن ذلك كله ظاهر لك متجل باد، لأنك مدبره وخالقه، فكيف يخفى عليك.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول: الحمد لله الذي رزقني على كبر من السنّ ولدا إسماعيل وإسحاق ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾ يقول: إن ربي لسميع دعائي الذي أدعوه به، وقولي ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ وغير ذلك من دعائي ودعاء غيري، وجميع ما نطق به ناطق لا يخفى عليه منه شيء.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول: ربّ اجعلني مؤدّيا ما ألزمتني من فريضتك التي فرضتها عليّ من الصلاة. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يقول: واجعل أيضا من ذريتي مقيمي الصلاة لك. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾ يقول: ربنا وتقبل عملي الذي أعمله لك وعبادتي إياك. وهذا نظير الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الدُّعاءَ هُوَ العبادَةُ**» ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

وهذا دعاء من إبراهيم صلوات الله عليه لوالديه بالمغفرة، واستغفار منه لهما. وقد أخبر الله عز ذكره أنه لم يكن ﴿اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

وقد بيَّنا وقت تبرّئه منه فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: وللمؤمنين بك ممن تبعني على الدين الذي أنا عليه، فأطاعك في أمرك ونهيك. وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ يعني: يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب من ذكر الناس، إذ كان مفهوما معناه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أي: أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم حمد ربه، عَزَّ وَجَلَّ، على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ أي: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد.

ثم قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: محافظا عليها مقيما لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ أي: فيما سألتك فيه كله.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وقرأ بعضهم: «ولوالدي»، على الإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله، عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: كلهم ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ أي: يوم تحاسب عبادك فتجزيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ الآية، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم طلب المغفرة لوالديه، وبين في آيات أُخر أن طلبه الغفران لأبيه إنما كان قبل أن يعلم أنه عدو لله، فلما علم ذلك تبرأ منه كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة: ١١٤]، ونحو ذلك من الآيات.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ ﴾ أي على كبر سني وسن امرأتي، قال ابن عباس[١]: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة. وإسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جبير: بشر إبراهيم بإسحاق بعد عشر ومائة سنة. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ . قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ ﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيمها. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ أي عبادتي كما قال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] . وقال عليه السلام: «**الدعاء مخ العبادة**» وقد تقدم في «البقرة». ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ قيل: استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله. قال القشيري: ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه.



(١) ولم أقف على سند صحيح عن ابن عباس بهذا.

(٣٤٩) أحمر
أسود

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ
تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ
وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟
أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ
ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ
مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ
رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ
فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾
لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ
لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

[إبراهيم: ٤٢-٥٢]

(٣٥٠) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ - غَٰفِلًا - تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ - مُهْطِعِينَ - مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ - لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ - وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ - أَجَلٍ قَرِيبٍ - نُّجِبْ دَعْوَتَكَ - زَوَالٍ - وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ - مَكْرُواْ مَكْرَهُمْ - عَزِيزٌ - ذُو ٱنتِقَامٍ - وَبَرَزُواْ - ٱلْقَهَّارِ - مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ - سَرَابِيلُهُم - قَطِرَانٍ - وَتَغْشَىٰ - بَلَٰغٌ - وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ - وَلِيَذَّكَّرَ - أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾	ولا تظنن.
﴿غَٰفِلًا﴾	ساهيًا.
﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾	تُركز فيه الأبصار ولا تطرف، بل تديم النظر من شدة ما ترى.
﴿مُهْطِعِينَ ﴾	مُسرعين، وقيل: مُديمي النظر.
﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾	رافعي رؤوسهم (قد ضمت الأيدي إلى الأعناق وربطت معها فارتفعت الرؤوس).
﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾	لا يرجع إليهم بصرهم، لا يُغمضون.
﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾	قلوبهم فارغة من الخير - وقيل: أماكن القلوب فارغة
﴿أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾	الدنيا.
﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾	نجب دعوة رسلك الذين دعونا إلى الإسلام والإيمان.
﴿زَوَالٍ ﴾	انتقال إلى الآخرة، موت وبعث.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾	سقنا لكم الأمثال في القرآن.
﴿مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾	أشركوا شركهم – دبروا تدبيرهم – كادوا كيدهم.
﴿عَزِيزٌ﴾	غالب لا يمتنع عليه شيء.
﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾	منتقم.
﴿وَبَرَزُوا۟﴾	ظهروا – خرجوا من القبور إلى مكان فسيح وظهروا كلهم.
﴿ٱلْقَهَّارِ﴾	الذي قهر كل شيء.
﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾	مربوطين في القيود، قيل: مربوطة أيديهم مع أرجلهم في رقابهم، وقيل: مربوطة مع الشياطين، وقيل: مربوط كل شخص مع أمثاله.
﴿سَرَابِيلُهُم﴾	قمصانهم.
﴿قَطِرَانٍ﴾	ما يشبه الزفت الذي تُطلى به الإبل المصابة بالجرب.
﴿وَتَغْشَىٰ﴾	تغطى.
﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾	ليحذَّروا به من سوء العاقبة.
﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾	ليتعظ.
﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾	أصحاب العقول النيرة الرشيدة.



(٣٥٢) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: ولا تظنن يا رسول الله، ولا تظنن أيها المسلم، ولا تظنن أيضًا يا ابن آدم أن الله ﷻ ساهيًا لا يدري عما يفعله الظالمون، بل هو عالم بهم ومحيط بأعمالهم لا يخفى عليه منهم ولا من أعمالهم شيء، وإنما يؤخر عذابهم وإنزال العقاب الشديد بهم إلى يوم القيامة، ذلكم اليوم الذي تشخص فيه الأبصار، تنظر أبصار الخلق إلى الأهوال فتركز البصر، ذلكم اليوم الذي يخرج فيه الخلق من القبور مهطعين مُسرعين، مجيبين الداعي كما قال تعالى: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ ﴾ [القمر: ٨] يسرعون إلى الداعي ورؤوسهم مرفوعة، فقد ضُمت الأيدي إلى الرقاب وربطت بها فارتفعت الأبصار إلى أعلى وشخصت فلم ترتد الأبصار لهول ما تراه وتظنه واقعًا بها، وأيضًا فحينئذٍ القلوب قد انتقلت من أماكنها فأصبحت أماكنها فارغة كما قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ ﴾ [غافر: ١٨] فانتقلت القلوب ونشبت بالحلوق والحناجر.

وقال بعض العلماء: ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: لا تعي من الخير شيئًا، بل هي متخرقة خرج منها كل خير. والله أعلم.

وبنحو هذاقال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ﴾ يا محمد ﴿ غَٰفِلًا ﴾ ساهيا ﴿ عَمَّا يَعْمَلُ ﴾ هؤلاء المشركون من قومك، بل هو عالم بهم وبأعمالهم محصيًا عليهم، ليجزيهم جزاءهم في الحين الذي قد سبق في علمه أن يجزيهم فيه.

(٣٥٣) أحمر
أسود

يقول تعالى ذكره: إنما يؤخر ربك يا محمد هؤلاء الظالمين الذين يكذّبونك ويجحَدون نبوّتك، ليوم تشخص فيه الأبصار. يقول: إنما يؤخِّر عقابهم وإنزال العذاب بهم، إلى يوم تشخص فيه أبصار الخلق، وذلك يوم القيامة.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ شخصت فيه والله أبصارهم، فلا ترتدّ إليهم.

وأما قوله: ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في معناه، فقال بعضهم: معناه: مسرعين.

وقال آخرون: معنى ذلك: مديمي النظر.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا يرفع رأسه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والإهطاع في كلام العرب بمعنى الإسراع أشهر منه: بمعنى إدامة النظر.

وقال:

وقوله: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ يعني رافعي رءوسهم. وإقناع الرأس: رفعه.

وقوله: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ يقول: لا ترجع إليهم لشدّة النظر أبصارهم.

وقوله: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: متخرقه لا تعي من الخير شيئا.

وأورد بإسناد صحيح عن مرّة، في قوله: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ قال: متخرقة لا تعي شيئا.

وفي رواية: لا تعي شيئا من الخير.

وأورد بإسنادٍ صحيح ابن زيد في قوله: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ قال: الأفئدة: القلوب هواء كما قال الله، ليس فيها عقل ولا منفعة.

(٣٥٤) أحمر
أسود

وقال آخرون: إنها لا تستقرّ في مكان تردّد في أجوافهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنها خرجت من أماكنها فنشبت بالحلوق.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنها خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم.

وأورد من وجهين يصحان بمجموعها عن قتادة، في قوله: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾﴾ انتزعت حتى صارت في حناجرهم لا تخرج من أفواههم، ولا تعود إلى أمكنتها.

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل ذلك قول من قال: معناه: أنها خالية ليس فيها شيء من الخير، ولا تعقل شيئا، وذلك أن العرب تسمي كلّ أجوف خاو: هواء، ومنه قول حسَّان بن ثابت:

ألا أبْلِغْ أبا سُفْيانَ عَنّي فأنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ أي: لا تحسبه إذ أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عدا، أي: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿۞وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ١٠٨ - ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي

رءوسهم.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: بل أبصارهم طائرة شاخصة، يديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياذًا بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الفزع والوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: ﴿هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ خراب لا تعي شيئا.

ولشدة ما أخبر الله تعالى به عنهم، قال لرسوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

هذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ﴾ حيث أمهلهم وأدرَّ عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم فإن الله يملي للظالم ويمهله ليزداد إثما، حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ والظلم -هاهنا- يشمل الظلم فيما بين العبد وربه وظلمه لعباد الله. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾

أي: رافعيها قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رءوسهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم قد صعدت إلى الحناجر لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾، بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يؤخر عقاب الكفار إلى يوم تشخص فيه الأبصار من شدة الخوف، وأوضح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الأنبياء: ٩٧]، ومعنى شخوص الأبصار أنها تبقى منفتحة لا تغمض من الهول وشدة الخوف.

قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ﴾، الإهطاع في اللغة: الإسراع، وقد بين تعالى في مواضع أُخر أنهم يوم القيامة يأتون مهطعين، أي: مسرعين، إذا دعوا للحساب، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ الآية [القمر: ٧، ٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن إطلاق الإهطاع في اللغة، بمعنى الإسراع، قول الشاعر:

بدجلة دارهم ولقد أراهم ... بدجلة مهطعين إلى السماع

أي: مسرعين إليه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ

﴿فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وأنذر الناس يا رسول الله، حذرهم وخوفهم في الدنيا، حذرهم وخوفهم من يأتيهم فيه العذاب، وذلك يوم القيامة فعنده يقول أهل الظلم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله ﷻ فبخسوا أنفسهم حقها وأنزلوها أسوأ المنازل بشركهم بالله، حذر الناس من قبل أن يأتيهم العذاب فعندها يقول أهل الشرك ربنا أخرنا إلى أجل قريب ردنا إلى الدنيا نجب دعوة الداعي إليك فنسلم ونعبدك وحدك لا شريك له ونتبع رسلك الذين دعونا للإيمان بك، فيرفض طلبهم ويُقال لهم: أولم تكونوا أقسمتم في الدنيا أن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب، وذلك كما ذكرهم الله عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ [النحل: ٣٨].

أولم تكونوا أقسمتم في دنياكم ما لكم من انتقال إلى الدار الآخرة، ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: نمكم من سكن مساكن أهل الشرك الذين أبادهم الله وأفناهم، كقوم ثمود، وقوم لوط وغيرها، فأنتم يا أهل قريش منكم من سكنها، ومنكم من يمر بها ويرى ما حلَّ بها من البلاء والنكال والعقاب، فقد ظهر ذلك جليًّا واضحًا لكم، فيفترض أن فيهم وفيما حلَّ بهم عبرة لكم، ولكنكم لا تعتبرون.

أما قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: في الدنيا ضربنا لكم في القرآن من كل مثل ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتتعظون وتعتبرون. ولكن ما نفعكم كذلك.

هذا، وبنحو ما ذكر قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأنذر يا محمد الناس الذين أرسلتك إليهم داعيا إلى

الإسلام ما هو نازل بهم، يوم يأتيهم عذاب الله في القيامة. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ يقول: فيقول الذين كفروا بربهم، فظلموا بذلك أنفسهم ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ أي أخِّر عنا عذابك، وأمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ الحقّ، فنؤمن بك، ولا نشرك بك شيئا، ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ يقولون: ونصدّق رسلك فنتبعهم على ما دعوتنا إليه من طاعتك واتباع أمرك.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ يقول: أنذرهم في الدنيا قبل أن يأتيهم العذاب.

وقوله: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ رفع عطفا على قوله: ﴿يَأۡتِيهِمُ﴾ في قوله: ﴿يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ وليس بجواب للأمر، ولو كان جوابا لقوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ جاز فيه الرفع والنصب. أما النصب فكما قال الشاعر:

يا نَاقَ سِيرِي عَنَقًا فَسِيحا إلى سُلَيْمَانَ فَنَسْتَرِيحا

والرفع على الاستئناف. وذُكر عن العلاء بن سيابة أنه كان ينكر النصب في جواب الأمر بالفاء، قال الفراء: وكان العلاء هو الذي علَّم معاذا وأصحابه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤﴾.

و هذا تقريع من الله تعالى ذكره للمشركين من قريش، بعد أن دخلوا النار بإنكارهم في الدنيا البعث بعد الموت، يقول لهم: إذ سألوه رفع العذاب عنهم، وتأخيرهم لينيبوا ويتوبوا ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ﴾ في الدنيا ﴿أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤﴾ يقول: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، وإنكم إنما تموتون، ثم لا تبعثون.

يقول تعالى ذكره: وسكنتم في الدنيا في مساكن الذين كفروا بالله، فظلموا بذلك أنفسهم من الأمم التي كانت قبلكم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾

يقول: وعلمتم كيف أهلكناهم حين عتوا على ربهم وتمادوا في طغيانهم وكفرهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ يقول: ومثَّلنا لكم فيما كنتم عليه من الشرك بالله مقيمين الأشباه، فلم تنيبوا ولم تتوبوا من كفركم، فالآن تسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم ما قد نزل بكم من العذاب، إن ذلك غير كائن.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول: سكن الناس في مساكن قوم نوح وعاد وثمود، وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك من الأمم.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ قد والله بعث رسله، وأنزل كتبه، ضرب لكم الأمثال، فلا يصم فيها إلا أصمّ، ولا يخيب فيها إلا الخائب، فاعقلوا عن الله أمره.

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ قال: سكنوا في قراهم مدين والحجر والقرى التي عذب الله أهلها، وتبين لكم كيف فعل الله بهم، وضرب لهم الأمثال.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبرا

عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى رادا عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك.

قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٥].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ قال ابن عباس: أراد أهل مكة. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة؛ أي خوفهم ذلك اليوم. وإنما خصهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي في ذلك اليوم ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أي أمهلنا. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق في الآخرة. ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ﴾ أي

إلى الإسلام فيجابوا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني في دار الدنيا. ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ قال مجاهد: هو قسم قريش أنهم لا يبعثون. ابن جريج: هو ما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ فيه تأويلان: أحدهما: ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة؛ أي لا تبعثون ولا تحشرون؛ وهذا قول مجاهد. الثاني: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي من العذاب.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي في بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم، بعد ما تبين لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: صف لهم صفة تلك الحال وحذرهم من الأعمال الموجبة للعذاب الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله، ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي نادمين على ما فعلوا سائلين للرجعة في غير وقتها، ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: ردَّنا إلى الدنيا فإنا قد أبصرنا، ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب وإلا فهم كذبة في هذا الوعد ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾

ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، فها قد تبين حنثكم في إقسامكم، وكذبكم فيما تدعون، ﴿وَ﴾ ليس عملكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من

أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات، وضربنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات بل أعرضتم ودمتم على باطلكم حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجع إِليهم أبصارهم من شدة النظر، فهي شاخصة. قال ابن قتيبة: والمعنى: أن نظرهم إِلى شيء واحد. قال الحسن: وجوه الناس يوم القيامة إِلى السماء، لا ينظر أحد إِلى أحد.

قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ الأفئدة: مساكن القلوب. وفي معنى الكلام أربعة أقوال:

أحدها: أن القلوب خرجت من مواضعها فصارت في الحناجر، رواه عطاء عن ابن عباس. وقال قتادة: خرجت من صدورهم فنَشِبَت في حلوقهم، فأفئدتهم هواءٌ ليس فيها شيء.

والثاني: وأفئدتهم ليس فيها شيء من الخير، فهي كالخِرْبة، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: وأفئدتهم مُنخرِقة لا تعي شيئًا، قاله مُرَّة بن شراحيل. وقال الزجاج: متخرِّقة لا تعي شيئًا من الخوف.

والرابع: وأفئدتهم جُوْف لا عقول لها، قاله أبو عبيدة، وأنشد لحسَّان:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي ... فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ

فعلى هذا يكون المعنى: أن قلوبهم خلت عن العقول، لِما رأوا من الهول. والعرب تسمي كلَّ أجوَفَ خاوٍ: هواءً. قال ابن قتيبة: ويقال: أفئدتهم منخوبة من الخوف والجُبْن.

(٣٦٣) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وقد كاد الكفار كيدهم وتآمروا تآمرهم، وأشركوا شركهم تآمروا على رسل الله لإخراجهم وقتلهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وأشركوا بالله ﷻ شركهم وافتروا على الله كذبًا عظيمًا حيث زعموا أن الله ﷻ له شريك أو له صاحبة وعبدوا هؤلاء الشركاء مع الله ﷻ، وكل هذا مكتوب ولا يخفى على الله منه شيء، بل هو سبحانه به محيطٌ وعالم، وعقابه مكرهم هذا عند الله ﷻ أما قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

أي: أن الجبار - لو كانت تزول في الدنيا - لزالت وتحطمت غيظًا على هؤلاء، أو من مكر هؤلاء.

أي: أن مقولاتهم هذه عظيمة في الإيم والشر والفساد تكاد أن تكسر الجبال وتحطمها.

هذا، ومن العلماء من قال إن قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾، معناه: (وما كان مكرهم) على النفي أن مكرهم الله ويزيل الجبال. والأولى ما قدَّمته والله أعلم.

هذا، وقد ورد عن عليٍّ رضي الله عنه في ذلك أثرٌ غريب لا يصح سنده عن عليٍّ رضي الله عنه ولا يتناسب - فيما أرى - مع تفسير الآية الكريمة مع نكارة متنه وغرابة

(٣٦٤) أحمر
أسود

معناه، وسيأتي ذكره في النقل عن أهل العلم رحمهم الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ي**قول تعالى ذكره:** قد مكر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، فسكنتم من بعدهم في مساكنهم، مكرهم. وكان مكرهم الذي مكروا ما:

حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا يحيى، قال: ثنا سفيان، قال: ثنا أبو إسحاق، عن عبد الرحمن بن أبان قال: سمعت عليا يقرأ: « وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ » قال: كان ملك فره[1] أخذ فروخ النسور، فعلفها اللحم حتى شبَّت واستعلجت واستغلظت. فقعد هو وصاحبه في التابوت وربطوا التابوت بأرجل النسور، وعلقوا اللحم فوق التابوت، فكانت كلما نظرت إلى اللحم صعدت وصعدت، فقال لصاحبه: ما ترى؟ قال: أرى الجبال مثل الدخان، قالا ما ترى؟ قال: ما أرى شيئا، قال: ويحك صوّب صوّب، قال: فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

وهذه صحيح إلى عبد الرحمن بن أبان..، وقد أورده الطبري من طريق شعبة عن أبي إسحاق قال: ثنا عبد الرحمن بن واصل أن عليا قال في هذه الآية: **(وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ)** قال: أخذ ذلك الذي حاجّ إبراهيم في ربه نسرين صغيرين فرباهما، ثم استغلظا واستعلجا وشبَّا، قال: فأوثق رجل كلّ واحد منهما بوتد إلى تابوت، وجوّعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت، قال: ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم، قال: فطارا، وجعل يقول لصاحبه: انظر ماذا ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كأنها ذباب، فقال: صوّب العصا، فصوّبها فهبطا، قال: فهو قول الله تعالى: **(وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ)** قال أبو إسحاق: وكذلك في قراءة عبد الله: **(وَإِنْ كانَ**

(١) الفَرِهُ: قيل الأشر البطر المتمادي في الغيِّ، كذا قال المعلق على بعض طبعات الطبري..

مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ).

قلت (مصطفى): وهذا لا يثبت عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعبد الرحمن الراوي عنه مجهول ولم يُذكر من جرح ولا تعديل، وقد روى نحو هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير بأسانيد فيها مقال عنها.

قال الطبري:

وقال آخرون: كان مكرهم: شركهم بالله، وافتراؤهم عليه.

وأورد بإسناد ضعيف عن ابن عباس ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ۝٤٦﴾ يقول: شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾.

وأورد الطبري بسندٍ حسن عن قتادة، أن الحسن كان يقول: كان أهون على الله وأصغر من أن تزول منه الجبال، يصفهم بذلك. قال قتادة: وفي مصحف عبد الله بن مسعود: (وَإِنْ كادَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ)، وكان قتادة يقول عند ذلك ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ أي لكلامهم ذلك.

ومن وجه آخر (يصحح بما قبله) عن قتادة، في قوله: (وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ) قال ذلك حين دعوا لله ولدا. وقال في آية أخرى ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١﴾ [مريم: ٩٠-٩١].

وأورد الطبري من وجه آخر عن هارون، عن يونس وعمرو، عن الحسن ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ۝٤٦﴾ قالا وكان الحسن يقول: وإن كان مكرهم لأوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال.

قال: قال هارون: وأخبرني يونس، عن الحسن قال: أربع في القرآن ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ۝٤٦﴾ ما كان مكرهم لتزول منه الجبال،

(٣٦٦) أحمر
أسود

وقوله: ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧﴾ [الأنبياء: ١٧] ما كنا فاعلين، وقوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ۝٨١﴾ ما كان للرحمن ولد، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ﴾ ما مكناكم فيه.

قال هارون: وحدثني بهنّ عمرو بن أسباط، عن الحسن، وزاد فيهنّ واحدة ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ﴾ ما كنت في شكّ ﴿مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

هذا، وقد قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القراءة عندنا، قراءة من قرأه ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ۝٤٦﴾ بكسر اللام الأولى وفتح الثانية، بمعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال.

وقال:

فالأولى من القول بالصواب في تأويل الآية، إذ كانت القراءة التي ذكرت هي الصواب لما بيّنا من الدلالة في قوله: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ۝٤٦﴾ وقد أشرك الذين ظلموا أنفسهم بربهم وافتروا عليه فريتهم عليه، وعند الله علم شركهم به وافترائهم عليه، وهو معاقبهم على ذلك عقوبتهم التي هم أهلها، وما كان شركهم وفريتهم على الله لتزول منه الجبال، بل ما ضرّوا بذلك إلا أنفسهم، ولا عادت بغية مكروهه إلا عليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ أي بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة؛ عن ابن عباس وغيره. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ۝٤٦﴾ «إن» بمعنى «ما» أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه؛ «وإن» بمعنى «ما» في القرآن في مواضع خمسة: أحدها هذا.

الثاني: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]. الثالث: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي ما كنا. الرابع: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]. الخامس: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الجبال التي عني زوالها بمكرهم وجهان: أحدهما: جبال الأرض. الثاني: الإسلام والقرآن، لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال. وقال القشيري: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي هو عالم بذلك فيجازيهم أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف. ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾ بكسر اللام؛ أي ما كان مكرهم مكرا يكون له أثر وخطر عند الله تعالى، فالجبال مثل لأمر النبي ﷺ. وقيل: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في تقديرهم ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾ وتؤثر في إبطال الإسلام. وقرئ «لتزول منه الجبال» بفتح اللام الأولى وضم الثانية؛ أي كان مكرا عظيما تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله ﷺ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢﴾ [نوح: ٢٢] والجبال لا تزول ولكن العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟﴾ أي: المكذبون للرسل ﴿مَكْرَهُمْ﴾ الذي وصلت إرادتهم وقدر لهم عليه، ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: هو محيط به علما وقدرة فإنه عاد مكرهم عليهم ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾ أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق وبمن جاء به -من عظمه- لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢﴾ لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم في نحورهم.

ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسل لينصر باطلا أو يبطل حقا، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئا، ولم يضروا الله شيئا وإنما ضروا أنفسهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: فلا تظن يا رسول الله أن الله ﷻ سيخلف فيما وعده، لا تظنن أبدًا أن الله ﷻ سيخلف رسله ما وعدهم من نصرتهم وإنجاءهم وتعذيب أعدائهم والانتقام من أعدائهم في الدنيا أو في الآخرة.

لقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١].

لقد قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ ﴾ [المجادلة: ٢١].

لقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ أي: قوي غالب ومنتقم لا يمتنع عليه شيء ولا يستعصِ عليه شيء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ ﴾ الذي وعدهم من كذّبهم، وجحد ما أتوْهم به من عنده، وإنما قاله تعالى ذكره لنبيه تثبيتا وتشديدا لعزيمته، ومعرّفه أنه منزل من سخطه بمن كذّبه وجحد نبوّته، وردّ عليه ما أتاه به من عند الله، مثال ما أنزل بمن سلكوا سبيلهم من الأمم الذين كانوا قبلهم على مثل منهاجهم من تكذيب رسلهم وجحود نبوّتهم وردّ

ما جاءوهم به من عند الله عليهم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ يعني بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يمانع منه شيء أراد عقوبته، قادر على كلّ من طلبه، لا يفوتُه بالهَرَب منه. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ ممن كفر برسله وكذّبهم، وجحد نبوتهم، وأشرك به واتخذ معه إلها غيره. وأضيف قوله: ﴿مُخْلِفَ﴾ إلى الوعد، وهو مصدر، لأنه وقع موقع الاسم، ونصب قوله: ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ بالمعنى، وذلك أن المعنى: فلا تحسبنّ الله مخلف رسله وعده، فالوعد وإن كان مخفوضا بإضافة «مخلف» إليه، ففي معنى النصب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكدًا: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه لأنه، وعد به الصادق قولا على ألسنة أصدق خلقه وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصا وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنن الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء فإنه ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

ج: لأهل العلم من قال إن هذه الآية الكريمة مرتبطة بما قبلها، والمعنى: إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض... أي أن انتقامه ﷻ من أهل الظلم سيكون يوم تبدل الأرض غير الأرض.

وقال آخرون: إنه معنى مستقلٌّ، وحاصله واذكر يوم تبدل الأرض غير الأرض وما فيه من الأهوال.

ومعنى قوله تعالى: ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يؤتى بأرض جديدة غير تلك الأرض، أما عن صفة الأرض الجديدة التي يتبدل إليها تلك الأرض.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ(١)، أنه قال: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كَقُرصَة النقيِّ ليس فيها معلم لأحدٍ**».

ومن العلماء من قال: يُجاء بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يسفك بها دم ولم تُعمل بها خطيئة، وهذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وعمرو بن ميمون ويمكن أن يحمل هذا على أنه تفسير لقول النبي ﷺ: «**على أرض بيضاء**».

أما الأرض التي نحن عليها الآن فما مصيرها وما ستكون؟؟

فقال بعض العلماء: إنها هي الأرض الجديدة إلا أن صفتها تغيَّرت، وحمل هذا القائل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] على أن التبديل تبديل صفةٍ ليس بتبديل ذاتٍ، أي: أن صفتها هي التي تُبدل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾ [الانشقاق: ٣-٤]، وكما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

(١) صحيح وسيأتي تخريجه إن شاء الله.

ومن العلماء من قال: إن هذه الأرض تتحول إلى نارٍ يوم القيامة.

ومنهم من قال: إنها تكون خبزةً كما في الحديث: تكون الأرض خبزةً يتكفؤها الجبار بيمينه.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٦٧].

أما السموات الجديدة فالله أعلم بصفتها، ومن العلماء من قال: إنها ستصير جنانًا.

ومنهم من قال: إنها السماء التي تظلنا الآن لكن تتغير صفتها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج: ٨]، وكما قال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، وكما قال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾.

وتكون شمسها وتنكون نجومها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾، فمن هذا القول السابق يستفاد بيان مصير السماء التي تظلنا الآن، فإنها - على هذا القول- هي السماء الجديدة مع تغيُّر الصفات.

والظاهر لي - والله أعلم - أن السموات التي تظلنا الآن ليست هي السموات الجديدة، وذلك أن الله ﷻ قال: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «**يطوى الله ﷻ السموات بيمينه**».

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

هذا، والعلم عند الله تعالى وبه التوفيق، وهو أعلم بما يؤول إليه أمر خلقه وأمر سمواته وأراضيه، ثم هذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

أما أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فقد ورد عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: وقد سألته عائشة عن ذلك فقال: «**على**

الصراط»، وورد عنه أيضًا أنه قال: «**هم في الظلمة دون الجسر**»، ويمكن أن يجمع بينهما بأن يقال: إن الجسر هو الصراط، فيُقال إن منهم من هو على الصراط، ومنهم من هو على الظلمة دون الجسر.

أو يُقال إن الجسر جزء من الصراط أو بعد الصراط وهم على الصراط في ظلمة قبيل الجسر، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ فمعناه - والله أعلم - أن الخلق خرجوا من قبورهم يوم للقيامة فظهروا جميعًا في صعيدٍ واحدٍ لا يخفى أمرهم على من يراهم، ولا يخفى أمرهم عن الله ﷻ حيث كانوا، وكذا لا يخفى أمرهم على الله ﷻ في هذا المقام فقد خرجوا جميعًا من القبور وظهروا في مكان واحد كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦] لقد ظهروا لله الواحد المتفرد بالربوبية والإلهية والملك ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ الذي قهر كل شيء وغلب كل شيء، وليس له غالبٌ، ولا يمتنع فيه شيء، وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الله ذو انتقام ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ من مشركي قومك يا محمد من قريش، وسائر من كفر بالله وجحد نبوّتك ونبوّة رسله من قبلك. فيوم من صلة الانتقام.

واختلف في معنى قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: يوم تبدّل الأرض التي عليها الناس اليوم في دار الدنيا غير هذه الأرض، فتصير أرضا بيضاء كالفضة.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن شعبة عن أبي إسحاق، قال: سمعت عمرو بن ميمون يحدّث، عن عبد الله أنه قال في هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ

(٣٧٣) أحمر
أسود

وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قال: أرض كالفضة نقية لم يَسِل فيها دم، ولم يُعْمَل فيها خطيئة، يسمعهم الداعي، وينفُذهُم البصر، حُفاة عُراة قياما،أحسب قال: كما خُلِقوا، حتى يلجمهم العرق قياما وَحْدَه.

قال: شعبة: ثم سمعته يقول: سمعت عمرو بن ميمون، ولم يذكر عبد الله ثم عاودته فيه، قال: حدثنيه هبيرة، عن عبد الله.

وأورده الطبري أيضًا من طريق شعبة قال سمعت عمروبن ميمون - وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل.

قلت (مصطفى): كأنه يثبت في السند أحيانًا عبد الله وهو ابن مسعود رضي الله عنه، ويعزو القول إليه، وأحيانًا يجعله من قول عمرو بن ميمون.

إلا أن الطبري أورد من وجه آخر بسندٍ حسن عن ابن مسعود ما يثبت صحة القول بالتضمين المذكور إلى ابن مسعود، فأورد من طريق حماد بن زيد، قال: أخبرنا عاصم بن بَهْدلة، عن زِرّ بن حُبيش، عن عبد الله بن مسعود، أنه تلا هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ قال: يجاء بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يُسْفك فيها دم، ولم يُعمل عليها خطيئة، قال: فأوّل ما يحكم بين الناس فيه في الدماء.

وأورد الطبري أيضًا أحاديث وآثار فيها مقال.

وأورد حديث سهل بن سهل الساعدي (وهو صحيح).

قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القيامَةِ على أرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصةِ النُّقِيّ** م. قال سهل أو غيره: ليس فيها معلم لغيره.

وقال آخرون: تبدّل نارا.

وأورد الطبري بسندٍ صحيح عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن

قيس بن السَّكن، قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقا، حتى يرشح في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب، فقالوا: مم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس ويلقون.

ومن وجه آخر صحيح عن الأعمش، عن خيثمة، قال: قال عبد الله: الأرض كلها يوم القيامة نار، والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها، ويلجم الناس العرق، أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب.

وقال آخرون: بل تبدّل الأرض أرضا من فضة.

وقال آخرون: يبدّلها خبزة.

وقال آخرون: تبدّل الأرض غير الأرض.

وأورد الطبري من طرق متعددة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: سألت رسول الله ﷺ، عن قول الله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قلت: يا رسول الله، إذا بُدّلت الأرض غير الأرض، أين يكون الناس؟ قال: «**عَلى الصِّراطِ**».

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ثوبان، قال: سأل حبر من اليهود رسول الله ﷺ، فقال: أين الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض؟ قال: هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُون الجِسْرِ.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: يوم تبدّل الأرض التي نحن عليها اليوم يوم القيامة غيرها، وكذلك السماوات اليوم تبدّل غيرها، كما قال جلّ ثناؤه، وجائز أن تكون المبدلة أرضا أخرى من فضة، وجائز أن تكون نارا وجائز أن تكون خبزا، وجائز أن تكون غير ذلك، ولا خبر في ذلك عندنا من الوجه الذي يجب التسليم له أي ذلك يكون، فلا قول في ذلك يصحّ إلا ما دلّ عليه ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ يقول: وظهروا لله المنفرد بالربوبية، الذي يقهر كلّ شيء فيغلبه ويصرفه لما يشاء كيف يشاء، فيحيي خلقه إذا شاء، ويميتهم إذا شاء، لا يغلبه شيء، ولا يقهره من قبورهم أحياء لموقف القيامة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحده ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد**»[(١)].

وأورد حدث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المتقدم في سؤالها النبي ﷺ عن حال الناس ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ وقول النبي ﷺ لها: «**على الصراط**»[(٢)].

وأورد ابن كثير كذلك ما أخرجه مسلم[(٣)] من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال:

كنت قائما عند رسول الله ﷺ، فجاءه حَبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعة كاد يُصرَع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سَمّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «**إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي**». فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «**أينفعك شيء إن حدثتك؟**» فقال: أسمع

---

(١) البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

(٢) مسلم (٢٧٩١).

(٣) مسلم (٣١٥).

بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «**سل**». فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هم في الظلمة دون الجسر**» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقال: «**فقراء المهاجرين**». قال اليهودي: فما تُحْفَتُهُم حين يدخلون الجنة؟ قال: «**زيادة كبد النون**» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «**ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها**». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «**من عين فيها تسمى سلسبيلا**». قال: صدقت. الحديث.

وقال ابن كثير:

وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ أي: الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

فأما تبديل السموات، ففيه ستة أقوال:

أحدها: أنها تُجعَل من ذهب، قاله علي عليه السلام.

والثاني: أنها تصير جِنانًا، قاله أُبيّ بن كعب.

والثالث: أن تبديلها: تكوير شمسها وتناثر نجومها، قاله ابن عباس.

والرابع: أن تبديلها: اختلاف أحوالها، فَمرة كالمُهْل، ومَرَّة تكون كالدِّهان، قاله ابن الأنباري.

والخامس: أن تبديلها أن تُطوى كَطَيِّ السِّجِلِّ للكتاب.

والسادس: أن تنشقَّ فلا تُظِلُّ، ذكرهما الماوردي.

وقال السعدي رحمه الله:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ تبدل غير السماوات، وهذا التبديل

(٣٧٧) أحمر
أسود

تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم ويلقى ما على ظهرها من جبل ومَعْلم، فتصير قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم ثم يطويها الله – تعالى – بيمينه.

﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم فكلها تحت تصرفه وتدبيره، فلا يتحرك منها متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: وترى أهل الإجرام، أهل الشرك والكبائر والعصيان، تراهم يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، تراهم مُقرنين في الأصفاد، في القيود.

أما قوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ فللعلماء فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن أيديهم مقترنة مع أرجلهم مقترنة مع رقابهم وكل ذلك مقيدٌ، أي: أن الأصفاد القيود تحيط بأيديهم مع أرجلهم مع رقابهم.

الثاني: أن كل كافر مقترن مع مثيلة من الكفار، مقيدٌ معه أو معهم بقيود تجمعهم.

الثالث: أن كل كافر مقيدٌ مع قرينه الذي أغواه من الشياطين.

أما قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ فالسربال هو القميص الذي يُلبس،

أي: أن قمصانهم التي يلبسونها من قطران، وهو أشبه بالزفت، وهو الذي تطلى به الإبل إذا أصابهم الجرب، قال بعض العلماء إن سرابيلهم من قطران كي تكون أسرع للاشتعال ثم إنها في نفسها تحمل ألمًا شديدًا لمن يلبسها هذا، ومن أصحاب الكبائر من يلبس ذلك أيضًا كما قال ﷺ: «**والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطرانٍ ودرع من جرب**».

هذا، ومن العلماء من قرأ سربيلهم من قَطْرٍ آنٍ وحمل القطر على النحاس، وقال إن قوله: (آنٍ) أي: بلغ أعلى درجات حرارته كما قال تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٤] ففسر قوله سرابيلهم من قطران، أي: من نحاس مذاب منصهر قد بلغ أعلى درجات حرارته.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ أي: وتغطى وجوههم النارُ، كما قال تعالى: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ فمعناه والله أعلم، أن السموات تبدل والأرضين تبدل والساعة تقوم والحساب يكون، كل ذلك لتجازى الأنفس بعملها الذي عملته في دنياها من خيرٍ أو شرٍّ فجازى المحسنون بإحسانهم، ويجازى المسيئون بإساءتهم إلا أن يتجاوز الله ويغفر.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ ففيه وجهان للعلماء.

أحدهما: إن الله سريع حسابه يوم القيامة منجزٌ الحساب بسرعة لا تخفى عليه أمور ولا تغيب عنه أشياء بل هو عالم محيط بكل شيءٍ.

والمعنى الثاني: أن حساب الله سريع، وقد اقترب كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١].

هذا، والقول الأول أولى في هذا المقام، والله أعلم. وهذه أقوال بعض العلماء في الآيات المذكورة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وتعاين الذين كفروا بالله، فاجترموا في الدنيا الشرك يومئذ، يعني: يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات. ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩﴾ يقول: مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد، وهي الوثاق من غلّ وسلسلة، واحدها: صَفَد، يقال منه: صفدته في الصَّفَد صَفْدا وصِفادا، والصفاد: القيد، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

فَآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايا   وأُبْنا بالمُلُوكِ مُصَفَّدِينا

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾ يقول: قمصهم التي يلبسونها، واحدها: سربال، كما قال امرؤ القيس:

لَعُوبٌ تُنَسِّيني إذَا قُمْتُ سِرْبالي

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾ قال: السرابيل: القُمُص. وقوله: ﴿مِّن قَطِرَانٖ﴾ يقول: من القطران الذي يهنأ به الإبل.

قال الطبري:

وفيه لغات ثلاث: يقال: قِطران وقَطْران بفتح القاف وتسكين الطاء منه. وقيل: إن عيسى بن عمر كان يقرأ «مِنْ قِطْرَانٍ» بكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبي النجم:

جَوْنٌ كأنَّ العَرَقَ المَنْتُوحا   لَبَّسُه القِطْرَانَ والمُسُوحا

بكسر القاف، وقال أيضا:

كأنَّ قِطْرَانا إذَا تَلاهَا   تَرْمِي بِهِ الرِّيحُ إلى مَجْرَاها

بالكسر.

قال الطبري: وقال بعضهم: القطران: النحاس.

وأورد من طريق ثابت بن يزيد، قال: ثنا هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس، في هذه الآية «سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرٍ آنٍ» قال: من نحاس، قال: آن أنى لهم أن يعذّبوا به.

وأورده الطبري أيضًا من وجه آخر ضعيف عن ابن عباس ومن وجهين يصحان لطريقيهما عن قتادة ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ قال: من نحاس.

قال الطبري:

وقوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ يقول: وتلفَحُ وجوههم النار فتحرقها ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ يقول: فعل الله ذلك بهم جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا، كيما يثيب كلّ نفس بما كسبت من خير وشرّ، فيَجْزِي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾ يقول: إن الله عالم بعمل كلّ عامل، فلا يحتاج في إحصاء أعمالهم إلى عقد كفّ ولا معاناة، وهو سريع حسابه لأعمالهم، قد أحاط بها علما، لا يعزب عنه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك صغيره وكبيره.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ وتبرز الخلائق لديَّانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

والأصفاد: هي القيود.

ثم قال:

وقوله: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذي تُهنأ به الإبل، أي: تطلى، قاله قتادة. وهو ألصق شيء بالنار.

ويقال فيه: «قَطِران»، بفتح القاف وكسر الطاء، وبفتح القاف وتسكين الطاء، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبي النجم.

كأنّ قِطْرانًا إذا تَلاهَا ... تَرْمي به الرّيح إلى مَجْراها

وكان ابن عباس يقول: القَطِران هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: «سَرَابيلهم من قَطِران» أي: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ كقوله: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وأورد ما أخرجه مسلم[(١)] من حديث أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع من أمر الجاهلية لا يُتْرَكن الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرْع من جَرَب**».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١] ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾ إحصاء.

(١) مسلم (٩٣٤).

(٣٨٢) أحمر
أسود

ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الآية الكريمة أن المجرمين وهم الكفار يوم القيامة يقرنون في الأصفاد، وبين تعالى هذا المعنى في مواضع أُخر كقوله: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان: ١٣]، ونحو ذلك من الآيات.

والأصفاد: هي الأغلال والقيود، واحدها: صفد بالسكون، وصفد بالتحريك، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾، بين في هذه الآية الكريمة أن النار يوم القيامة تغشى وجوه الكفار فتحرقها، وأوضح ذلك في مواضع أُخر، كقوله: ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، وقوله: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾ الآية [الأنبياء: ٣٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي معنى «مُقرَّنين» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم يُقرَّنون مع الشياطين، قاله ابن عباس.

والثاني: أن أيديَهم وأرجلَهم قُرنت إلى رقابهم، قاله ابن زيد.

والثالث: يُقرَّن بعضهم إلى بعض، قاله ابن قتيبة.

وفي الأصفاد ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الأغلال، قاله ابن عباس، وابن زيد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة،

والزجاج، وابن الأنباري.

والثاني: القيود والأغلال، قاله قتادة.

والثالث: القيود، قاله أبو سليمان الدمشقي.

فأما السرابيل، فقال أبو عبيدة: هي القُمُص، واحدها سِربال. وقال الزجاج: السِّربال: كل ما لُبس. وفي القَطِرَانِ ثلاث لغات: فتح القاف وكسر الطاء، وفتح القاف مع تسكين الطاء، وكسر القاف مع تسكين الطاء. وفي معناه قولان:

أحدهما: أنه النحاس المذاب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثاني: أنه قَطِران الإبل.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: الذين وصفهم الإجرام وكثرة الذنوب، ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ في ذلك اليوم ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار فيقادون إلى العذاب في أذل صورة وأشنعها وأبشعها.

﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ أي: ثيابهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها ونتن ريحها، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي: تحيط بها وتصلاها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا ظلما من الله لهم وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من خير وشر بالعدل والقسط الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١] ويحتمل أن معناه: سريع المحاسبة فيحاسب

الخلق في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة لا يشغله شأن عن شأن وليس ذلك بعسير عليه.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: هذا القرآن بما فيه من المواعظ والتذكير بلاغ من الله ﷻ، أبلغتهم رسلهم به عن الله ﷻ، وأيضًا كي يبلغوا به مرضاة ربهم ﷻ وجنته، وكذا أبلغتهم به رسلهم كي ينذروا به ويخوّفوا به من عذاب الله ويُحذِّروا من عذاب الله ﷻ.

وليعلموا بما ف هذا القرآن من الآيات، وبما فيه من الدلالات والعبر والأمثال التي ضربها الله ﷻ للناس فيه وليعلموا من تشريعات الله ﷻ ومن سننه في خلقه ومن أسمائه الحسنى، وصفاته العلى ومن آيات في السموات والأرض وفي أنفسهم وغير ذلك مما في هذا القرآن العظيم، ليعملوا بذلك أن الله ﷻ إله واحد، معبودٌ واحد هو الذي يستحق العبادة، وهو الله ﷻ ليس معه أحدٌ سواه.

ليستدلوا بالقرآن وما فيه على وحدانية الله وأنه ﷻ أحق أن يعبد.

ليستدلوا بالقرآن وما فيه من الآيات على بطلان ما سوى الله ﷻ من الآلهة الباطلة.

كذا فإن هذا البلاغ، هذا القرآن يتعظ ويتذكر به أولوا الألباب أصحاب العقول النيِّرة الرشيدة والأفئدة والقلوب السليمة أهل التوحيد أهل الإيمان جعلنا الله من أولى الألباب المنتفعين بالذكرى وجعلنا الله من أهل الفردوس آمين.

هذا، وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هذا القرآن بلاغ للناس، أبلغ الله به إليهم في الحجة عليهم، وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾ يقول: ولينذروا عقاب الله، ويحذروا به نقماته، أنزله إلى نبيه ﷺ ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يقول: وليعلموا بما احتجّ به عليهم من الحجج فيه أنما هو إله واحد، لا آلهة شتى، كما يقول المشركون بالله، وأن لا إله إلا هو الذي له ما في السماوات وما في الأرض، الذي سخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم، وسخر لهم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لهم الأنهار. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ يقول: وليتذكر فيتعظ بما احتجّ الله به عليه من حججه التي في هذا القرآن، فينزجر عن أن يجعل معه إلها غيره، ويُشْرِك في عبادته شيئا سواه أهلُ الحجى والعقول، فإنهم أهل الاعتبار والادّكار دون الذين لا عقول لهم ولا أفهام، فإنهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال في أول السورة: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١].

﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ﴾ أي: ليتعظوا به، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ أي: ذوو العقول.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾، بين في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن بلاغ لجميع الناس، وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وبين أن من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار كائنًا من كان في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ الآية [هود: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾، بين في هذه الآية الكريمة أن من حكم إنزال القرآن العظيم العلم بأنه تعالى إله واحد، وأن من حكمه أن يتعظ أصحاب العقول، وبين هذا في مواضع أُخر فذكر الحكمة الأولى في أول «سورة هود» في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ١، ٢]، كما تقدم إيضاحه، وذكر الحكمة الثانية في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وهم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، واحد الألباب، لب بالضم، والعلم عند الله تعالى.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ في المشار إليه قولان:

أحدهما: أنه القرآن.

والثاني: الإنذار. والبلاغ: الكفاية. قال مقاتل: والمراد بالناس: أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: أُنزل ليُنذروا به، وليعلموا بما فيه من الحُجج ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ﴾ أي: وليتعظ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي:

يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غضًّا طريًّا فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها.

وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة.

والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة إبراهيم.



تفسير سورة الحجر

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ
يَعۡلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ
مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ
إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا
نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا
لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ
۝١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ
مَّسۡحُورُونَ ۝١٥﴾ [الحجر: ١-١٥].

(٣٨٩) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ٱلْكِتَٰبِ - رُّبَمَا - يَوَدُّ - ذَرْهُمْ - وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ - كِتَابٌ مَّعْلُومٌ - مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا - لَّوْ مَا تَأْتِينَا - مُّنظَرِينَ - ٱلذِّكْرَ - لَحَٰفِظُونَ - شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ - نَسْلُكُهُۥ - سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ - يَعْرُجُونَ - سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا - مَّسْحُورُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾	قيل: المراد جنس الكتب التي أنزلت قبل رسولنا محمد ﷺ، ومنها التوراة والإنجيل.
﴿رُّبَمَا﴾	قد تأتي على الكفار أوقات كثيرة. (رُبَّ) كلمة تطلق أحيانًا للتكثير، وأحيانًا للتقليل، والمراد هنا التكثير، والمعنى: رب أوقات كثيرة.
﴿يَوَدُّ﴾	يتمنى.
﴿ذَرْهُمْ﴾	اتركهم.
﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾	تشغلهم الأماني الباطلة.
﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾	المراد: أجلٌ معلوم مكتوب في كتاب.
﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾	ما ينزل العذاب والهلاك على أمة قبل ميعاده.
﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾	ولا يتأخر عن موعده كذلك
﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾	لولا آتيتنا (بالملائكة تشهد لك).
﴿مُّنظَرِينَ﴾	مُؤخرين – مؤجلين.

(٣٩٠) أحمر
أسود

﴿ٱلذِّكۡرَ﴾	القرآن.
﴿لَحَٰفِظُونَ﴾	حافظون له من التبديل والتغيير والتحريف، وحافظون له من الشياطين التي تحاول الزيادة فيه أو النقصان منه.
﴿شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾	جماعات الأولين – الأمم المتقدمة.
﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾	ندخله (أي: ندخل التكذيب والكفر والاستهزاء).
﴿يَعۡرُجُونَ﴾	يصعدون.
﴿سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾	أصابها ما يصيب عين السكران. عميت – سُدَّت – رأت الأمور على غير حقيقتها.
﴿مَّسۡحُورُونَ﴾	سحرنا ساحر.



(٣٩١) أحمر
أسود

س: في قوله تعالى: ﴿ رُّبَمَا ﴾ قراءتان وضحهما.

ج: إحدى القراءتين بالتشديد ﴿رُبَّما﴾.

والأخرى بالتخفيف ﴿ رُّبَمَا ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلفت القراء في قراءة قوله ﴿رُبَمَا﴾ فقرأت ذلك عامة قرّاء أهل المدينة وبعض الكوفيين ﴿رُبَمَا﴾ بتخفيف الباء، وقرأته عامة قرّاء الكوفة والبصرة بتشديدها.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، ولغتان معروفتان بمعنى واحد، قد قرأ بكلّ واحدة منهما أئمة من القرّاء، فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب.



س: ما المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن المراد بالكتاب هو التوراة والإنجيل، فالكتاب اسم جنس، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٥]، أي: وأنزلنا معهم الكتب.

الثاني: أن المراد بالكتاب القرآن، وكرر التذكير به لوصفه كما سيأتي. والله أعلم.



س: ما الوقت الذي يتمنى فيه أهل الكفر أو لو كانوا مُسلمين؟

ج: يتمنون ذلك في مواطن:

أحدها: أنهم يقولون ذلك إذا حضر أحدهم الموت (أي: عند الاحتضار)

كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

الثاني: أنهم يقولون ذلك إذا رأوا النار ووقفوا عليها كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ ﴾ [الأنعام: ٢٧].

الثالث: أنهم يقولون ذلك وهم في النار، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧].

الرابع: أنهم يتمنون إذا اجتمعوا مع عصاة الموحدين في النار فيقولون لعصاة الموحدين بماذا نفعكم إيمانكم فيتفضل الله على عصاة الموحين ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة فعندنا يتمنى أهل الكفر لو كانوا في الدنيا مسلمين.

وقد أورد الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة آثار بذلك عن الصحابة والتابعين وغيرهم، وأورد هو وغيره بعض الأحاديث في هذا المعنى عن رسول الله ﷺ، ولا يثبت من المرفوع شيءٌ عن النبي ﷺ.

أما الموقوفات على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فقد صح هذا بمجموع طرقه.

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: يدخل الجنة ويرحم حتى يقول في آخر ذلك: من كان مسلمًا فليدخل الجنة، قال: فذلك قوله ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ﴾. وهذا يصح لشواهده عن ابن عباس.

وأورد الطبري -كما أشرت- آثارًا بنحو المعنى المذكور عن أبي موسى، وابن مسعود، وأنس بن مالك وغيرهم، وفي أسانيدها بعض المقال عنهم.

هذا، وقد أخرج الطبري بسندٍ صحيح عن حماد، قال: سألت إبراهيم عن هذه الآية ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ﴾ قال: حدثت أن المشركين قالوا لمن دخل النار من المسلمين: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون،

قـال: فيغضـب الله لهـم، فيقـول للملائكـة والنبيـين: اشـفعوا، فيشـفعون، فيخرجون من النار، حتى إن إبليس ليتطاول رجاء أن يخرج معهم، قال: فعند ذلك يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

وأورد الطبري آثارًا أُخر في هذا الصدد:

قلت (مصطفى): وكلها مواطن يتمنى الكفار فيها لو كانوا مسلمين في الدنيا، ولا يمنع أن يكون هناك مواطن أُخر يتمنون فيها أن لو كانوا مسلمين في الدنيا. والله أعلم.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

واختلف المفسرون متى يقع هذا من الكفار، على قولين: أحدهما: أنه في الآخرة. ومتى يكون ذلك؟ فيه أربعة أقوال. أحدها: أنه إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم مَنْ شاء الله من أهل القِبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها؛ فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القِبلة فأُخرجوا فلما رأى ذلك الكفار، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنُخرَج كما أُخرجوا، رواه أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ[1]، وذهب إليه ابن عباس في رواية وأنس بن مالك، ومجاهد، وعطاء، وأبو العالية، وإبراهيم. والثاني: أنه ما يزال الله يرحم ويشفِّع حتى يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة، فذلك حين يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين، رواه مجاهد عن ابن عباس. والثالث: أن الكفار إذا عاينوا القيامة، وَدُّوا لو كانوا مسلمين، ذكره الزجاج. والرابع: أنه كلما رأى أهل الكفر حالًا من أحوال القيامة يعذَّب فيها الكافر ويَسلم من مكروهها المؤمن، وَدُّوا ذلك، ذكره ابن الأنباري.

(١) وهذا لا يثبت عن رسول الله ﷺ.

(٣٩٤) أحمر
أسود

والقول الثاني: أنه في الدنيا إذا عاينوا وتبين لهم الضلال من الهدى وعلموا مصيرهم، وَدُّوا ذلك، قاله الضحاك.

فإن قيل: إذا قلتم: إن «رُبَّ» للتقليل، وهذه الآية خارجة مخرج الوعيد، فإنما يناسب الوعيدَ تكثيرُ ما يُتواعَد به؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري:

أحدهن: أن «ربما» تقع على التقليل والتكثير، كما يقع الناهل على العطشان والريَّان، والجَوْن على الأسود والأبيض.

والثاني: أن أهوال القيامة وما يقع بهم من الأهوال تكثُر عليهم، فإذا عادت إليهم عقولهم، وَدُّوا ذلك.

والثالث: أن هذا الذي خُوِّفوا به، لو كان مما يُوَدُّ في حال واحدة من أحوال العذاب، أو كان الإنسان يخاف الندم إذا حصل فيه ولا يتيقّنُه، لوجب عليه اجتنابه.

فإن قيل: كيف جاء بعد «ربما» مستقبَل، وسبيلها أن يأتي بعدها الماضي، تقول: ربما لقيت عبد الله؟

فالجواب: أن ما وَعَدَ اللهُ حَقٌّ، فمستقبَلُه بمنزلة الماضي، يدل عليه قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة ١١٦] وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ ٥١]، على أن الكسائي والفراء حكيا عن العرب أنهم يقولون: ربما يندم فلان، قال الشاعر:

رُبَّما تجزَعُ النفوس من الأمـ ... ـرِ له فُرجَةٌ كَحَلِّ العِقالِ

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ﴾ أي: دع الكفار يأخذوا حظوظهم في الدنيا، ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي: ويشغلهم ما يأملون في الدنيا عن أخذ حظهم من الإيمان والطاعة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا وردوا القيامة وبالَ ما صنعوا، وهذا وعيد وتهديد،

وهذه الآية عند المفسرين منسوخه بآية السيف.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾.

ج: أما ﴿الٓرۚ﴾ فهي حروف مقطعة لا يعلم معناها إلا الله.

وقيل: إنها سيقت للتحدي، فكأن المعنى الف ولام وراء أحرف تعرفونها تقرؤنها وتكتبونها ولكن لا تستطيعوا أن تأتوا منها ولا بآية فضلًا عن سورة.

أما قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: تلك الآيات الدالة على أحسن المعاني وأجملها وأفضلها هي الآيات التي ذكرها الله ﷻ في كتبه المنزلة، وفي القرآن الذي أنزله، أيضًا موضحًا ومظهرًا لوحدانية الله وقدرته ﷻ.

فقوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على التأويل السابق اسم جنس يطلق على سائر الكتب المنزلة من قبل، والتي من أشهرها وأهمها التوراة والإنجيل، وكونه اسم جنس كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٥] أي: الكتب، فهذا الوجه الأول في تأويل الكتاب.

أما الوجه الثاني في ذلك فالمراد بالكتاب: القرآن، ويكون جمع له بين اسمين، الكتاب، والقرآن، ويكون المعنى: تلك الآيات التي نتلوها آيات الكتاب المنزل عليك، وهو قرآن واضح المعاني والدلالات ومظهر أيضًا لقدرة الله ووحدانيته وأحكامه وشرائعه.

أما قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ أي: كثيرًا ما سيأتي على الكفار أوقات يتمنون فيها أن لو كانوا أسلموا، وآمنوا في الحياة الدنيا، فمن هذه الأوقات – كما تقدم، وقت الاحتضار، ووقت وقوفهم على

النار، وكذا وهم موجودون في النار يعذبون فيها، ويصطرخون فيها وكذا إذا رأوا عصاة الموحدين خرجوا من النار، وإذا رأوا أصحاب الأعراف قد دخلوا الجنة.

فعند هذه الأوقات يتمنون أن لو كانوا مسلمين.

وفي الآية الكريمة تصبيرٌ لرسول الله ﷺ وتثبيتٌ له، أي: فاصبر يا رسول الله فستأتي أوقات يتمنى أهل الكفر لو أنهم كانوا أسلموا.

أما قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ فهذا تهديدٌ لأهل الكفر، أي: دعهم يا رسول الله فيما هم فيه من الضلال واللهو واللعب، ذرهم يأكلوا ما شاء من الطعام ويتمتعوا في دنياهم بما شاء وتشغلهم الآمال والطموحات حتى يأتيهم الموت، وعند ذلك سيعلمون من المحق من المبطل، ومن الجرم، ومن المؤمن.

ومن الذي كان على هدى ورشاد، ومن الذي كان على عمًى وضلال.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

أما قوله جلّ ثناؤه: وتقدّست أسماؤه ﴿الٓر﴾، فقد تقدم بيانها فيما مضى قبل. وأما قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ فإنه يعني: هذه الآيات، آيات الكتب التي كانت قبل القرآن كالتوراة والإنجيل ﴿وَقُرْآنٍ﴾ يقول: وآيات قرآن ﴿مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ يقول: يُبِين من تأمله وتدبَّره رشدَه وهداه.

وأورد آحاديث ضعيفة وآثارًا ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فتأويل الكلام: ربما يودّ الذين كفروا بالله فجحدوا وحدانيته لو كانوا في دار الدنيا مسلمين.

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ذر يا محمد هؤلاء المشركين يأكلوا في

هذه الدنيا ما هم آكلوه، ويتمتعوا من لذاتها وشهواتهم فيها إلى أجلهم الذي أجلت لهم، ويلههم الأمل عن الأخذ بحظهم من طاعة الله فيها، وتزوّدهم لمعادهم منها بما يقربهم من ربهم، فسوف يعلمون غدا إذا وردوا عليه. وقد هلكوا على كفرهم بالله وشركهم حين يُعاينون عذاب الله أنهم كانوا من تمتعهم بما كانوا يتمتعون فيها من اللذّات والشهوات كانوا في خسار وتباب.

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ تهديد لهم شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٠] وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المرسلات: ٤٦] ولهذا قال: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي: عن التوبة والإنابة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: عاقبة أمرهم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا عرفوا حقيقة الأمر تمنوا أنهم كانوا في دار الدنيا مسلمين، وندموا على كفرهم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام: ٣١]، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾، إلى غير ذلك من الآيات، وأقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى شيء واحد؛ لأن من يقول: إن الكافر إذا احتضر وعاين الحقيقة تمنى أنه كان مسلما، ومن يقول: إنه إذا عاين النار ووقف عليها تمنى أنه كان مسلما، ومن يقول: إنهم إذا عاينوا إخراج الموحدين من النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين، كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة ندموا على الكفر وتمنوا أنهم كانوا مسلمين.

(٣٩٨) أحمر
أسود

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ورب في هذا الموضع قال بعض العلماء للتكثير، أي: يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين. ونقل القرطبي هذا القول عن الكوفيين قال ومنه قول الشاعر:

ألا ربما أهدت لك العين

البيت.

وقال بعض العلماء: هي هنا للتقليل؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب. فإن قيل: ربما لا تدخل إلا على الماضي، فما وجه دخولها على المضارع في هذا الموضع؟ فالجواب: أن الله تعالى لما وعد بوقوع ذلك صار ذلك الوعد للجزم بتحقيق وقوعه، كالواقع بالفعل، ونظيره قوله تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ الآية، ونحوها من الآيات، فعبر بالماضي تنزيلا لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع بالفعل.

وقال الشنقيطي أيضًا:

قوله تعالى: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ ﴾.

هدد الله تعالى الكفار في هذه الآية الكريمة بأمره نبيه - ﷺ - أن يتركهم يأكلون ويتمتعون، فسوف يعلمون حقيقة ما يئول إليه الأمر من شدة تعذيبهم وإهانتهم. وهددهم هذا النوع من التهديد في مواضع أخر كقوله: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦﴾ [المرسلات: ٤٦]، وقوله: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزمر: ٨]، وقوله: ﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٨٣ ﴾ [الزخرف: ٨٣]، وقوله: ﴿ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ٤٥ ﴾ [الطور: ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد تقرر في فن المعاني وفي مبحث الأمر عند الأصوليين أن من المعاني التي تأتي لها صيغة افعل التهديد، كما في الآية المذكورة، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ يعني اتركهم.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن القرآن هو الكتاب، جُمع له بين الاسمين.

والثاني: أن الكتاب: هو التوراة والإنجيل، والقرآن: كتابُنا.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم المنان):

يقول تعالى معظما لكتابه مادحا له ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني وأفضل المطالب، ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله على المقصود، وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه، والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول والفرح والسرور.

فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها، فإنه من المكذبين الضالين، الذين سيأتي عليهم وقت يتمنون أنهم مسلمون، أي: منقادون لأحكامه وذلك حين ينكشف الغطاء وتظهر أوائل الآخرة ومقدمات الموت، فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

فـ ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ بلذاتهم ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي: يؤملون البقاء في الدنيا فيلهيهم عن الآخرة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ أن ما هم عليه باطل وأن أعمالهم ذهبت خسرانا عليهم ولا يغتروا بإمهال الله تعالى فإن هذه سنته في الأمم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وما عذَّبنا قرية ولا أمتنا أهلها إلا عند انقضاء آجالها التي سُطِّرت لها في كتاب، فلكل أمة أجلٌ معلوم مثبت في كتاب عند الله ﷻ إذا بلغته أهلكها الله بإنزال عذابه عليها أو بإماتة أهلها.

أما قوله تعالى: ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾. أي: لا يتقدم العذاب الآية أمة من الأمم إلى عند الأجل الذي حددناه لها.

وكذلك إذا جاء هذا الأجل فلا تستأخر عنه هذه الأمة.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا ﴾ يا محمد ﴿مِن﴾ أهل ﴿قَرۡيَةٍ ﴾ من أهل القرى التي أهلكنا أهلها فيما مضى ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ ﴾ يقول: إلا ولها أجل مؤقَّت ومدة معروفة، لا نهلكهم حتى يبلغوها، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك، فيقول لنبيه محمد ﷺ، فكذلك أهل قريتك التي أنت منها وهي مكة، لا نهلك مشركي أهلها إلا بعد بلوغ كتابهم أجله، لأن مِنْ قضائي أن لا أهلك أهل قرية إلا بعد بلوغ كتابهم أجله.

ويقول تعالى ذكره: ما يتقدّم هلاك أمة قبل أجلها الذي جعله الله أجلا لهلاكها، ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذي جعل لها أجلا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد،

الذي يستحقون به الهلاك.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ ﴾ أي: ما عذَّبنا من أهل قرية ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ أي أجل مؤقَّت لا يُتقدم ولا يُتأخر عنه. ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ «من» صِلة، والمعنى: ما تتقدم وقتها الذي قدِّر لها بلوغه، ولا تستأخر عنه. قال الفراء: إِنما قال: «أَجَلها» لأن الأمَّة لفظُها مؤنث، وإِنما قال: «يستأخرون» إِخراجًا له على معنى الرجال.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: أن أهل الكفر قالوا لرسول الله ﷺ: ساخرين مستهزئين يا من يزعم أنه نُزِّل عليه القرآن من عند الله، إنك لمجنون فيما تقول وتزعم، قد أصابك خبلٌ فجعل تقول الذي قلت، وإن كنت صادقًا في قيلك فهلا أتيتنا بالملائكة تشهد لك أن الله ﷻ ارسلك فقال تعالى مجيبًا على إيرادهم هذا بقوله: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾، ما ننزل الملائكة إلا بالوحي، وكذا بالعذاب وقبض الأرواح، فلأنهم لا يوحي إليهم فالملائكة إذا تنزلت عليهم تتنزل عليهم بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٢٢ ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ ﴾ [الأنعام: ٨] أي: ثم لا يؤخرون ولا يمهلون.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون لك من قومك يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ وهو القرآن الذي ذكر الله فيه مواعظ خلقه ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ في دعائك إيانا إلى أن نتَّبعك، ونذر آلهتنا ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ قالوا: هلا تأتينا بالملائكة شاهدة لك على صدق ما تقول؟ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾ يعني: إن كنت صادقا في أن الله تعالى بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك كتابا، فإن الربّ الذي فعل ما تقول بك، لا يتعذّر عليه إرسال ملك من ملائكته معك حجة لك علينا، وآية لك على نبوّتك، وصدق مقالتك: والعرب تضع موضع لوما: لولا وموضع لولا لوما، من ذلك قول ابن مقبل:

لَوْما الحَياءُ وَلَوْمَا الدِّينُ عِبْتُكما ... ببَعْضِ ما فيكُما إذْ عِبْتُمَا عَوَرِي

يريد: لولا الحياء.

وأورد الطبري وجوهًا من القراءات في قوله تعالى: ﴿نُنَزِّلُ﴾.

وقال:

ما ننزل ملائكتنا إلا بالحقّ، يعني بالرسالة إلى رسلنا، أو بالعذاب لمن أردنا تعذيبه. ولو أرسلنا إلى هؤلاء المشركين على ما يسألون إرسالهم معك آية فكفروا لم يُنظروا فيؤخروا بالعذاب، بل عوجلوا به كما فعلنا ذلك بمن قبلهم من الأمم حين سألوا الآيات فكفروا حين آتتهم الآيات، فعاجلناهم بالعقوبة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ أي: الذي يدعي ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا. ﴿لَّوۡ مَا﴾ أي: هلا ﴿تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي:

يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾ كما قال فرعون: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ [الزخرف: ٥٣] ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ۝٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٢٢﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢].

وكذا قال في هذه الآية: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ بالرسالة والعذاب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قاله كفار قريش لمحمد ﷺ على وجهة الاستهزاء، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه. و﴿لَّوۡ مَا﴾ تحضيض على الفعل كلولا وهلا. وقال الفراء: الميم في «لو ما» بدل من اللام في لولا. ومثله استولى على الشيء واستومى عليه.

...ثم قال:

«إلا بالحق» إلا بالقرآن. وقيل: بالرسالة، عن مجاهد. وقال الحسن: إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا. ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ أي لو تنزلت الملائكة بإهلاكهم لما أمهلوا ولا قبلت لهم توبة. وقيل: المعنى لو تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا بعد ذلك لم ينظروا. وأصل «إذا» إذ أن- ومعناه حينئذ- فضم إليها أن، واستثقلوا الهمزة فحذفوها.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي المراد بالحق أربعة أقوال:

أحدها: أنه العذاب إن لم يؤمنوا، قاله الحسن.

والثاني: الرساله، قاله مجاهد.

والثالث: قبض الأرواح عند الموت، قاله ابن السائب.

والرابع: أنه القرآن، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ﴾ يعني: المشركين ﴿إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ أي: عند نزول الملائكة إذا نزلت.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ ﴾ قد يقال في هذه الآية الكريمة: كيف يقرون بأنه أنزل إليه الذكر وينسبونه للجنون مع ذلك؟ والجواب أن قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾ يعنون في زعمه تهكما منهم به، ويوضح هذا المعنى ورود مثله من الكفار متهكمين بالرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - في مواضع أخر، كقوله تعالى عن فرعون مع موسى قال: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾.

وقوله عن قوم شعيب ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾.

قوله تعالى ﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧ ﴾. لو ما في هذه الآية الكريمة للتحضيض، وهو طلب الفعل طلبا حثيثا. ومعنى الآية: أن الكفار طلبوا من النبي ﷺ طلب تخصيص أن يأتيهم بالملائكة ليكون إتيان الملائكة معه دليلا على صدقه أنه رسول الله ﷺ وبين طلب الكفار هذا في آيات أخر كقوله عن فرعون مع موسى: ﴿ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣ ﴾ [الزخرف: ٥٣] وقوله: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١ ﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ [الأنعام: ٨] الآية، وقوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ ﴾ [الفرقان: ٧]، وقوله: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ ﴾ [الإسراء: ٩٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ على زعمك ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ إذ تظن أنا سنتبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك.

﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق، وهذا من أعظم الظلم والجهل.

أما الظلم فظاهر فإن هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يخترها وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس في إنزال الملائكة، خير لهم بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا﴾ أي: حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا بـ﴿مُّنظَرِينَ ٨﴾ أي: بمهملين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلا لأنفسهم بالهلاك والدمار، فإن الإيمان ليس في أيديهم وإنما هو بيد الله، ﴿۞وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١﴾ [الأنعام: ١١١] ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين، هذا القرآن العظيم.



س: وضح منى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾.

ج: يُخبر الله جل ذِكره أنه تبارك وتعالى هو الذي نزل القرآن على رسوله ﷺ، وأخبر الله ﷻ أنه حافظ لهذا القرآن، حافظ له من التبديل والتغيير

والتحريف، حافظ له من الزيادة والنقصان، وحافظ له من الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢] أي: لا يأتيه الشيطان بزيادة ولا يستطيع إنقاص شيء منه لا عند نزوله ولا بعد نزوله، وكذا شياطين الإنس وعموم شياطين الجن.

ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: ١٧-١٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧﴾ [الجن: ٢٧] أي: ملائكة يحرسونه ويرصدونه عند نزوله حتى لا يُدخل الشيطان فيه شيئًا ولا ينقص منه شيئًا.

هذا، وثمَّ قول ضعيف في تفسير الآية، جعل قائله الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف: ١٢] عائدًا على رسول الله ﷺ، أي: وإنا لرسولنا حافظون، لكن هذا المعنى لا يتحمله السياق، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ وهو القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه، والهاء في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ من ذكر الذكر.

وأورد بسندٍ حسنٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)] عن قتادة، قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾، قال في آية أخرى ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ والباطل: إبليس ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ فأنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلا ولا ينتقص

(١) وله طريق آخر عن قتادة يصحح به، ولفظه: حفظه الله من أن يزيد فيه الشيطان باطلًا أو ينقص منه حقًّا.

منه حقا، حفظه الله من ذلك.

وأورد الطبري وجهًا أراه ضعيفًا في تفسير الآية حيث قال: وقيل: الهاء في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ من ذكر محمد ﷺ بمعنى: وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ على النبي ﷺ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من معانيه إلا وقيض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدوا يجتاحهم.



س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك يا رسول الله إلى الأمم المتقدمة، والجماعات المتقدمة، كقوم عاد وثمود وكقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع وقوم فرعون وغيرهم، فالشيع هي الأمم والجماعات، وكل هذه الأمم كذبت رسلها فما يأتي أمةً من رسول إلا سخروا منه واستهزأوا به، فهكذا يصنعون وكالذي صنعاه بالكفار المتقدمين نصنعه بهؤلاء المشركين من القرشيين وغيرهم من الذي أُرسلت إليهم فكذبوك فكما أدخلنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل، كما أدخلنا ذلك قلوب الكفار الأولين فكفروا وكذبوا واستهزؤا كذلك ندخل التكب والاستهزاء والكفر في قلوب هؤلاء الذين دعوتهم إلى الله فخالفوك، ندخله في قلوب هؤلاء الذين اجترموا الشرك والكفر، فلا يؤمنون بما جئتهم به من عند الله ﷻ، وقد مضت سنة الأولين وطريقتهم في ذلك، فإنهم كذبوا الرسل وجحدوا وحدانية ربهم ﷻ، ومهما أتيناهم من معجزات وآيات ودلالات على قدرتنا ووحدانيتنا فإنهم لن يؤمنوا، وقد أدخلنا التكذيب في قلوبهم، حتى لو فتحنا عليهم بابًا من السماء فصعدت الملائكة الذين طلب أهل الشرك رؤيتهم عيانًا وطلبوا أن تأتيهم بالملائكة يشهدون لك بصدقك، فلو فتحنا أبواب السماء فصعدت الملائكة فيه على درج درجة درجة، ورآهم الكفار ما صدَّق الكفار ذلك بل لقالوا إنما سكِّرت أبصارنا أصابها ما أصابها بسبب الخمر الذي شربناه فسكرنا فلم نعد نرى الأمور على حقيقتها، بل لقد سُحرنا فنحن قدم سحرنا ساحرٌ ولا نستطيع أن نحكم على الأشياء التي نراها بالصحة أثناء سحرنا وسكرنا، فقوم يقولون: إذا رأوا الملائكة تصعد أمامهم نحن شربنا خمرًا فسكرنا، وآخرون يقولون: بل سحرنا ساحرٌ فنحن مسحورون.

هذا، ومن العلماء من قال: إن قوله تعالى: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤﴾ عائدٌ على الكفار، فالمعنى: ولو فتحنا للكفار بابًا في السماء فصعدوا إلى السماء وارتفوا شيئًا فشيئًا لقال فريق منهم إنما سكرت أبصارنا، ولقال فريق آخر بل نحن قوم مسحورون.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك في الأمم الأوّلين رسلا وترك ذكر الرسل اكتفاء بدلالة قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ عليه، وعنى بشيع الأوّلين: أمم الأوّلين: واحدتها شيعة، ويقال أيضا لأولياء الرجل: شيعته.

وقوله: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾ يقول: وما يأتي شيع الأوّلين من رسول من الله يرسله إليهم بالدعاء إلى توحيده، والإذعان بطاعته،إلا كانوا به يستهزءون: يقول: إلا كانوا يسخرون بالرسول الذي يرسله الله إليهم عتُوّا منهم وتمرّدا على ربهم.

ويقول تعالى ذكره: كما سلكنا الكفر في قلوب شيع الأولين بالاستهزاء بالرسل، كذلك نفعل ذلك في قلوب مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر بالله ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ يقول: لا يصدّقون بالذكر الذي أنزل إليك، والهاء في قوله: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ من ذكر الاستهزاء بالرسل والتكذيب بهم.

وقوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ يقول تعالى ذكره: لا يؤمن بهذا القرآن قومك الذين سلكت في قلوبهم التكذيب ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١﴾ [الشعراء: ١٠٢] أخذا منهم سنة أسلافهم من المشركين قبلهم من قوم عاد وثمود وضربائهم من الأمم التي كذّبت رسلها، فلم تؤمن بما جاءها من عند الله حتى

حلّ بها سخط الله فهلكت.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

اختلف أهل التأويل في المعنيين بقوله: ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ فقال بعضهم: معنى الكلام: ولو فتحنا على هؤلاء القائلين لك يا محمد ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ بابا من السماء فظلت الملائكة تعرج فيه وهم يرونهم عيانا ﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وقال آخرون: إنما عُني بذلك: بنو آدم.

ومعنى الكلام عندهم: ولو فتحنا على هؤلاء المشركون من قومك يا محمد بابا من السماء فظلوا هم فيه يعرجون ﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾.

وأما قوله ﴿يَعْرُجُونَ﴾ فإن معناه: يرقَوْن فيه ويَصْعَدون، يقال منه: عرج يعرُج عُروجا إذا رَقَى وصَعَد، وواحدة المعارج: معرج ومعراج، ومنه قول كثير:

إلى حَسَبٍ عَوْدٍ بَنا المرءَ قبلَهُ   أبُوهُ لَهُ فِيهِ مَعارِجَ سُلَّمِ

وأورد الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوالًا في تفسير قولهم: ﴿سُكِّرَتْ﴾ منها: سُدَّت، ومنها أُخذت، ومنها: عميت، ومنها: أنه مأخوذٌ من السُّكر، ومعناه غُشي على أبصارنا فلا نبصر، كما يفعل السّكرُ بصاحبه فذلك إذا دير به وغُشي بصره كالسمادير فلا يبصر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: أخذت أبصارنا وسحرت، فلا تبصر الشيء على ما هو به، وذهب حدّ إبصارها، وانطفأ نوره، كما يقال للشيء الحارّ إذا ذهبت فورته، وسكن حدّ حرّه، قد

سكر يسكر.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي الضلال والكفر والاستهزاء والشرك. ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ من قومك، عن الحسن وقتادة وغيرهما. أي كما سلكناه في قلوب من تقدم من شيع الأولين كذلك نسلكه في قلوب مشركي قومك حتى لا يؤمنوا بك، كما لم يؤمن من قبلهم برسلهم.

... ثم قال:

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فما أقرب هؤلاء من الهلاك. وقيل: ﴿خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر، فهم يقتدون بأولئك.

وقال القرطبي أيضًا:

يقال: ظل يفعل كذا، أي يفعله بالنهار. والمصدر الظلول. أي لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعللوا بالخيالات، كما قالوا للقرآن المعجز: إنه سحر. ﴿يَعْرُجُونَ﴾ من عرج يعرج أي صعد. والمعارج المصاعد. أي لو صعدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر، عن الحسن وغيره. وقيل: الضمير في ﴿عَلَيْهِم﴾ للمشركين. وفي ﴿فَظَلُّواْ﴾ للملائكة، تذهب وتجيء أي لو كشف لهؤلاء حتى يعاينوا أبوابا في السماء تصعد فيها الملائكة وتنزل لقالوا: رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له، عن ابن عباس وقتادة. ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ سدت بالسحر، قاله ابن عباس والضحاك. وقال الحسن: سحرت. الكلبي: أغشيت أبصارنا، وعنه أيضا عميت. قتادة: أخذت. وقال المؤرج: دير بنا، من الدوران، أي صارت أبصارنا سكرى. جويبر: خدعت.

وأورد القرطبي أقوالًا في تفسير قولهم: ﴿سُكِّرَتْ﴾ ثم قال:

وهذه الأقوال متقاربة. والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى، قال: هو من السكر في الشراب. وهذا قول حسن، أي غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله. وسكور الريح سكونها وفتورها، فهو يرجع إلى معنى التحيير.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مسليا لرسوله في تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به.

ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى.

قال أنس، والحسن البصري: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢﴾ يعني: الشرك.

وقوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ أي: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم بابا من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا بذلك، بل قالوا: ﴿سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾.

قال مجاهد وابن كثير، والضحاك: سدت أبصارنا.

وقال قتادة، عن ابن عباس: أخذت أبصارنا.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ يعني: رسلًا، فحُذف المفعولُ، لدلالة

الإرسال عليه. والشِّيَع: الفِرَق، وحكي عن الفراء أنه قال: الشيعة. الأمَّة المتابعة بعضها بعضًا فيما يجتمعون عليه من أمر.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هذا تعزية للنبي ﷺ، والمعنى: إنَّ كل نبيٍّ قبلك كان مبتلىً بقومه كما ابتُليتَ.

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ ﴾ في المشار إليه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الشِّرك، قاله ابن عباس، والحسن، وابن زيد.

والثاني: أنه الاستهزاء، قاله قتادة.

والثالث: التكذيب، قاله ابن جريج، والفراء.

ومعنى الآية: كما سلكنا في قلوب شِيَع الأولين، نُدخل في قلوب هؤلاء التكذيبَ فلا يؤمنوا. ثم أخبر عن هؤلاء المشركين، فقال: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾. وفي المشار إليه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الرسول.

والثاني: القرآن.

والثالث: العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: مضت سُنَّة الله في إهلاك المكذِّبين.

والثاني: مضت سُنَّتهم بتكذيب الأنبياء.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وقال السعدي (تيسير الكريم الرحمن):

يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾ أي: فرقهم وجماعتهم رسلا.

﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾ يدعوهم إلى الحق والهدى ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ ﴾ أي: ندخل التكذيب ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢﴾ أي: الذين وصفهم لظلم والبهت، عاقبناهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب، تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان ولهذا قال:

﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ أي: عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله. أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة لم يؤمنوا وكابروا ﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عيانا بأنفسهم لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكرين لهذه الآية:

﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا ﴾ أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر، ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ
شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨ وَٱلۡأَرۡضَ
مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ
فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا
نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ
فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ
ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤ وَإِنَّ
رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥﴾ [الحجر: ١٦-٢٥].

(٤١٦) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿بُرُوجًا - وَزَيَّنَّـٰهَا - رَّجِيمٍ - ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ - شِهَابٌ مُّبِينٌ - مَدَدْنَـٰهَا - رَوَٰسِىَ - مَّوْزُونٍ - مَعَـٰيِشَ -وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ - وَإِن مِّن شَىْءٍ - بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ - لَوَٰقِحَ - فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ - بِخَـٰزِنِينَ - ٱلْوَٰرِثُونَ - ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ - ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ - يَحْشُرُهُمْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿بُرُوجًا﴾	كواكب عظيمة - قصورًا.
﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾	حسَّناها.
﴿رَّجِيمٍ﴾	مرجوم.
﴿ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾	تصنت على الملائكة فاستمع بعض حديثهم وسرقه كي يلقيه على من بعده من الجن لإلقائه على ألسنة الكهنة والسحرة.
﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾	شعلة من نار، قبس من نار منفصل عن الكوكب والنجم.
﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾	بسطناها.
﴿رَوَٰسِىَ﴾	جبالًا راسيات.
﴿مَّوْزُونٍ﴾	مقدرٌ معلوم.
﴿مَعَـٰيِشَ﴾	ما تقوم به معيشتكم من أكل وشرب ومركب ومسكن ونحو ذلك.

(٤١٧) أحمر
أسود

﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾	من ليس رزقه عليكم (الوحوش والدواب والأنعام والعبيد).
﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ ﴾	ما من شيء.
﴿بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾	بحجم معلوم وكمية معلومة على قدر الحاجة والنفع.
﴿لَوَٰقِحَ﴾	مُلقِّحة، وقيل: هي المُلحَقَّة. فالأول (بكسر القاف مع التشديد) أي: تلقخ السحب والأشجار والثاني: محملة بالماء.
﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾	فجعلناه سقينا لكم ولدوابكم.
﴿بِخَٰزِنِينَ﴾	بما نعين (من إنزاله على من نشاء).
﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾	الذين نرث الأرض ومن عليها بعد موتكم.
﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾	الأمم المتقدمة الهالكة.
﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾	الأمم الموجودة والتي لم تأت بعد.



(٤١٨) أحمر
أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ١٨﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: ولقد جعلنا في السماء كواكب عظيمةً ونجومًا كبارًا، وقصورًا كذلك، وحسّناها (أي: السماء) لمن ينظر إليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

أما قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ١٧﴾ أي: وحفظنا السماء الدنيا من كل شيطان رجيم، أي: منعناها من اقتراب الشياطين، منعنا الشياطين من الاقتراب منها، ومن التسمع والتصنت على ما فيها من أخبار.

لكن الشيطان الذي يحاول استراق السمع، أي: يحاول أن يتجسس ويتصنت ويتسمع لما تتحدث به الملائكة في السماء الدنيا، ويسرق كلمة من الكلمات التي لا تتحدث بها الملائكة، فيخطفها كي يلقيها على من بعده من مسترقي السمع من أمثاله.

فمسترقو السمع بعضهم فوق بعض – فهذا يتبعه شهاب، قبس من نار، وشعلة من نار منفصلة عن الكوكب فتحرقه، وقد ذكر هذا بتفصيل في سورتي سبأ والجن.

ثم هذه أقوال بعض العلماء في هذا الصدد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد جعلنا في السماء الدنيا منازل للشمس والقمر، وهي كواكب ينزلها الشمس والقمر ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ١٦﴾ يقول: وزينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها.

يقول تعالى ذكره: وحفظنا السماء الدنيا من كلّ شيطان لعين قد رجمه الله ولعنه ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ يقول لكن قد يسترق من الشياطين السمع مما

يحدث في السماء بعضها، فيتبعه شهاب من النار مبين، يبين أثره فيه، إما بإخباله وإفساده، أو بإحراقه.

وأورد الطبري من طريق عبد الواحد بن زياد[1]، قال: ثنا الأعمش عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع، قال: فينفرد المارد منها فيعلو، فيرمى بالشهاب، فيصيب جبهته أو جنبه، أو حيث شاء الله منه، فيلتهب فيأتي أصحابه وهو يلتهب، فيقول: إنه كان من الأمر كذا وكذا، قال: فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة، فيزيدون عليه أضعافه من الكذب، فيخبرونهم به، فإذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدّقوهم بما جاءوهم به من الكذب.

وبسندٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ ﴾ وهو نحو قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٠].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه جعل في السماء بروجا، وذكر هذا أيضا في مواضع أخر كقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١] وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ الآية [البروج: ١]، والبروج: جمع برج.

واختلف العلماء في المراد بالبروج في الآيات المذكورة، فقال بعضهم: البروج: الكواكب، وممن روي عنه هذا القول مجاهد وقتادة. وعن أبي صالح: أنها الكواكب العظام، وقيل: هي قصور في السماء عليها الحرس. وممن قال به عطية، وقيل: هي منازل الشمس والقمر، قاله ابن عباس. وأسماء هذه البروج: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان

(١) ورواية عبد الواحد عن الأعمش فيها مقال، خاصة فيما يرفعه إلى رسول الله ﷺ.

والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

قال مقيده – عفا الله عنه –: أطلق تعالى في «سورة النساء» البروج على القصور الحصينة في قوله: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] ومرجع الأقوال كلها إلى شيء واحد. لأن أصل البروج في اللغة الظهور، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها، فالكواكب ظاهرة، والقصور ظاهرة، ومنازل القمر والشمس كالقصور، بجامع أن الكل محل ينزل فيه، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه زين السماء للناظرين، وبين في مواضع أخر أنه زينها بالنجوم، وأنها السماء الدنيا كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ الآية [الملك: ٥]، وقوله: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ [الصافات: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه حفظ السماء من كل شيطان رجيم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الصافات: ٧]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقوله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن: ٩]، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٢]، وقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الطور: ٣٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

والاستثناء في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾، قال بعض العلماء: هو استثناء منقطع، وجزم به الفخر الرازي، أي لكن من استرق السمع أي الخطفة اليسيرة، فإنه يتبعه شهاب فيحرقه كقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ

شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصافات: ٨-١٠]، وقيل: الاستثناء متصل، أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره، إلا من استرق السمع، فإنا لم نحفظها من أن تسمع لخبر من أخبار السماء سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٢] قاله القرطبي، ونظيره ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ الآية فإنه استثناء من الواو في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: ٨] الآية.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

يقول تعالى -مبينا كمال اقتداره ورحمته بخلقه-: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: نجوما كالأبراج والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها على باريها.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ إذا استرق السمع أتبعته الشهب الثواقب فبقيت السماء ظاهرها مجملا بالنجوم النيرات وباطنها محروسا ممنوعا من الآفات.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ أي: بين منير يقتله أو يخبله. فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه فينقطع خبر السماء عن

الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب فيضمُّها ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم: مزيدُ بيان لنعم الله ﷻ على عباده، فبعد أن بين لهم آياته الدالة على قدرته في السماء، والدالة على وحدانيته، بيَّن لهم آياته في الأرض كي يشكروه على نعمه، ويستدلوا على وحدانيته، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ أي: بسطناها، وألقينا فيها جبالًا راسيات لئلا تميل بنا الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٣١].

وأنبتنا في الأرض من كل شيء مقدر معلوم، وجعلنا لكم في الأرض معايش، أي: ما تتعيشون به من المطاعم والمشارب والملابس وأسباب المعيشة عمومًا.

أما قوله: ومن لستم له برازقين ففيها وجوه:

أحدها: وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين، أي: وجعلنا لكم فيها الدواب والأنعام لخدمتكم وكذا جعلنا فيها العبيد لخدمتكم، وهذه الأشياء التي جعلناها في الأرض لخدمتكم في معيشتكم ليس عليكم رزقها، بل رزقها على الله ﷻ.

الثاني: وجعلنا لمن لستم له برازقين معايش أيضًا أي: وجعلنا للوحوش التي لا ترزقونها أنتم معايش فرزق الوحش على الله.

وقال بعض العلماء: وجعلنا للدواب والأنعام والعبيد معايش أيضًا، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ﴾ والأرض دحوناها فبسطناها ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ يقول: وألقينا في ظهورها رَوَاسِي، يعني جبالا ثابتة.

وقوله: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ رواسيها: جبالها، وقد بيَّنا معنى الرسوّ فيما مضى بشواهده المغنية عن إعادته. وقوله: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ يقول: وأنبتنا في الأرض من كلّ شيء: يقول: من كلّ شيء مقدّر، وبحدّ معلوم.

وكان بعضهم يقول: معنى ذلك وأنبتنا في الجبال من كلّ شيء موزون: يعني من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك من الأشياء التي توزن.

وأولى القولين عندنا بالصواب القول الأوّل لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ ﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ ﴾ أيها الناس في الأرض ﴿مَعَٰيِشَ﴾، وهي جمع معيشة ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ ﴾.

اختلف أهل التأويل في المعني في قوله: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ ﴾ فقال بعضهم: عني به الدوابّ والأنعام.

وقال آخرون: عني بذلك: الوحش خاصة.

وأورد بإسناد صحيح عن منصور قال: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ ﴾ الوحش.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فتأويل «مَنْ» في: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ ﴾ على هذا التأويل بمعنى ما، وذلك قليل في كلام العرب.

وأولى ذلك بالصواب، وأحسن أن يقال: عني بقوله: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ

﴿٢٠﴾ من العبيد والإماء والدوابّ والأنعام. فمعنى ذلك: وجعلنا لكم فيها معايش. والعبيدَ والإماء والدوابَّ والأنعام، وإذا كان ذلك كذلك، حسن أن توضع حينئذ مكان العبيد والإماء والدوابّ «من»، وذلك أن العرب تفعل ذلك إذا أرادت الخبر عن البهائم معها بنو آدم. وهذا التأويل على ما قلناه وصرفنا إليه معنى الكلام إذا كانت «من» في موضع نصب عطفا به على معايش بمعنى: جعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين. وقيل: إنّ «من» في موضع خفض عطفا به على الكاف والميم في قوله ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ﴾ بمعنى: وجعلنا لكم فيها معايش ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وأحسب أن منصورا في قوله: هو الوحش قصد هذا المعنى وإياه أراد، وذلك وإن كان له وجه في كلام العرب، فبعيد قليل، لأنها لا تكاد تظاهر على معنى في حال الخفض، وربما جاء في شعر بعضهم في حال الضرورة، كما قال بعضهم:

هَلا سألْتَ بِذِي الجَماجِمِ عنهُمُ ... وأبي نَعِيمٍ ذي اللِّواءِ المُخْرَقِ

فردّ أبا نعيم على الهاء والميم في عنهم، وقد بيَّنت قبح ذلك في كلامهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم ذكر، تعالى، خلقه الأرض، ومده إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة.

وأورد أقوال العلماء في قوله: ﴿مَّوْزُونٍ﴾:

منها: معلوم، ومنها مقدرٌ بقدر، ومنها: ما يزن أهل الأسواق.

وقال:

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ يذكر، تعالى، أنه صرفهم في الأرض في صنوف من الأسباب والمعايش، وهي جمع معيشة.

وقوله: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ قال مجاهد: وهي الدواب والأنعام.

وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام.

والقصد أنه، تعالى، يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أنه الدواب والأنعام، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

والثاني: الوحوش، رواه منصور عن مجاهد. وقال ابن قتيبة: الوحش، والطير، والسباع، وأشباه ذلك مما لا يرزقه ابن آدم.

والثالث: العبيد والإماء، قاله الفراء.

والرابع: العبيد، والأنعام، والدواب، قاله الزجاج. قال الفراء: و «مَنْ» في موضع نصب، فالمعنى: جعلنا لكم فيها المعايش، والعبيد، والإماء. ويقال: إِنها في موضع خفض، فالمعنى: جعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين.

وقال الزجاج: المعنى: جعلنا لكم الدواب، والعبيد، وكُفيتم مؤونة أرزاقها.

فإن قيل: كيف قلتم: إن «مَنْ» هاهنا للوحوش والدواب، وإِنما تكون لمن يعقل؟ فالجواب: أنه لما وُصفت الوحوش وغيرها بالمعاش الذي الغالب عليه أن يوصَف به الناسُ، فيقال: للآدمي معاش، ولا يقال: للفرس معاش، جرت مجرى الناس، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل ١٨]،

وقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف ٤]، وقال: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وإن قلنا: أُريدَ به العبيد، والوحوش، فإنه إذا اجتمع الناس وغيرهم، غُلِّب الناس على غيرهم، لفضيلة العقل والتمييز.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها على الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكون في نواحيها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالا عظاما تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد وتثبتها أن تزول ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ١٩﴾ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد ما بين نخيل وأعناب وأصناف الأشجار وأنواع النبات.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ من الحرث ومن الماشية ومن أنواع المكاسب والحرف. ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام لنفعكم ومصالحكم وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها وتكفل بأرزاقها.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ٢١ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وما من شيء من الأشياء إلا وعند الله خزائنه ولكن ما ينزله الله ﷻ إلى الأرض إلا بقدر معلوم، على قدر الحاجة وعلى قدر النفع، فيدخل في ذلك المطر كما يدخل في ذلك غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] فخزائن المطر عند الله، وخزائن الرزق عند الله، وخزائن العلم عند الله، وخزائن الذرية عند الله، وخزائن كل شيء عند الله.

والآية كقوله: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٢٧].

أما قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ فمعنى لواقح قيل: مُلَقَّحة، وقيل: مُلَقِّحة.

فكونها مُلَقَّحة، أي: مُحملة بالسحاب كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

أما كونها مُلقِّحة، أي: تُلقِّح غيرها، قيل: تلقح السحاب بماءٍ تُدخله فيه فتُجريه فيكون منه المطر.

وقيل: تُلقح الأشجار والنباتات بما تحمله من حبوب لقاح من شجرة ذكر إلى أنثى.

أما قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ فجعلنا سقيا لكم وشرابًا لكم، ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: وما أنتم له بمانعين من النزول، وقيل: وما أنتم له بحافظين في العيون والآبار، فربنا إذا شاء جعل الماء غورًا، كما قال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك: ٣٠] وقيل: وما أنتم له بمانعين من أنز له على من شئت، من عبادي وعموم خلقي.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما من شيء من الأمطار إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر لكل أرض معلوم عندنا حدّه ومبلغه.

وقال بعد أن أورد أقوالًا في تفسير ﴿ لَوَٰقِحَ ﴾: والصواب من القول في ذلك عندي: أن الرياح لواقح كما وصفها به جلّ ثناؤه من صفتها، وإن كانت قد

تلقح السحاب والأشجار، فهي لاقحة ملقحة، ولقحها: حملها الماء وإلقاحها السحاب والشجر: عملها فيه، وذلك كما قال عبد الله بن مسعود.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن قيس بن سكن، عن عبد الله بن مسعود، في قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ قال: يرسل الله الرياح فتحمل الماء، فتجري السحاب، فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر.

وفي رواية من طريق عن قيس بن سكن أيضًا، عن عبد الله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ قال: يبعث الله الريح فتلقح السحاب، ثم تمريه فتدر كما تدر اللقحة، ثم تمطر.

وفي ثالثة عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود، في قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ قال: يرسل الرياح، فتحمل الماء من السحاب، ثم تمري السحاب، فتدر كما تدر اللقحة، فقد بين عبد الله بقوله: يرسل الرياح فتحمل الماء، أنها هي اللاقحة بحملها الماء وإن كانت ملقحة بإلقاحها السحاب والشجر.

قال الطبري:

وأما جماعة أُخَر من أهل التأويل، فإنهم وجَّهوا وصف الله تعالى ذكره إياها بأنها لواقح، إلى أنه بمعنى ملقحة، وأن اللواقح وضعت موضع ملاقح.

وأورد بسندٍ صحيح عن إبراهيم في قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ قال: تلقح السحاب.

وأورد بسندٍ صحيح عن الحسن، قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ قال: لواقح للشجر، قلت: أو للسحاب، قال: وللسحاب، تمريه حتى يمطر.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ يقول: لواقح السحاب، وإن من الريح عذابا، وإن منها رحمة.

وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ يقول تعالى ذكره: فأنزلنا من السماء مطرا فأسقيناكم ذلك المطر لشرب أرضكم ومواشيكم.

وقوله: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ يقول: ولستم بخازني الماء الذي أنزلنا من السماء فأسقيناكموه. فتمنعوه من أسقيه، لأن ذلك بيدي وإليّ، أسقيه من أشاء وأمنعه من أشاء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر، تعالى، أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على وجه الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة.

وقال:

وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ أي: تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها.

هذه «الرياح» ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعدا.

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي: أنزلناه لكم عذبا يمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجا. كما ينبه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة «الواقعة»، وهو قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠] وفي قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ١٠].

وقوله: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ قال سفيان الثوري: بمانعين.

ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك. ليبقى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ أي وإن من شي من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه، يعني المطر المنزل من السماء، لأن به نبات كل شي. قال الحسن: المطر خزائن كل شي. وقيل: الخزائن المفاتيح، أي في السماء مفاتيح الأرزاق، قاله الكلبي. والمعنى واحد ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ﴾ أي ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه، كما قال: ﴿ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقال القرطبي أيضًا:

والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد، كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍۚ ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقيل: الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالا لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء.

وقال:

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من السحاب. وكل ما علاك فأظلك يسمى سماء. وقيل: من جهة السماء. ﴿مَآءً﴾ أي قطرا. ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم. وقيل: سقى وأسقى بمعنى. وقيل بالفرق، وقد تقدم. ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي ليست خزائنه عندكم، أي نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا.

ومثلــه ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝٤٨﴾ [الفرقــان: ٤٨]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝١٨﴾ [المؤمنـون: ١٨]. وقـال سـفيان: لسـتم بمانعين المطر.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قولـه تعـالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ومـا مـن شـيء ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ وهـذا الكلام عامّ في كل شيء. وذهـب قـوم مـن المفسرين إلى أن المـراد بـه المطر خاصة، فـالمعنى عنـدهم: ومـا مـن شـيء مـن المطـر إلا عنـدنا خزائنـه، أي: في حُكمنا وتدبيرنا، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ كل عام ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ لايزيد ولا ينقص، فما من عام أكثرُ مطرًا من عام، غير أن الله تعالى يصرفه إلى من يشـاء، ويمنعـه مـن يشاء.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۝٢٢﴾.

فيه للعلماء وجهـان مـن التفسير كلاهما يشـهد لـه قـرآن الأول: أن معنى ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۝٢٢﴾، أي ليست خزائنه عندكم بـل نحـن الخـازنون لـه، ننزله متى شئنا، وهذا الوجه تدل عليه آيات كقولـه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] الآية، ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن معنى ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۝٢٢﴾ بعـد أن أنزلنـاه عليكم، أي لا تقدرون على حفظه في الآبار والعيون والغدران، بـل نحـن الحـافظون لـه فيها، ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة، ويدل لهذا الوجه قولـه تعـالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝١٨﴾ [المؤمنـون: ١٨]، وقولــه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملـك: ٣٠]، وقولـه: ﴿أَوْ يُصْبِحَ

(٤٣٢) أحمر
أسود

مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف: ٤١]، وقوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الزمر: ٢١] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي: المقدر من كل شيء من مطر وغيره، ﴿إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ ﴾ فلا يزيد على ما قدره الله ولا ينقص منه.

أي: وسخرنا الرياح، رياح الرحمة تلقح السحاب، كما يلقح الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواشيهم وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخرا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته، ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم ويسلكه ينابيع في الأرض رحمة بكم وإحسانا إليكم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ج: هذا - والله أعلم -: مفاده أن الله سبحانه وتعالى يُخبر بأنه هو الذي يحيي ويميت، يحيي من أراد له الحياة، وكذا يخرج الأجنة من بطون الأمهات أحياء، وكذلك فإنه ﷻ يُميت من أراد إماتته، وهو سبحانه الذي يرث الأرض ومن عليها..

أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ ﴾ أي: الذين ماتوا ومضوا وهلكوا، وكذا ولقد علمنا المستأخرين الذين لا زالوا أحياء، وكذا الذين يأتون من بعد.

ولقد تعددت أقوال العلماء في تفسير المستقدمين والمستأخرين، وعلى أية حال، فرب العزة سبحانه وتعالى يعلم كلَّ مستقدم ومستأخر، ولكن القول الذي قدمته أولى بالقبول، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، يجمعهم ليوم القيامة، كما في الحديث: «**يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد..**» أما قوله: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ أي فيما يشرع وفيما يقضي ﴿عَلِيمٌ ۝٢٥﴾ بكل شيء جليل أو حقير، صغيرٍ أو كبير.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ من كان ميتا إذا أردنا ﴿وَنُمِيتُ﴾ من كان حيا إذا شئنا ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣﴾ يقول: ونحن نرث الأرض ومن عليها بأن نميت جميعهم، فلا يبقى حيّ سوانا إذا جاء ذلك الأجل. وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولقد علمنا من مضى من الأمم، فتقدّم هلاكهم، ومن قد خلق وهو حيّ، ومن لم يخلق بعدُ ممن سيخلق.

وأورد من طرق صحيحة عن عكرمة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤﴾ قال: هم خلق الله كلهم، قد علم من خلق منهم إلى اليوم، وقد علم من هو خالقه بعد اليوم.

وعن عكرمة، قال: إن الله خلق الخلق ففرغ منهم، فالمستقدمون: من خرج من الخلق، والمستأخرون: من بقي في أصلاب الرجال لم يخرج.

وقال آخرون: عنى بالمستقدمين: الذين قد هلكوا، والمستأخرين: الأحياء الذين لم يهلكوا.

وقال آخرون: بل معناه: ولقد علمنا المستقدمين في أوّل الخلق والمستأخرين في آخرهم.

وأورد بإسناد صحيح عن الشعبيّ، في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾: ما استقدم في أول الخلق، وما استأخر في آخر الخلق.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد علمنا المستقدمين من الأمم، والمستأخرين من أمة محمد ﷺ.

وأورد بأسانيد تصح عن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ قال: المستقدمون: ما مضى من الأمم، والمستأخرون: أمة محمد ﷺ.

وقال آخرون: بل معناه: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الخير، والمستأخرين عنه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاة، والمستأخرين فيها بسبب النساء.

وأخرج الطبري من طريق نوح بن قيس، قال: ثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، قال: كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ امرأة، قال ابن عباس: لا والله ما إن رأيت مثلها قط، فكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا، وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا، نظروا إليها من تحت أيديهم، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وأخرج الطبري من طريق جعفر بن سليمان، قال: أخبرني عمرو بن مالك، قال سمعت أبا الجوزاء يقول في قول الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ قال: المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاة والمستأخرين.

قلت: فمفاده أنه روى نحوه عن أبي الجوزاء من قوله، ومرة عن أبي الجوزاء عن ابن عباس بالقصة، وسبب النزول.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصفه لهذا الحديث: وقد ورد في هذا حديث غريب

جدًّا... -فذكره، وذكر عددًا ممن أخرجوه- وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو النكري أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الصفوف في الصلاة ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر وقد قال الترمذي: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدّم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حيّ ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعدُ، لدلالة ما قبله من الكلام، وهو قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وما بعده وهو قوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ على أن ذلك كذلك، إذ كان بين هذين الخبرين، ولم يجر قبل ذلك من الكلام ما يدلّ على خلافه، ولا جاء بعد. وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصفّ لشأن النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون الله ﷻ عمّ بالمعنى المراد منه جميع الخلق، فقال جلّ ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناهم، وما كانوا يعملون، ومن هو حيّ منكم، ومن هو حادث بعدكم أيها الناس، وأعمال جميعكم خيرها وشرّها، وأحصينا جميع ذلك ونحن نحشر جميعهم، فنجازي كلا بأعماله، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا. فيكون ذلك تهديدًا ووعيدًا للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء ولكلّ من تعدّى حدّ الله وعمل بغير ما أذن له به، ووعدا لمن تقدّم في الصفوف لسبب النساء، وسارع إلى محبة الله ورضوانه في أفعاله كلها.

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يعني بذلك جلّ ثناؤه: وإن ربك يا محمد هو

يجمع جميع الأوّلين والآخرين عنده يوم القيامة، أهل الطاعة منهم والمعصية، وكلّ أحد من خلقه، المستقدمين منهم والمستأخرين.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قال: أي الأوّل والآخر.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين فيه ثمان تأويلات: الأول: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في الخلق إلى اليوم، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ الذين لم يخلقوا بعد، قاله قتادة وعكرمة وغيرهما. الثاني: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ الأموات، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ الأحياء، قاله ابن عباس والضحاك. الثالث: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ من تقدم أمة محمد، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ أمة محمد ﷺ، قاله مجاهد. الرابع: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في الطاعة والخير، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ في المعصية والشر، قاله الحسن وقتادة أيضًا. الخامس: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في صفوف الحرب و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيها، قاله سعيد بن المسيب. السادس: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ من قتل في الجهاد، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من لم يقتل، قاله القرظي. السابع: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ أول الخلق، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ آخر الخلق، قاله الشعبي. الثامن: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في صفوف الصلاة، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيها بسبب النساء. وكل هذا معلوم لله تعالى، فإنه عالم بكل موجود ومعدوم، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة. إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية، لما رواه النسائي والترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال:« كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا

(٤٣٧) أحمر
أسود

ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴾. وروي عن أبي الجوزاء ولم يذكر ابن عباس. وهو أصح.



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ سبب نزول؟

ج: لم يصح لها سبب نزول، والله أعلم.

هذا، وقد تقدمت الإشارة فيما أورده الطبري من حديث ابن عباس أنه كانت هناك امرأة حسناء تصلي وكان رجالٌ يتعمدون التأخر في الصفوف لرؤيتها أثناء سجودهم من تحت الآباط، وآخرون يتقدمون الصفوف كي لا يرونها.

فنزلت الآية، ولا يصح هذا الخبر. والله أعلم.



بداية خلق آدم عليه السلام وما كان من أمر إبليس اللعين

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ
ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ
مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ
مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ
ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ
هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ
بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ
﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

[الحجر: ٢٦–٤٨].

(٤٣٩) أحمر
أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿صَلْصَٰلٍ - حَمَإٍ - مَّسْنُونٍ - وَٱلْجَآنَّ - نَّارِ ٱلسَّمُومِ - سَوَّيْتُهُۥ - فَقَعُواْ لَهُۥ - أَبَىٰٓ - رَجِيمٌ - ٱللَّعْنَةَ - فَأَنظِرْنِيٓ - ٱلْمُنظَرِينَ - يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ - بِمَآ أَغْوَيْتَنِى - لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ - وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ - ٱلْمُخْلَصِينَ - صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ - سُلْطَٰنٌ - ٱلْغَاوِينَ - سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ - جُزْءٌ مَّقْسُومٌ - بِسَلَٰمٍ - ءَامِنِينَ - غِلٍّ - مُّتَقَٰبِلِينَ - لَا يَمَسُّهُمْ - نَصَبٌ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿صَلْصَٰلٍ﴾	طين يابس.
﴿حَمَإٍ﴾	طين أسود.
﴿مَّسْنُونٍ﴾	متغير – منتن.
﴿وَٱلْجَآنَّ﴾	قيل: إنه إبليس، وقيل: إنه أبو الجن.
﴿نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾	النار القاتلة – طرف اللهب وهو أشده، وقيل: الحرارة الشديدة تكون في الليل.
﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾	عدَّلته.
﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾	فخِروا له.
﴿أَبَىٰٓ﴾	امتنع – رفض.
﴿رَجِيمٌ﴾	مرجوم (بالنجوم) ومرجوم بالسباب والشتم وبغير
﴿ٱللَّعْنَةَ﴾	الطرد والإبعاد والإهانة.
﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾	فأخرني.
﴿ٱلْمُنظَرِينَ﴾	المؤجلين (الذين تأخر موتهم).

(٤٤٠) أحمر
أسود

﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾	يوم القيامة.
﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾	بسبب إغوائك لي - قسمٌ بالذي أغواه.
﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ﴾	لأحسنن لهم وأجملن في أنظارهم.
﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾	لأصرفنهم عن طريق الحق والصواب.
﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾	الذين اصطفيتهم وهديتهم ووفقتهم.
﴿صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٞ﴾	طريق علي إيضاحه وبيانه، أي: عليَّ بيان طريق الحق الموصل إليَّ، وإيضاحه وقيل: مردكم جميعًا إليَّ فأجازي المحسن بإحسانه، وقيل: طريق الحق يوصل إليّ!
﴿سُلۡطَٰنٌ﴾	حجة - برهان.
﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾	المنصرفين عن الحق والرشاد.
﴿سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾	قيل: سبعة أطباق.
﴿جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾	جزء مقدر معلوم، وقيل: بحسب أعمالهم.
﴿بِسَلَٰمٍ﴾	بسلامة من الآفات والعلل.
﴿ءَامِنِينَ﴾	آمنين من العذاب.
﴿غِلّٖ﴾	ضغينة وحقد.
﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾	يقابل بعضهم بعضًا.
﴿لَا يَمَسُّهُمۡ﴾	لا يصيبهم.
﴿نَصَبٞ﴾	تعب.

س: ما المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾؟

ج: المراد به آدم عليه السلام، والله أعلم.



س: ما المراد بالصلصال؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أولها وأشهرها: والذي عليه أكثر العلماء أن الصلصال هو الطين اليابس الذي لم تصبه النار، فإذا نقرته بيدك أو بأصبعك سُمع له صوت.

الثاني: أنه الطين المخلوط بالرمل، فصار له صوت عند نقره.

الثالث: أن الصلصال الطين المُنتن.



س: ما المراد بالحمأ؟

ج: المراد بالحمأ الطين الأسود، وهذا قول أكثر العلماء.



س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿مَّسْنُونٍ﴾؟

ج: لأه العلم في ذلك أقوال:

أحدها: المُتَغير (المنتن الذي تغيَّرت رائحته)، أي: الطين الذي ترك فأنتن فتغيَّرت رائحته.

ثانيها: المصبوب، وفيه أقوال:

الأول: أنه كالذي صُبَّ في قالب حتى يخرج من القالب على الصورة المراد.

الثاني: الذي صُبَّ نتيجة الاحتكاك.

ثالثها: أن المسنون الطيب الرطب.

(٤٤٢) أحمر
أسود

وأشهر الأقوال القول الأول، والله أعلم

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: ولقد خلقنا الإنسان، وهو أبوكم آدم عليه السلام من صلصال وهو الطين اليابس الذي لم تُصبه النار، وهذا الصلصال المستخرج من حمإٍ مسنون، وهو الطين الأسود المتغير.

وقيل: الطين الأسود الذي تَأَتَّى عن طريق تراب تولد بالاحتكاك فبالاحتكاك يتولد تراب ويُصب.

وقيل: يصب في قالب حتى تخرج الصورة على هيئة القالب، وقيل: إن الطين الأسود نفسه صُبَّ في قالب على هيئة الصورة.

والقول الأول أولى، والله أعلم.

وهذه بعض أقوال أهل العلم فيما ذُكر.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا آدم وهو الإنسان من صلصال. واختلف أهل التأويل في معنى الصلصال، فقال بعضهم: هو الطين اليابس لم تصبه نار، فإذا نقرتَه صَلَّ فسمعت له صلصلة.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن عباس، قال: خلق آدم من صلصال من حمأ ومن طين لازب، وأما اللازب: فالجيد، وأما الحَمَأ: فالحمأة، وأما الصَّلصال: فالتراب المرقَّق، وإنما سمي إنسانا لأنه عهد إليه فنسي.

وبسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ قال: والصلصال: التراب اليابس الذي يسمع له صلصلة.

ومن وجه آخر عن ابن عباس في سنده مقال يسير: ﴿مِن صَلْصَٰلٖ﴾ قال: الصلصال: الماء يقع على الأرض الطيبة ثم يحسَرُ عنها، فتشقق، ثم تصير مثل الخَزَف الرقاق.

وعن ابن عباس أيضًا[1] قال: خُلق الإنسان من ثلاثة: من طين لازب، وصلصال، وحمأ مسنون. والطين اللازب: اللازق الجيد، والصلصال: المرقق الذي يصنع منه الفخار، والمسنون: الطين فيه الحَمْأة.

وقال آخرون: الصلصال: المُنْتِن. وكأنهم وجَّهوا ذلك إلى أنه من قولهم: صلّ اللحم وأصلّ، إذا أنتن، يقال ذلك باللغتين كلتيهما: يَفْعَل وأَفْعَل.

ثم قال الطبري:

والذي هو أولى بتأويل الآية أن يكون الصلصال في هذا الموضع الذي له صوت من الصلصلة، وذلك أن الله تعالى وصفه في موضع آخر فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٖ كَٱلْفَخَّارِ ١٤﴾ [الرحمن: ١٤] فشبهه تعالى ذكره بأنه كان كالفخَّار في يُبسه. ولو كان معناه في ذلك المُنتِن لم يشبهه بالفخارِّ، لأن الفخار ليس بمنتن فيشبَّه به في النتن غيره.

وأما قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ ٢٦﴾ فإن الحمأ: جمع حَمْأة، وهو الطين المتَغيِّر إلى السواد. وقوله: ﴿مَّسْنُونٖ﴾ يعني: المتغير.

واختلف أهل العلم بكلام العرب في معنى قوله: ﴿مَّسْنُونٖ﴾ فكان بعض نحويِّي البصريين يقول: عني به: حمأ مصورّ تامّ. وذُكر عن العرب أنهم قالوا: سُنّ على مثال سُنَّة الوجه: أي صورته. قال: وكأن سُنة الشيء من ذلك: أي مثالَه الذي وُضع عليه. قال: وليس من الآسن المتغير، لأنه من سَنَن مضاعف.

وقال آخر منهم: هو الحَمَأ المصبوب. قال: والمصبوب: المسنون، وهو

(١) في سنده فقط ابن وكيع فيه مقال، وبقية رجاله ثقات، وفي الغالب مشائخ أصحاب الكتب يتابعون.

(٤٤٤) أحمر
أسود

من قولهم: سَنَنْت الماء على الوجه وغيره إذا صببته.

وكان بعض أهل الكوفة يقول: هو المتغير، قال: كأنه أخذ من سَنَنْت الحَجَر على الحجر، وذلك أن يحكّ أحدهما بالآخر، يقال منه: سننته أسنُه سَنًّا فهو مسنون. قال: ويقال للذي يخرج من بينهما: سَنِين، ويكون ذلك مُنْتنا. وقال: منه سُمِّيَ المِسَنّ لأن الحديد يُسَنُّ عليه. وأما أهل التأويل، فإنهم قالوا في ذلك نحو ما قلنا.

وأورد الطبري من وجوهٍ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٢٦﴾ قال: منتن.

وبسندٍ يصح بطريقيه عن قتادة قال: والحمأ المسنون الذي قد تغيَّر وأنتن.

قال الطبري: وقال آخرون: هو الطين الرطب.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا: التراب اليابس.

والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ١٥﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

وعن مجاهد أيضا: الصلصال: المنتن.

وتفسير الآية بالآية أولى.

وقوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٢٦﴾ أي: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، كما قال الشاعر:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـــراء تمشي في مرمر مسنون

أي: أملس صقيل.

ولهذا روي عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس،

ومجاهد، والضحاك أيضا: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يعني آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ أي من طين يابس؛ عن ابن عباس وغيره. والصلصال: الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جف، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار؛ عن أبي عبيدة. وهو قول أكثر المفسرين. وأنشد أهل اللغة:

كعـــدو المصلصـــل الجـــوال

وأورد أقوالًا أُخر وقال: أي يصوت إذا نقرته كما يصوت الحديد. فكان أول ترابا، أي متفرق الأجزاء ثم بل فصار طينا؛ ثم ترك حتى أنتن فصار حمأ مسنونا؛ أي متغيرا، ثم يبس فصار صلصالا؛ على قول الجمهور.

ثم قال: والمسنون المتغير... وأورد أقوالًا وقال:

وقال الفراء: هو المتغير، وأصله من قولهم: سننت الحجر على الحجر إذا حككته به. وما يخرج من الحجرين يقال له السنانة والسنين؛ ومنه المسن.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وما جرى من عدوه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ أي: من طين قد يبس بعد ما خمر حتى صار له صلصلة وصوت، كصوت الفخار، والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا عرفت هذا فاعلم أن الله جل وعلا أوضح في كتابه أطوار هذا الطين

(٤٤٦) أحمر
أسود

الذي خلق منه آدم فبين أنه أولاً تراب بقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [غافر: ٦٧] الآية إلى غير ذلك من الآيات ثم اشار إلى ان ذلك التراب بل فصار طيناً يعلق بالأيدي في مواضع أخر كقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات: ١١] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ [السجدة: ٧] إلى غير ذلك من الآيات وبين أن ذلك الطين أسود وأنه متغير بقوله هنا ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ وبين أيضاً أنه يبس حتى صار صلصلاً اي تسمع له صلصة من يبسه بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ الآية وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن: ١٤] الآية والعلم عند الله تعالى.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وخلقنا الجان من قبل خلق آدم عليه السلام خلقناه من نار السموم. أما الجآن فمن المراد به؟

قال بعض أهل العلم: إن الجان هو إبليس، وقيل: إنه غير إبليس ففضل فريق، وقال إبليس: هو أبو الشياطين كلهم وكلهم كفار، أما الجان فهو أبو الجن، وذريته منهم المسلم ومنهم الكافر. أما نار السموم فمن العلماء من يقول إنها القاتلة، أي: وخلقنا الجآن من النار المُحرقة القاتلة.

ومن العلماء من قال: إن المراد بالسموم طرف اللهب، أي: أعلاه، وهو أشد شيء فيه.

وقال آخرون: إن السموم هي الحرارة الشديدة ليلًا، والحرور هي الحرارة

الشديدة نهارًا.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَٱلۡجَآنَّ ﴾ وقد بيَّنا فيما مضى معنى الجانّ ولم قيل له جان. وعني بالجانّ هاهنا: إبليس أبا الجنّ. يقول تعالى ذكره: وإبليس خلقناه من قبل الإنسان من نار السموم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ ﴾ وهو إبليس خُلق قبل آدم، وإنما خلق آدم آخر الخلق، فحسده عدوّ الله إبليس على ما أعطاه الله من الكرامة، فقال: أنا ناريّ، وهذا طينيّ، فكانت السجدة لآدم، والطاعة لله تعالى ذكره، فقال: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾.

واختلف أهل التأويل في معنى﴿نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ فقال بعضهم: هي السموم الحارّة التي تقتل.

وقال آخرون: يعني بذلك من لهب النار.

وأورد بسندٍ صحيح عن أبي إسحاق، قال: دخلت على عمرو بن الأصم أعوده، فقال: ألا أحدّثك حديثًا سمعته من عبد الله؟ سمعت عبد الله يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التي خرج منها الجانّ. قال: وتلا: ﴿ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧ ﴾. وكان بعض أهل العربية يقول: السموم بالليل والنهار. وقال بعضهم: الحَرُور بالنهار، والسموم بالليل، يقال: سَمَّ يومُنا يَسَمُّ سَمُومًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ ﴾ أي: من قبل الإنسان ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧ ﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل.

وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار.

وأورد ما في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «**خُلقت الملائكة من نور، وخُلقت الجان من مارج من نار، وخُلق بنو آدم مما وصِف لكم**»[1] ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة مَحْتده.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه مسيخ الجن، كما أن القردة والخنازير مسيخ الإنس[2]، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أنه أبو الجن، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وروى عنه الضحاك أنه قال: الجانُّ أبو الجن، وليسوا بشياطين، والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس، والجن يموتون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر.

والثالث: أنه إبليس، قاله الحسن، وعطاء، وقتادة، ومقاتل.

فإن قيل: أليس أبو الجن هو إبليس؟ فعنه جوابان.

أحدهما: أنه هو، فيكون هذا القول هو الذي قبله.

والثاني: أن الجانَّ أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين، فبينهما إذًا فرق على ما ذكرناه عن ابن عباس. قال العلماء: وإنما سمي جانًّا، لتواريه عن العيون.

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني: قبل خَلْق آدم ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

---

(١) مسلم (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٥١، ٢٠٥٢)، من حديث ابن مسعود قال: ذكرت عند رسول الله ﷺ القردة، قال مسعر: وأراه قال: والخنازير من مسخ؟ فقال ﷺ: «إن الله لم يجعل لمسخ نسلًا ولا عقبًا وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك».

أمر الله ﷻ إبليس بالسجود لآدم وامتناع إبليس من ذلك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: واذكر يا رسول الله قول ربك ﷻ للملائكة قبل خلق آدم عليه السلام إني سأخلق بشرًا من صلصال، أي: من طين يابس، وهذا الطين اليابس كان طينًا أسودًا متغيرًا من طول مكثه، بل وتغيَّرت رائحته أيضًا ثم إن الله ﷻ ذكَّرهم، وأمرهم قائلًا فإذا سوَّيته، عدّلته وأحسنت قوامه وصورته ونفخت فيه من روحي فأصبح حيًّا فخرِّوا له ساجدين، أي: فاسجدوا له، فلما خلقه الله ﷻ ونفخ فيه من روحه سجد الملائكة كلهم بلا تخلف ولا تردد، كلهم سجدوا جيمعًا إلا إبليس، وقد تقدم الكلام في شأنه، وهل هو داخل في عداد الملائكة، أي: هل كان ملكًا أم لا؟ والظاهر، وكما قدمنا في سورة البقرة أنه لم يكن ملكًا، وذلك لقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [ص: ٧٦]، ولقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥].

فالحاصل: أن الأمر وجِّه إليه بالسجود مع من وجِّه لهم الأمر، فتخلف عن السجود، وامتنع أشد الامتناع مخالفًا أمر ربِّه ﷻ - فقال الله له - إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين؟ وما منك ألا تسجد إذ أمرتك؟

ما سبب امتناعك عن السجود، وما سبب مخالفتك لأمر الله ﷻ، قال معلِّلًا لم أكن لأسجد البشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون.

(٤٥٠) أحمر
أسود

وفي الآية الأخرى يقول: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ۝٦١﴾.

وفي الثالثة: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦﴾ فامتنع متكبرًا متعاليًا متعاظمًا في نفسه حاسدًا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قائلًا في آية أخرى: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٦٢﴾ [الإسراء: ٦٢] فحيئذٍ قال تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي: من الجنة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٣٤﴾، مرجوم، مرجوم بالسباب واللعن ومرجوم بالهب والنجوم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾ أي: وإن عليك الطرد والإبعاد من الرحمة إلى يوم الدين، ثم يوم الدين لكن الجحيم والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٥﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾.

يقول: فإذا صوّرته فعدَّلت صورته ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فصار بشرا حيا ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة.

يقول تعالى ذكره: فلما خلق الله ذلك البشر، ونفخ فيه الروح بعد أن سوّاه، سجد الملائكة كلهم جميعا، إلا إبليس، فإنه أبى أن يكون مع الساجدين في سجودهم لآدم حين سجدوا، فلم يسجد له معهم تكبرا وحسدا وبغيا، فقال الله تعالى ذكره: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢﴾ يقول: ما منعك من أن تكون مع الساجدين، فأن في قول بعض نحويي الكوفة خفض، وفي قول بعض أهل البصرة نصب بفقد الخافض.

وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾ يقول: وإن غضب الله عليك

بإخراجه إياك من السموات وطردك عنها إلى يوم المجازاة، وذلك يوم القيامة، وقد بيَّنا معنى اللعنة في غير موضع بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوّه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حَسَدًا وكفرًا، وعنادًا واستكبارًا، وافتخارًا بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

ويقول آمرًا لإبليس أمرًا كونيًّا لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وإنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به، لاحقةً له، متواترة عليه إلى يوم القيامة.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ جسدا تاما ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فامتثلوا أمر ربهم.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ تأكيد بعد تأكيد ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيما لأمر الله وإكراما لآدم حيث علم ما لم يعلموا.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ وهذه أول عداوته لآدم وذريته.

قال الله: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ فاستكبر على أمر الله وأبدى العداوة لآدم وذريته

(٤٥٢) أحمر
أسود

وأعجب بعنصره وقال أنا خير من آدم.

﴿قَالَ﴾ الله معاقبا له على كفره واستكباره ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ أي مطرود مبعد من كل خير ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ أي الذم والعيب والبعد عن رحمة الله ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ ففيها وما أشبهها دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ أي: عدَّلتُ صورته، وأتممتُ خلقته ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ هذه الروح هي التي يحيا بها الإنسان، ولا تُعْلَم ما هيَّتُها، وإنما أضافها إليه، تشريفًا لآدم، وهذه إضافة مِلْك. وإنما سمي إجراء الروح فيه نفخًا، لأنها جرت في بدنه على مثل جري الريح فيه.

قوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ﴾ أمر من الوقوع. وقوله: ﴿كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ قال فيه سيبويه والخليل: هو توكيد بعد توكيد. وقال المبرد: «أجمعون» يدل على اجتماعهم في السجود، فالمعنى: سجدوا كلُّهم في حالة واحدة. قال ابن الأنباري: وهذا، لأن «كلًا» تدل على اجتماع القوم في الفعل، ولا تدل على اجتماعهم في الزمان. قال الزجاج: وقول سيبويه أجود، لأن «أجمعين» معرفة، ولا تكون حالًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ قال المفسرون: معناه: يلعنك أهل السماء والأرض إلى يوم الحساب. قال ابن الأنباري: وإنما قال: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لأنه يوم له أول وليس له آخر، فجرى مجرى الأبد الذي لا يفنى، والمعنى: عليك اللعنة أبدًا.



(٤٥٣) أحمر
أسود

طلب إبليس المهلة إلى يوم البعث

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: مفاده أن إبليس لعنه الله لما طرده الله ﷻ وأبعده عن الجنة طلب من الله ﷻ الإمهال، أي: تأخير موته إلى يوم البعث، فقال: رب فأنظرني، أجِّلني وأخرني إلى يوم القيامة، فأعطاه الله ما أراد من الإمهال والتأخير لمزيدٍ من الفتنة والابتلاء، ومن ثمَّ التعذيب، فقال الله له: فإنك من المُنظرين، المؤجلين المؤخرين إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم القيامة، وقيل: يوم إماتته يوم النفخ في الصور. فالله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال إبليس: ربّ فإذ أخرجتني من السموات ولعنتني، فأخِّرني إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم فتحشرهم لموقف القيامة، قال الله له: فإنك ممن أُخِّر هلاكه إلى يوم الوقت المعلوم لهلاك جميع خلقي، وذلك حين لا يبقى على الأرض من بني آدم ديَّار.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ أي أمهلني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك ولذلك حذرنا منه غاية التحذير وشرح لنا ما يريده منا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: قال الشيطان: لما أخذ من الله ﷻ وعدًا بالإنظار والتأخير إلى يوم القيامة، فعندها قال ربما بما أغويتني، وقيل: هذا قسمٌ منه بالله الذي أغواه، وقيل: المعنى بسبب إغوائك لي وصرفك لي عن طريق الهدى والرشاد ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لأزينن لهم المعاصي فيقعوا فيها، ولأزينن لهم الشرك فيقعوا فيه، وكذا لأزينن لهم الدنيا حتى ينشغلوا بها عن طاعتك ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ ولأصرفنهم عن طريق الحق أجمعين إلا عبادك الذين أخلصتهم ووفقتهم وهديتهم فهؤلاء لا سبيل لي عليهم ولا أستطيع غوايتهم فقال تعالى: ﴿هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ قيل: في معناه هذا طريق مردكم جميعًا فيه إليَّ فأجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقيل: المعنى: إن طريق الحق طريق يوصِّل إليَّ ويدلُّ عليَّ.

وقيل: المعنى: هذا طريقٌ مستقيم، طريق الحق عليَّ بيانُه وعليَّ إيضاحه للخلق.

ثم يقول تعالى لإبليس لعنه الله، إن عبادي الذين أخلصتهم واصطفيتهم ووفقتهم للإسلام ليس لك عليهم حجة ولا سلطان، فلن تستطيع أن تغويهم وتُضلَّهم وتصرفهم عن الحق، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ فالمعنى: فإنكم وآلهتكم التي تعبدونها من دون الله لن تستطيعوا أن تصرفوا شخصًا عن الحق وتفتنوه إلا شخصًا كتب الله عليه الغواية والعياذ بالله، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ فإنك تقوده للضلال وتوقعه في الكفر، وقد كتب الله عليه ذلك، وأن جهنم لموعدهم، موعد من اتبعوك معك كلكم جميعًا، فهنالك المُلتقى، وهنالك

الاجتماع اجتماع إبليس مع جنده وأتباعه.

ثم يذكر الله ﷻ عدد أبواب جهنم فيقول تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾، معلوم ومحددٌ ومقدرٌ، وقد قال بعض أهل العلم، إن المراد بقوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ سبعة أطباق. فالله أعلم.

ثمَّ هذه بعض أقوال العلماء في تفسير الآية المذكورة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال إبليس: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ بإغوائك ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وكأن قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ خرّج مخرج القسم، كما يقال: بالله، أو بعزّة الله لأغوينهم. وعنى بقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لأحسننّ لهم معاصيك، ولأحببنها إليهم في الأرض ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ يقول: ولأضلّنهم عن سبيل الرشاد ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ يقول: إلا من أخلصته بتوفيقك فهديته، فإن ذلك ممن لا سلطان لي عليه ولا طاقة لي به. وقد قرئ: (**إلا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلِصِينَ**) فمن قرأ ذلك كذلك، فإنه يعني به: إلا من أخلص طاعتك، فإنه لا سبيل لي عليه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

اختلفت القرّاء في قراءة قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ فقرأه عامَّة قراء الحجاز والمدينة والكوفة والبصرة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ بمعنى: هذا طريق إليّ مستقيم.

فكان معنى الكلام: هذا طريق مرجعه إليّ فأجازي كلا بأعمالهم، كما قال الله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]،وذلك نظير قول القائل لمن يتوعده ويتهدده: طريقك عليّ، وأنا على طريقك، فكذلك قوله:﴿هَٰذَا

صِرَٰطٌ﴾ معناه: هذا طريق عليّ وهذا طريق إليّ. وكذلك تأول من قرأ ذلك كذلك.

وقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ يقول تعالى ذكره: إن عبادي ليس لك عليهم حجة، إلا من اتبعك على ما دعوته إليه من الضلالة ممن غوى وهلك.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره لإبليس: وإن جهنم لموعد من تبعك أجمعين ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ يقول: لجهنم سبعة أطباق، لكلِّ طَبَق منهم: يعني من أتباع إبليس جزء، يعني: قسما ونصيبا مقسوما.

وذُكر أن أبواب جهنم طبقات بعضها فوق بعض.

وأورد بسندٍ صحيح عن شعبة، قال: سمعت أبا هارون الغنوي، قال: سمعت حِطان، قال: سمعت عليا وهو يخطب، قال: إن أبواب جهنم هكذا، ووضع شُعبة إحدى يديه على الأخرى.

وأورد من طريق أبي إسحاق عن هبيرة، عن عليّ، قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأوّل، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم تمتلئ كلها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له.

قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أي: لذرية آدم، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أحبب إليهم المعاصي وأرغّبهم فيها، وأؤزّهم إليها، وأزعجهم إزعاجًا، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ أي: كما أغويتني ونَدَّرت على ذلك،

﴿أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ كَمَا قَالَ: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الله تعالى له متهددًا ومتوعدًا ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: مرجعكم كلكم إلي، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر ١٤].

وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقرأ قيس بن عُباد، ومحمد بن سيرين، وقتادة: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤] أي: رفيع. والمشهور القراءة الأولى.

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: الذين قدرت لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ استثناء منقطع.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا:

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه -أجارنا الله منها- وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دَرَك بقدر فعله.

وما أورد القرطبي في تفسيره، قوله في تفسير: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ ما ذكره إذ قال، بعد أن أورد أقوالًا: فكان معنى الكلام: هذا طريق مرجعه إلي فأجازي كلا بعمله يعني طريق العبودية وقيل: المعنى علي أن أدل على

الصراط المستقيم بالبيان والبرهان وقيل: بالتوفيق والهداية.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ اختلفوا في معنى هذا الكلام على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يعني بقوله هذا: الإخلاصَ، فالمعنى: إن الإخلاص طريق إِليَّ مستقيم، و «عليّ» بمعنى «إِليَّ».

والثاني: هذا طريق عليَّ جَوازه، لأني بالمرصاد، فأجازيهم بأعمالهم؛ وهو خارج مخرج الوعيد، كما تقول للرجل تخاصمه: طريقك عليَّ، فهو كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر ١٤].

والثالث: هذا صراط عليَّ استقامته، أي: أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أزين لهم الدنيا وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى حتى يكونوا منقادين لكل معصية ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أي أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي الذين أخلصتهم واجتبيتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي معتدل موصل إليَّ وإلى دار كرامتي.

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾ فرضي بولايتك وطاعتك بدلا من طاعة الرحمن ﴿مِنَ

(٤٥٩) أحمر
أسود

ﵟٱلۡغَاوِينَ ٤٢ﵞ والغاوي ضد الراشد فهو الذي عرف الحق وتركه والضال الذي تركه من غير علم منه به.

ﵟوَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ﵞ أي إبليس وجنوده ﵟلَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖﵞ كل باب أسفل من الآخر ﵟلِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡﵞ أي من أتباع إبليس ﵟجُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤ﵞ بحسب أعمالهم قال الله تعالى: ﵟفَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ٩٥ﵞ [الشعراء: ٩٤، ٩٥].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والذي عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدركات وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد ﷺ، وهي التي تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها ثم لظى ثم الحطمة ثم سعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية، قال الضحاك: في الدرك الأعلى المحمديون، وفي الثاني النصارى، وفي الثالث اليهود، وفي الرابع الصابئون، وفي الخامس المجوس، وفي السادس مشركو العرب، وفي السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة، قال الله تعالى: ﵟإِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِﵞ [النساء: ١٤٥] وقد تقدم في النساء وقال: ﵟأَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ﵞ [غافر: ٤٦].



بيانٌ لبعض ما أُعد للمتقين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﵟإِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨ﵞ.

ج: هذا – والله أعلم –: بيان لحال المتقين، الذين اتقوا الشرك واتقوا العصيان، وذلك بعد أن بُيِّن، حال الفجار الأشرار، فهذا بيان لحال الأبرار

أهل التقوى ومصيرهم إنهم في جنات، حدائق وبساتين، وعيون جارية يقال لهم: ادخلوها، ادخلوا الجنة بسلام من الآفات والأمراض، وسلام من العذاب والعقاب آمنين من العذاب، آمنين نم الزوال والتحول والانتقال، ثم يذكر الله ﷻ مِنَّته وفضله على أهل الجنة فيقول تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ من حسدٍ وضغينة لبعضهم البعض، وجعلناهم إخوانًا على سررٍ متقابلين، يقابل بعضهم بعضًا ويواجه بعضهم بعضًا، لا يصيبهم فيها تعبٌ، وما هم من الجنة بمخرجين، لن يخرجوا منها ولا يتحولون عنها ولا يرغبون في التحول عنها، قال تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] جعلنا الله من أهلها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الذين اتقوا الله بطاعته وخافوه، فتجنبوا معاصيه في جنات وعيون، يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ من عقاب الله، أو أن تُسلبوا نعمة أنعمها الله عليكم، وكرامة أكرمكم بها. قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ يقول: وأخرجنا ما في صدور هؤلاء المتقين الذين وصف صفتهم من حقد وضغينة بعضهم لبعض.

واختلف أهل التأويل في الحال التي ينزع الله ذلك من صدورهم، فقال بعضهم: ينزل ذلك بعد دخولهم الجنة.

وأورد الطبري جملة آثارٍ، وفي أسانيدها مقال مؤداها وفحواها أن عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نزَّل هذه الآية علي وطلحة والزبير وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، أعني نزَّل عليهم قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾، وهذا وإن كان عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع عثمان وطلحة والزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ممن يدخلون في

الآية، لكن بعمومها تشملهم وتشمل المتقين.

هذا، وأودر الطبري حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ قَالَ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا**». وقال بعضهم: ما يشبَّه بهم إلا أهل جمعة انصرفوا من جمعتهم.

وقال في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: لا يَمسّ هؤلاء المتقين الذين وصف صِفتهم في الجنات نَصَب، يعني تَعَب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ يقول: وما هم من الجنة ونعيمها وما أعطاهم الله فيها بمخرجين، بل ذلك دائم أبدا.

وقال ابن كثير رحمه الله:

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون.

وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: سالمين من الآفات، مسلمًا عليكم، ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء.

... وقال:

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «**إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصَب، لا صخب فيه ولا نصب**».

وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ كما جاء في الحديث: «**يقال يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدًا، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا،**

وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدا»، وقال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥﴾ أي الذين اتقوا الفواحش والشرك ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ أي بساتين ﴿وَعُيُونٍ ٤٥﴾ هي الأنهار الأربعة: ماء وخمر ولبن وعسل وأما العيون المذكورة في سورة الإنسان: الكافور والزنجبيل والسلسبيل وفي المطففين: التسنيم فيأتي ذكرها وأهلها إن شاء الله.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾.

بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين هم أهل الجنة يوم القيامة يكونون على سرر وأنهم متقابلون ينظر بعضهم إلى وجه بعض ووصف سررهم بصفات جميلة في غير هذا الموضع منها أنها منسوجة بقضبان الذهب وهي الموضونة قال في الواقعة: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة: ١٣-١٦] وقيل الموضوعة المصفوفة كقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ [الطور: ٢٠] الآية ومنها أنها مرفوعة كقوله في الغاشية: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣﴾ [الغاشية: ١٣] الآية وقوله في الواقعة: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤﴾ [الواقعة: ٣٤]، وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ٧٦﴾ [الرحمن: ٧٦] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة لا يمسهم فيها نصب وهو التعب والإعياء وقوله نصب نكرة في سياق النفي فتعم كل نصب فتدل الآية على سلامة أهل الجنة من جميع أنواع التعب والإعياء وقوله نصب نكرة في

سياق النفي فتعم كل نصب فتدل الآية على سلامة أهل الجنة من جميع أواع التعب والمشقة وأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥] لأن اللغوب هو التعب والإعياء أيضاً وقد صح عن النَّبي ﷺ أنه قال: « **إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب** ».

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة لا يخرجون منها وأكد نفي إخراجهم منها بالباء في قوله ﴿بِمُخْرَجِينَ ﴾ فهم دائمون في نعيمها أبداً بلا انقطاع. وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨] وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ٢-٣] وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود: ١٠٨] وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ص: ٥٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم والنعيم المقيم فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ قد احتوت على جميع الأشجار وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

ويقال لهم حال دخولها: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ من الموت والنوم والنصب، واللغوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض، والحزن والهم وسائر المكدرات، ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ فتبقى قلوبهم سالمة من كل دغل وحسد متصافية متحابة ﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم في كون كل منهم مقابلا للآخر لا مستدبرا له متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

﴿ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ ﴾ لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة لا تقبل شيئا من الآفات، ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ على سائر الأوقات.

ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنة والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى.



قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ
ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ
إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ
أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا
ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ
قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾
وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ
أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ
ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ
أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ

(٤٦٦) أحمر
أسود

إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ
﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ
أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

[الحجر: ٤٩-٧٩]

(٤٦٧) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿نَبِّئْ - وَجِلُونَ - لَا تَوْجَلْ - عَلِيمٍ - مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ - ٱلْقَـٰنِطِينَ - فَمَا خَطْبُكُمْ - قَدَّرْنَآ - ٱلْغَـٰبِرِينَ - مُّنكَرُونَ - يَمْتَرُونَ - بِٱلْحَقِّ - فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ - بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ - وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ - وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ - وَقَضَيْنَآ - دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ - يَسْتَبْشِرُونَ - نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ - لَعَمْرُكَ - سَكْرَتِهِمْ - يَعْمَهُونَ - مُشْرِقِينَ - فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا - سِجِّيلٍ - لِلْمُتَوَسِّمِينَ - لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ - أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ - لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿نَبِّئْ﴾	أخبر - بلِّغ.
﴿وَجِلُونَ﴾	خائفون.
﴿لَا تَوْجَلْ﴾	لا تخف.
﴿عَلِيمٍ﴾	عالم.
﴿مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾	تقدمت في العُمر، كبرت سني.
﴿ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾	اليائسين من رحمة الله.
﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾	فما شأنكم.
﴿قَدَّرْنَآ﴾	حكما وكتبنا (عليها).
﴿ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾	الباقين في العذاب.
﴿مُّنكَرُونَ﴾	لا نعرفهم - غير معروفين.
﴿يَمْتَرُونَ﴾	يشكون - يجادلون.
﴿بِٱلْحَقِّ﴾	بالحكم الحق - مجيئنا إليك بالحق.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾	فأخرج ليلًا بأهلك (قيل في الثلث الأخير).
﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾	في ساعات متأخرة من الليل.
﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾	امشي خلفهم.
﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾	انطلقوا حيث يوجهكم الله ويأمركم.
﴿ وَقَضَيْنَآ ﴾	أبلغنا – أفهمناه أن هذا القضاء قضى وحُكم على قومه به.
﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾	هلكى عن آخرهم، سيقطع سيرتهم ولا تسمع عنهم إلا أخبا تحدث بشأنهم في الصباح.
﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴾	يُبشر بعضهم بعضًا.
﴿نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	ننهك عن استضافة الرجال.
﴿ لَعَمْرُكَ ﴾	لحياتك – لعيشك (قسم بحياة النبي ﷺ).
﴿سَكْرَتِهِمْ ﴾	ضلالتهم – لعبهم – السُّكر الذي أصابهم، وغطى على عقولهم بسبب شهوتهم.
﴿يَعْمَهُونَ ﴾	تحيرون – يترددون.
﴿مُشْرِقِينَ ﴾	عند شروق الشمس.
﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾	فقلبنا البلاد فجعلنا أعلاها أسفلها.
﴿سِجِّيلٍ ﴾	طين متحجر.

(٤٦٩) أحمر
أسود

﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾	للمتفرسين - للمتأملين - للمتفكرين - للمعتبرين.
﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾	لبطريق قائم (يراه الناس).
﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾	أصحاب الشجر الملتف (وهم قوم شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ).
﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾	لبطريق يؤتم به ويستدل به على غيره.



(٤٧٠) أحمر
أسود

الجمع بين الخوف والرجاء

س: كثيرًا ما يقرن بين مقامي الخوف والرجاء، فيذكر الناس بمغفرة الله ثم بعقوبته أو العكس دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

* وقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ [غافر: ٣].

* وقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة: ٩٨].

والآيات في هذا الصدد كثيرة، وكذا الأحاديث.



س: هل صح لقوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ سبب نزول؟

ج: لم يصح للآية الكريمة سبب نزول، وبالله التوفيق.



س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: أخبر يا رسول الله عبادي، الذين هم - في هذا المقام- عموم خلقي، أني أنا الغفور، كثير المغفرة لخلقي ولمن استغفرني وتاب إليَّ ورجع فإني أستر على ذنوبه وأتجاوزك عنها، وأخبرهم أيضًا أنني الرحيم بهم، فقد فتحت لهم أبواب التوبة كي يرهبوا عن ذنوبهم وجرائمهم، وكذلك فإني رحيم بهم إذ أرشدتهم وأرسلتك إليهم وأنزلت عليك كتابي إليهم

نورًا يستنيرون به وهدًى يهتدون به، وكذا فإني أرحم بهم من أنفسهم.

وكذا فأخبرهم أن عذابي لمن عصاني وتمرد على أوامري واجترأ على ما نهيته عنه، هو العذاب المؤلم الموجع حقًّا فليس فوقه عذاب، وليس ثمَّ عذاب أشد منه.

فعليهم من ثمَّ أن يستغفرون ويرجعوا إليَّ ولا ييأسوا من رحمتي ومغفرتي، وكذا لا يأمنوا مكري وعذابي ولا يستخفوا بأوامري.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أخبر عبادي يا محمد، أني أنا الذي أستر على ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا، بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها، الرحيم بهم أن أعذّبهم بعد توبتهم منها عليها ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ يقول: وأخبرهم أيضا أن عذابي لمن أصرّ على معاصيّ وأقام عليها ولم يتب منها، هو العذاب الموجع الذي لا يشبهه عذاب. هذا من الله تحذير لخلقه التقدم على معاصيه، وأمر منه لهم بالإنابة والتوبة.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ ﴾ أي: أخبرهم خبرا جازما مؤيدا بالأدلة، ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته، ومغفرته سَعَوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته.

ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبئهم ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦] حذروا وأبعدوا عن كل

سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائما بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.



شيءٌ من قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الملائكة

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وأخبر عبادي يا رسول الله بضيوف نبي الله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، أخبرهم بضيوف إبراهيم لما دخلوا عليه فسلموا عليه سلامًا، وحيّوه بتحية الإسلام السلام، فقرب إليهم طعامًا فرآهم لا يأكلون فخافهم كما في آيات أخر فقال لهم حينئذٍ: إنا منكم وجلون، أي: خائفون، قالوا: مطمئنين له لا توجل، لا تخف إنا جئتناك ببشارة من عند الله ﷻ: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ سيكون عالمًا مُعلِّمًا، وهو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

فعندها، أي: عند هذه البشارة، قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: أبشرتموني على أن مسني الكبر، أبشرتموني، وقد تقدم سني وبلغت من الكبر مبلغًا؟!!

يتعجب عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه البشارة، وهو على هذه الحال من الكبر، وامرأته

كانت عاقرًا كذلك فقد مكث إبراهيم زمانًا طويلًا من عمره لـم يـرزق بالذريـة، كما تقدم في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ففـي هـذا تصـبير لمـن تـأخرت عنـه الذريـة، فالحاصـل أن إبـراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ تعجب هـو وزوجتـه مـن سـارة عَلَيْهَا السَّلَامُ مـن هـذه البشـارة وأدى للملائكـة الكـرام الذين هم أضـيافه تعجبـه بقولـه: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ قـالوا مجيبـين: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالبشـارة الحـق التـي هـي مـن عنـد الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الآيسين من رحمة الله، ومن رزق الله عَزَّ وَجَلَّ.

فعنـدها قـال الخليـل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾، أي: ومن ييـأس مـن رحمـة الله ويسـتبعدها إلا مـن بعيـد عـن الحـق والصـواب والهدى والرشاد، الذي أخطأ الطريق طريق الإيمان ومادعته.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقـول تعـالى ذكـره لنبيـه محمـد ﷺ: وأخـبر عبـادي يـا محمـد عـن ضـيف إبراهيم: يعني الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم خليل الرحمن حين أرسلهم ربهم إلـى قـوم لـوط ليهلكـوهم﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ يقـول: فقـال الضـيف لإبـراهيم: سلاما ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ يقـول: قـال إبـراهيم: إنـا منكم خـائفون. وأمـا قوله: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ وهو يعني به الضيف، فجمـع الخـبر عـنهم، وهـم في لفـظ واحد، فإن الضيف اسم للواحد والاثنين والجمع مثل الوزن والقطر والعـدل، فلـذلك جمـع خـبره، وهـو لفـظ واحـد. وقولـه: ﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ ﴾ يقـول: قـال الضيف لإبراهيم: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾.

يقـول تعـالى ذكـره: قـال إبـراهيم للملائكـة الـذين بشَّـروه بغـلام علـيم

﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ يقول: فبأي شيء تبشرون.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: قال ضيف إبراهيم له: بشرناك بحقّ يقين، وعلم منَّا بأن الله قد وهب لك غلاما عليما، فلا تكن من الذين يقنطون من فضل الله فييأسون منه، ولكن أبشر بما بشرناك به واقبل البُشرى.

وقوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم للضيف: ومن ييأس من رحمة الله إلا القوم الذين قد أخطئوا سبيل الصواب، وتركوا قصد السبيل في تركهم رجاء الله، ولا يخيب من رجاه، فضلوا بذلك عن دين الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ والضيف: يطلق على الواحد والجمع، كالزور والسُّفْر -وكيف ﴿دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: خائفون.

وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ.

﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، كما تقدم في سورة هود.

ثم قال متعجبًا من كبره وكبر زوجته ومتحققًا للوعد: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقًا وبشارة بعد بشارة، ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ وقرأ بعضهم: «القنطين» -فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد

كبر وأسنَّت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾ ضيف إبراهيم: الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط وقد تقدم ذكرهم وكان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يكنى أبا الضيفان وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد وسمي الضيف ضيفا لإضافته إليك ونزوله عليك وقد مضى من حكم الضيف في هود ما يكفي والحمد لله ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر ضافه وأضافه أماله ومنه الحديث «**حيث تضيف الشمس للغروب**» وضيفوفة السهم والإضافة النحوية ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: سلموا سلاما ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي: فزعون خائفون وإنما قال هذا بعد أن قرب العجل ورآهم لا يأكلون على ما تقدم في هود وقيل: أنكر السلام ولم يكن في بلادهم رسم السلام ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أي قالت الملائكة لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي حليم قاله مقاتل وقال الجمهور: عالم وهو إسحاق ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أن مصدرية أي على مس الكبر إياي وزوجتي وقد تقدم في هود وإبراهيم حيث يقول: فبم تبشرون استفهام تعجب وقيل: استفهام حقيقي.

... ثم قال:

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بما لا خلف فيه وأن الولد لا بد منه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي من الآيسين من الولد وكان قد أيس من الولد لفرط الكبر.

وقال في قوله: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب يعني أنه استبعد الولد لكبر

سنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أولئك الضيف الكرام الذين هم ملائكة بشروا إبراهيم بغلاف موصوف بالعلم ونظير ذلك قوله تعالى أيضًا في الذاريات: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ وهذا الغلام بين تعالى أنه هو إسحاق كما يوضح ذلك قوله في الذاريات ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٨-٣٠]؛ لأن كونها أقبلت في صرة أي صيحة وضجة وصكت وجهها أي لطمته قائلة إنها عجوز عقيم يدل على أن الولد المذكور هي أمه كما لا يخفى ويزيده إيضاحًا تصريحه تعالى ببشارتها هي بأنها تلده مصرحًا باسمه واسم ولده يعقوب وذلك في قوله تعالى في هود في القصة بعينها: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود: ٧١، ٧٢] وأما الغلام الذي بشر به إبراهيم الموصوف بالحلم المذكور في الصافات في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٢] فهو إسماعيل وسترى إن شاء الله تعالى في سورة الصافات دلالة الآيات القرآنية على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق على وجه قاطع للنزاع، والغلام يطلق في لغة العرب على العبد وعلى الصغير الذي لم يبلغ وعلى الرجل البالغ ومن إطلاقه على البالغ قول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم النهروان: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾ فهو إسماعيل وسترى إن شاء الله تعالى في سورة الصافات دلالة

الآيات القرآنية على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق على وجه قاطع للنزاع.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ أي: عن تلك القصة العجيبة فإن في قصك عليهم أنباء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم، خصوصا إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيفه هم الملائكة الكرام أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: سلموا عليه فرد عليهم ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: خائفون، لأنه لما دخلوا عليه وحسبهم ضيوفا ذهب مسرعا إلى بيته فأحضر لهم ضيافتهم، عجلا حنيذا فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل، إليه خاف منهم أن يكونوا لصوصا أو نحوهم.

فـ ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أنثى عليم أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

فقال لهم متعجبا من هذه البشارة: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ وصار نوع إياس منه ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: على أي وجه تبشرون وقد عدمت الأسباب؟

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص -يا أهل هذا البيت- رحمة الله وبركاته عليكم فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجيا لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه، فأجابهم إبراهيم بقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ الذين لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره وأما

من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئا كثيرا، ثم لما بشروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمر مهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: أن إبراهيم عليه السلام سأل الملائكة عليهم السلام سؤالًا بعد أن اطمأن إليهم واستأنس معهم وبهم، وبعد أن بشروه بالبشارة التي بشروه بها، قال فما خطبكم، أي: فما شأنكم وما وجهتكم أيها المرسلون، يا ملائكة الله الكرام يا من أرسلكم الله؟!!

فأجابوه بقوله: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ أرسلنا الله عز وجل لتدمير بلادهم ولإهلاكهم وتعذيبهم واختبارهم وابتلائهم واستدراجهم، أرسلنا إلى قوم مجرمين اجترموا الكفر والكبائر واكتسبوها وتمادوا فيها ولم ينتفعوا بنصح ولا بتذكير، أرسلنا لتدمير وإهلاك قوم لوط الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا واجترموا الجرائم العظيمة بفعلة شنيعة لم تكن موجودة من قبل في أسلافهم، ألا وهي إتيان الذكران من العالمين.

أرسلنا إليهم لتدمير بلادهم ولتعذيبهم، فعندما قالوا ذلك لخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ذكرهم بمن فيها من أهل الفضل والصلاح، كما في آية أُخرى إذ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ﴾ [العنكبوت: ٣٢] فأجابوه بقولهم نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته، وهنا قالوا لإبراهيم عليه السلام: إلا أل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا، قضينا عليها بالهلاك والبقاء في العذاب مع

المعذبين، مع الهلكى الذي سيهلكون، وذلك بأمر الله لنا بذلك.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم للملائكة: فما شأنكم: ما أمرُكم أيُّها المرسلون؟ قالت الملائكة له: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين: يقول: إلى قوم قد اكتسبوا الكفر بالله، إلا آل لوط: يقول: إلا اتباع لوط على ما هو عليه من الدِّين، فإنا لن نهلكهم بل ننجيهم من العذاب الذي أمرنا أن نعذّب به قوم لوط، سوى امرأة لوط قدّرنا إنها من الغابرين: يقول: قضى الله فيها إنها لمن الباقين، ثم هي مهلكة بعد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى إخبارًا عن إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين؛ ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: الباقين المهلكين.



قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الملائكة

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن الملائكة الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ انصرفوا من عند نبي

الله إبراهيم ﷺ واتجهوا إلى بلاد قوم لوط، ومدائنهم، فذهبوا إلى لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يسلمون عليه ويخبرونه بأمر قومه وما سيحل بهم، ويخبرونه بالمطلوب منه فعله، فلما دخلوا على لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا على درجة عظيمة من الجمال والبهاء والحسن، استاء لوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمجيئهم كما تقدم في آيات أخر من سور أخر، إذ قال تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ [العنكبوت: ٣٣] وذلك لما يخشاه عليهم من قومه الأشرار، وهنا قال لهم: أنكر قوم منكرون، لا نعرفكم، وكان كذلك لا يعرفهم إلا بعد أن عرَّفوه بأنفسهم، فقالوا له: (كما في آيات أُخر) إنا رسل ربك، وهنا قالوا له بل جئناك لتعذيب هؤلاء القوم، لإنزال العذاب الذي كانوا يشكون فيه ويجادلون فيه لما أخبرتهم به، فها نحن قد جئناك لتعذيبهم ولإحلال العذاب بهم ولتدميرهم لقد جئناك، ومجيئنا إليك بالحق والصدق لم نأت عابثين، ولم نأت من قبل أنفسنا، بل أرسلنا ربنا عَزَّ وَجَلَّ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به، وصادقون في مجيئنا إليك.

ثم وجهوا إليه النصائح والأوامر قائلين له، فأسر بأهلك، اخرج مع أهلك ليلًا، في أواخر الليل، وكن من وراء أهلك إذا ساروا حتى تحملهم على الإسراع، وحتى لا يتخلف من أهلك المؤمنين أحدٌ، ولا تلفتوا إلى الوراء، لا تفكروا في شيء تركتموه ولا تنظروا إلى ما سيحل بالقوم، وجدُّوا في امسير، وأمعنوا في الخروج في هذه البلاد وسيروا حيث توجهون، سيروا حيث يرشدكم الله عَزَّ وَجَلَّ ويهديكم، قيل: إن ذلك إلى الشام، وقيل غير ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أي: وأخبرناه بذلك الأمر الذي قد قُضي وانتهى، أعلمناه بهذا الأمر الذي هو أن هؤلاء سيهلكون عن آخرهم في الصباح، لن يتخلف عن الإهلاك منهم أحدٌ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: ٨١].

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما أتى رسلُ الله آل لوط، أنكرهم لوط فلم يعرفهم، وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي نُنْكركم لا نعرفكم، فقالت له الرسل: بل نحن رسل الله جئناك بما كان فيه قومك يشكون أنه نازل بهم من عذاب الله على كفرهم به.

ويقول تعالى ذكره: قالت الرسل للوط: وجئناك بالحق اليقين من عند الله، وذلك الحقّ هو العذاب الذي عذب الله به قوم لوط. وقد ذكرت خبرهم وقصصهم في سورة هود وغيرها حين بعث الله رسله ليعذّبهم به. وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يقولون: إنا لصادقون فيما أخبرناك به يا لوط من أن الله مهلك قومك﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ يقول تعالى ذكره مخبرا عن رسله أنهم قالوا للوط، فأسر بأهلك ببقية من الليل، واتبع يا لوط أدبار أهلك الذين تسري بهم وكن من ورائهم، وسر خلفهم وهم أمامك، ولا يلتفت منكم وراءه أحد، وامضوا حيث يأمركم الله.

ويقول تعالى ذكره: وفرغنا إلى لوط من ذلك الأمر، وأوحينا أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين: يقول: إن آخر قومك وأوّلهم مجذوذ مستأصل صباح ليلتهم، وأنّ من قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ ﴾ في موضع نصب ردّا على الأمر بوقوع القضاء عليها. وقد يجوز أن تكون في موضع نصب بفقد الخافض، ويكون معناه: وقضينا إليه ذلك الأمر بأن دابر هؤلاء مقطوع مُصبحين. وذكر أن ذلك في قراءة عبد الله: وقلنا إن دابر هؤلاء مقطوع مُصبحين. وعُنِي بقوله: ﴿مُّصْبِحِينَ ﴾: إذا أصبحوا، أو حين يصبحون.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يعنون: بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم، ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه، والله أعلم.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يَسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط، عَلَيْهِ السَّلَامُ، يمشي وراءهم، ليكون أحفظ لهم.

وهكذا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي في الغَزاة بما كان يكون ساقة، يُزجي الضعيف، ويحمل المنقطع

وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال، ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: وقت: الصباح كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٨١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أي لا أعرفكم وقيل: كانوا شبابا ورأى جمالا فخاف عليهم من فتنة قومه فهذا هو الإنكار ﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ أي يشكون أنه نازل بهم وهو العذاب ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالصدق وقيل: بالعذاب ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي في هلاكهم ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ تقدم في هود ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي كن من ورائهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ نهوا عن الالتفات ليجدوا في السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح وقيل: المعنى لا يتخلف.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ﴿ قَالَ ﴾ الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للملائكة: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي: ما شأنكم ولأي شيء أرسلتم؟

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي: كثر فسادهم وعظم شرهم، لنعذبهم ونعاقبهم، ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ أي: إلا لوطا وأهله ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ أي: الباقين بالعذاب، وأما لوط فسنخرجنه وأهله وننجيهم منها، فجعل إبراهيم يجادل الرسل في إهلاكهم ويراجعهم، فقيل له: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود: ٧٦] فذهبوا منه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ ﴾ لهم لوط ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي لا أعرفكم ولا أدري من أنتم

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ أي جئناك بعذابهم الذي كانوا يشكون فيه ويكذبونك حين تعدهم به ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي ليس بالهزل ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ فيما قلنا لك.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي في أثنائه حين تنام العيون ولا يدري أحد

عـن مسـراك ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي بـادروا وأسـرعوا ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ كـأن معهـم دلـيلا يـدلهم إلـى أيـن يتوجهـون ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ﴾ أي أخبرناه خبرا لا مثنوية فيه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم ويستأصلهم.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولما بلغ خبر الأضياف الذين نزلوا بنبي الله لوط عليه السلام، ولما علم قومه بمجيئهم، قيل: أخبرتهم به زوجته الخائنة – جاءوا يبشر بعضهم بعضًا، يبشر بعضهم بعضًا، عياذًا بالله، بالأضياف كي يفعلوا معهم المحرم، فجاءوا مسرعين يطرقون على لوطٍ عليه السلام بأمه، فقال لهم مُذكرًا ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ ضيوفي، وحق للضيف أن يُكرم، حقٌّ للضيف أن يُحافظ عليه ويُنزل أحسن المنازل فلا تفضحوني مع أضيافي ولا تحرجوني معهم وراقبوا الله واجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بترك أذاي، وترك إهانة أضيافي ولا تخزوني مع أضيافي، فلم يستجيبوا له ولم يعبأوا به ولا بتذكيره، بل تمادوا في غيِّهم وضلالهم فقالوا له: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ عن استضافة أحدٍ من البشر فعندها عرض عليهم نبي الله لوط عليه السلام بناته للزوج بهن، قيل إنهن بنات لصلبه، وقيل: إنهن بنات قومه، فكل نبي بمثابة الوالد لقومه.

فقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ أي: تزوجوهن إن كنتم تريدون الزواج والتعفف بالحلال الطيب.

ثم يُقسم الله تعالى بحياة نبيه ﷺ.

قال أكثر أهل العلم: إنه قسمٌ بحياة النبي محمد ﷺ، وقيل: إنه قسمٌ بحياة نبي الله لوط عليه السلام، والأول أشهر وعليه الأكثر.

أما قوله تعالى: ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ فمعناها لفي السُّكر الذي أصابهم بسبب الشهوة الجارفة يتحيرون ويترددون.

وقيل: لمعنى سكرتهم أي: لفي ضلالتهم يلعبون ويخوضونه.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ أي: فأخذتهم الصيحة عند شروق الشمس، والمراد بها: الصيحة الشديدة الصاعقة التي صعقتهم، وذلك في الصباح عند شروق الشمس فقلبنا بلادهم، جعلنا العالي منها هو الأسفل، والأسفل هو العالي، قلبناها رأسًا على عقب، وبعد أن قلبناها أتبعنا أهلها بحجارة من سجيل، من طين متحجر شديد متصلب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي نزل بهم ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ لدلالات وعلامات ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ المتفكرين المتأملين المعتبرين ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: هذه البلاد التي دُمرت وأهلكت ﴿لَبِسَبِيلٖ﴾ بطريق، أي: موجودة بطريق مقيم، لا يزال قائمًا موجودًا يراه المارة، إن في ذلك الذي حدث لهم لدلالة على قدرتنا ووحدانيتنا وشدة انتقامنا ممن خالفونا وعاندونا وكذبوا رسلنا، فيما حدث دلالة لأهل الإيمان يستدلون بها على ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾، فتذكيرٌ أيضًا بأصحاب الأيكة، وهي الشجر العظيم الملتف، وهم قوم شعيب عليه السلام، كانوا أيضًا أهل ظلم وشرك وتطفيف للمكاييل والموازين، فانتقمنا منهم أيضًا كما انتقمنا من

قوم لوط، ثم إن بلادهم وبلاد قوم لوط، تلك التي دُمرت وأُهلكت لموجودةٌ بطريق واضح يأتمون به في سفرهم ويهتدون به ويستدلون به على غيره.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ يقول: وجاء أهل مدينة سَدُوم وهم قوم لوط لما سمعوا أن ضيفا قد ضاف لوطا مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعا منهم في ركوب الفاحشة.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ استبشروا بأضياف نبيّ الله ﷺ لوط، حين نزلوا لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه: إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفي، وحقّ على الرجل إكرام ضيفه، فلا تفضحون أيها القوم في ضيفي، وأكرموني في تركـكم التعرّض لهم بالمكروه، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ يقول: وخافوا الله فيّ وفي أنفسكم أن يحلّ بكم عقابه ﴿وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾ يقول: ولا تذلوني ولا تهينوني فيهم، بالتعرّض لهم بالمكروه ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ يقول تعالى ذكره: قال للوط قومه: أو لم ننهك أن تضيف أحدا من العالمين.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة، قوله: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ قال: ألم ننهك أن تضيف أحدا؟

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ

يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه: تزوّجوا النساء فأتوهنّ، ولا تفعلوا ما قد حرّم الله عليكم من إتيان الرجال، إن كنتم فاعلين ما آمركم به، ومنتهين إلى أمري.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾: أمرهم نبيّ الله لوط أن يتزوّجوا النساء، وأراد أن يَقِيَ أضيافه بناته.

وقوله: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وحياتك يا محمد، إن قومك من قريش ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ يقول: لفي ضلالتهم وجهلهم يتردّدون.

وأورد من طريقين عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوْزاء، عن ابن عباس، قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم على الله من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى ذكره: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وأورد نحوه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة، قوله: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ وهي كلمة من كلام العرب، لفي سكرتهم: أي في ضلالتهم يعمهون: أي يلعبون.

وأورد بإسناد صحيح عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون أن يقول الرجل: لعمري، يرونه كقوله: وَحَيَاتِي.

وقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ يقول تعالى ذكره: فأخذتهم صاعقة العذاب، وهي الصيحة مشرقين: يقول: إذ أشرقوا، ومعناه: إذ أشرقت الشمس، ونصب مشرقين و مصبحين على الحال بمعنى: إذا أصبحوا، وإذ أشرقوا، يقال منه: صيح بهم، إذا أهلكوا.

(٤٨٨) أحمر
أسود

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: فجعلنا عالي أرضهم سافلها، وأمطرنا عليهم حِجارة من سجيل.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، عن عكرمة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ أي من طين.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ يقول: إن في الذي فعلنا بقوم لوط من إهلاكهم، وأحللنا بهم من العذاب لَعَلامات ودلالات للمتفرّسين المعتبرين بعلامات الله، وعبره على عواقب أمور أهل معاصيه والكفر به.
وإنما يعني تعالى ذكره بذلك قوم نبيّ الله ﷺ من قريش، يقول: فلقومك يا محمد في قوم لوط، وما حلّ بهم من عذاب الله حين كذّبوا رسولهم، وتمادوا في غيهم، وضلالهم، مَعْتَبَر.

وأورد الطبري بعض الطرق الضعيفة لحديث: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله**».

وكذا أورد حديث: «**إن لله عبادًا يعرفون الناس بالتوسم**».

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: وإن هذه المدينة، مدينة سَدُوم، لبطريق واضح مقيم يراها المجتاز بها لا خفاء بها، ولا يبرح مكانها، فيجهل ذو لبّ أمرها، وغبّ معصية الله، والكفر به.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ يقول: بطريق واضح.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في صنيعنا بقوم لوط ما صنعنا بهم.

عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ قال: هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره: وقد كان أصحاب الغَيْضة ظالمين، يقول: كانوا بالله كافرين، والأيكة: الشجر الملتف المجتمع.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة. وكان عامَّة شجرهم هذا الدَّوْم. وكان رسولهم فيما بلغنا شُعَيب ﷺ، أرسل إليهم وإلى أهل مدين، أرسل إلى أمتين من الناس، وعذّبتا بعذابين شتى. أما أهل مدين، فأخذتهم الصيحة، وأما أصحاب الأيكة، فكانوا أهل شجر متكاوس، ذُكر لنا أنه سلَّط عليهم الحرّ سبعة أيام، لا يظللهم منه ظلّ، ولا يمنعهم منه شيء، فبعث الله عليهم سحابة، فحَلُّوا تحتها يلتمسون الرَّوْح فيها، فجعلها الله عليهم عذابا، بعث عليهم نارا فاضطرمت عليهم فأكلتهم، فذلك عذاب يوم الظلَّة، إنه كان عذاب يوم عظيم.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ يقول تعالى ذكره: فانتقمنا من ظلمة أصحاب الأيكة. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ يقول: وإن مدينة أصحاب الأيكة، ومدينة قوم لوط، والهاء والميم في قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ من ذكر المدينتين. ﴿لَبِإِمَامٍ﴾ يقول: لبطريق يأتمون به في سفرهم، ويهتدون به

﴿مُّبِينٍ﴾ يقول: يبين لمن ائتمّ به استقامته، وإنما جعل الطريق إماما لأنه يُؤم ويُتَّبع.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين، ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩﴾

وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما قال في سياق سورة هود، وأما هاهنا فتقدم ذِكرُ أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحدًا؟ فأرشدهم إلى نسائهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم أيضا القول في ذلك، بما أغنى عن إعادته.

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاه عريض.

قال عمرو بن مالك النُّكْري عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ رواه ابن جرير[1].

(١) روى من طرق عن عمرو بن مالك عند الطبري وغيره.

وقال قتادة: ﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالتهم، ﴿يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ أي: يلعبون.

يقول: تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عَنان السماء ثم قلْبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل في (١) هود بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ أي: إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسَّمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: المتفرسين.

وأورد أقوالًا أُخر في تفسير المتوسمين منها: المتأملين، ومنها: المعتبرين.

وأورد طرقًا ضعيفة لحديث: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله**».

وكذا أورد حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن لله عبادًا يعرفون الناس بالتوسم**».

ثم قال:

وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾ أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة لبطريق مَهْيَع مسالكه مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وأورد أقوالًا في تفسير: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾ منها معلم، ومنها بطريق واضح.

... ثم قال:

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾ أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من

(١) سورة

الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله، لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب.

قال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: الأيكة: الشجر الملتف.

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريبًا من قوم لوط، بَعْدَهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي: طريق مبين.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود: ٨٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي أهل مدينة لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ مستبشرين بالأضياف طمعا منهم في ركوب الفاحشة ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى ﴾ أي أضيافي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي تخجلون ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ يجوز أن يكون من الخزي وهو الذل والهوان ويجوز أن يكون من الخزاية وهو الحياء والخجل وقد تقدم في هود ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي عن أن تضيف أحدا لأنا نريد منهم الفاحشة وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء عن الحسن وقد تقدم في الأعراف وقيل: أو لم ننهك عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ أي فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام وقد تقدم بيان هذا في هود.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال القاضي أبو بكر بن العربي: قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى

ها هنا بحياة محمد ﷺ تشريفا له أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون وفي حيرتهم يترددون قلت: وهكذا قال القاضي عياض: أجمع أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال ومعناه وبقائك يامحمد وقيل وحياتك وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد ﷺ لأنه أكرم البرية عنده قال بن العربي: ما الذي يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء الله وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفيه من شرف لمحمد ﷺ لأنه أكرم على الله منه أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع ولايخرج من كلام إلى كلام لم يجر له ذكر لغير ضرورة.

وقال أيضًا:

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ نصب على الحال أي وقت شروق الشمس يقال أشرقت الشمس أي أضاءت وشرقت إذا طلعت وقيل: هما لغتان بمعنى وأشرق القوم أي دخلوا في وقت شروق الشمس مثل أصبحوا وأمسوا وهو المراد في هذه الآية وقيل: أراد شروق الفجر وقيل: أول العذاب كان عند الصبح وامتد إلى شروق الشمس فكان تمام الهلاك عند ذلك والله أعلم والصيحة العذاب وتقدم ذكر سجيل [هود: ٨٢].

وقال:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني قرى قوم لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي على طريق قومك يامحمد إلى الشام ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي لعبرة للمصدقين ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ يريد قوم شعيب كانوا أصحاب

غياض ورياض وشجر مثمر والأيكة: الغيضة وهي جماعة الشجر والجمع الأيك ويروى أن شجرهم كان دوما وهو المقل قال النابغة:

تجلو بقادمتى حمامة أيكة   بردا أسف لثاته بالإثمد

وقيل: الأيكة اسم القرية وقيل اسم البلدة وقال أبو عبيدة: الأيكة وليكة مدينتهم بمنزلة بكة من مكة وتقدم خبر شعيب وقومه ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ أي بطريق واضح في نفسه ويعني مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمر عليهما.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن فيما أوقع من النكال بقوم لوط آيات للمتأملين في ذلك تحصل لهم بها الموعظة والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك العذاب الذي أنزل بقوم لوط لما عصوه وكذبوا رسوله. وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في العنكبوت: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥] وقوله في الذاريات: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٧] وقوله هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ وقوله في الشعراء بعد ذكر قصة قوم لوط: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]، كما صرح بمثل ذلك في إهلاك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب في الشعراء.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن ديار قوم لوط وآثار تدمير الله لها بسبيل مقيم أي بطريق ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، يمر بها أهل الحجاز في ذهابهم إلى الشام، والمراد أن آثار تدمير الله لهم التي تشاهدون في أسفاركم فيها لكم عبرة ومزدجر يوجب عليكم

الحذر من أن تفعلوا كفعلهم لئلا ينزل الله بكم مثل ما أنزل بهم وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وقوله: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠]. وقوله فيها وفي ديار أصحاب الأيكة: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي المدينة التي فيها قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي يبشر بعضهم بعضا بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط فجعلوا يعالجون لوطا على أضيافه ولوط يستعيذ منهم ويقول ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ أي: راقبوا الله أول ذلك وإن كان ليس فيكم خوف من الله فلا تفضحون في أضيافي، وتنتهكوا منهم الأمر الشنيع.

فـ ﴿قَالُوٓاْ﴾ له جوابا عن قوله ولا تخزون فقط: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أن تضيفهم فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر فقد أعذر.

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ فلم يبالوا بقوله ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ وهذه السكرة هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم.

فلما بينت له الرسل حالهم، زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب، فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلا فنجوا، وأما أهل القرية ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: وقت شروق الشمس حين كانت العقوبة عليهم أشد، ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلبنا عليهم مدينتهم، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ

﴿٧٤﴾ تتبع فيها من شذ من البلد منهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: المتأملين المتفكرين، الذين لهم فكر وروية وفراسة، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصا هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرأوا على أشنع السيئات.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: مدينة قوم لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وفي هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليله إبراهيم، فإن لوطا عليه السلام من أتباعه، وممن آمن به فكأنه تلميذ له، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك، أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عليه السلام كي يبشروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم حتى أقنعوه، فطابت نفسه.

وكذلك لوط عليه السلام ، لما كانوا أهل وطنه، فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم قدَّر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٨١] ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم وطغيانهم، فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

وهؤلاء هم قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار، ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها بل جاءهم نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكاييل والموازين، وعاجلهم على ذلك على أشد المعالجة فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق، وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم، ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿

(٤٩٧) أحمر
أسود

لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ أي: لبطريق واضح يمر بهم المسافرون كل وقت، فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار فيعتبر بذلك أولوا الألباب.



س: ما مدى صحة حديث رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله». وكذا حديث: «إن لله عبادًا يعرفون الناس بالتوسم»؟

ج: الحديثان كلاهما ضعيف، ولا يصحان عن رسول الله ﷺ أما الأول: فأخرجه الترمذي، والبخاري في التاريخ الكبير، والطبري وغيرهم[1] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا وفي سنده عطية العوفي وهو ضعيف.

وله سند آخر عن أبي أمامة ضعيف أيضًا[2]، أخرجه الطبراني وابن عدي وغيرهم، وفي سنده عبد الله بن صالح وهو ضعيف.

أما الحديث الآخر: «إن لله عبادًا...». وضعيف أيضًا، أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط[3] وغيرهما.



(١) الترمذي (٣١٢٧)، والبخاري في التاريخ (٧/ ٣٥٤) والطبري في تفسير الآية.
(٢) الطبراني (٨/ ١٠٢)، وابن عدي ترجمة عبد الله بن صالح (٤/ ٢٠٦).
(٣) الطبراني في تفسير الآية، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٠٧).

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ٨١ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ
مُصْبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ٨٤ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ
٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ٨٦ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى
وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا
تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ٨٨ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ
٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ٩١
فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٩٣ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ
وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ
ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٩٦ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ
٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ
ٱلْيَقِينُ ٩٩ ﴾

[الحجر: ٨٠-٩٩]

(٤٩٩) أحمر
أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ٱلۡحِجۡرِ - وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا - مُصۡبِحِينَ - فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ - ٱلۡخَلَّٰقُ - سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي - أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ - وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ - ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ - ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ - عِضِينَ - فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ - ٱلۡيَقِينُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلۡحِجۡرِ﴾	سكان الحجر، وهو مكان بالحجاز (وهم قوم ثمود).
﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾	وآتيناهم بالمعجزات التي طلبوها من عندنا (كالناقة وغيرها).
﴿مُصۡبِحِينَ﴾	في الصباح.
﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾	فأعرض عنهم الإعراض الجميل الذي ليست فيه، وليست معه مؤاخذات ولا عقاب.
﴿ٱلۡخَلَّٰقُ﴾	الخلاق لكل المخلوقات - خالق كل الأشياء.
﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾	سبع آيات تتكرر، وهي فاتحة الكتاب، وقيل: السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وقيل: يونس، وقيل: الأنفال، وبراءة سورة واحدة.
﴿أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾	أصنافًا منهم (فهذا الغنى، وهذا ذو المنصب وهذا الجميل وهذا المعاني الصحيح، وهذا ذو الأولاد والبنات، وهذا ذو الجاه والعشيرة...).

(٥٠٠) أحمر
أسود

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾	تواضع وكن لين الجانب، سهلًا سمحًا.
﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾	المنذر الموضح للحقائق، والمحذر من العصيان، والنيران والعذاب الذي قد بيَّن لكم..
﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾	الذين أقسموا فيما بينهم على عداوة النبي ﷺ وأيضًا الذين تقاسموا القول في القرآن..
﴿عِضِينَ﴾	قطعًا، وفِرقًا، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقال فريق منهم: سحر، وقال آخرون: شعرٌ، وقال غيرهم: كذب وزور.
﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾	متكلِّم بالحق الذي أمرت بإبلاغه وأظهر ذلك وشق به صفوف المشركين.
﴿ٱلۡيَقِينُ﴾	الحق الذي لا شك فيه، والمراد هنا الموت الذي به تتحقق من صحة ما أُخبرت به.



شيءٌ من ذِكر قبيلة ثمود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: ولقد كذب أصحاب الحجر، وهم قوم ثمود، والحجر مكان معروف بالحجاز. قيل: إنه قريب من تبوك، أو في الطريق إليها، كذب هؤلاء القوم الذين كانوا يسكنون هذا المكان وتلك الديار، ديار ثمود كذبوا رسولهم صالحًا عليه السلام، ومن كذب رسولًا فقد كذب الرسل كلهم، ذلك لان أصل دعوة المرسلين واحدة وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فمن ثمَّ قيل: ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين، وآتيناهم آياتنا، أي: وجاءتهم آياتنا، والمعجزات التي طلبوها للاستدلال بها على نبوة نبي الله صالح عليه السلام، والتي من أعظمها الناقة التي أخرجها الله لهم بناء على طلبهم وكانت تشرب الماء، ماء البئر يومًا ويشربون لبنها يومًا، ناقةً عظيمة هائلة، وكما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا..﴾ [الإسراء: ٥٩]، وكذا آتيناهم غيرها من الآيات والنعم فكذبوا بذلك كله وأعرضوا عن الإيمان، وكان من نعم الله عليهم أن رزقهم قوةً في الأبدان فكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا، وهم في مأمنٍ، مأمنٍ من سقوطها عليهم، وكذا مأمنٍ من عدوهم، وكذا مأمن في بيوتهم، وكذا في مأمنٍ من عذاب الله عز وجل، فكذبوا - كما سلف- بذلك كله وعقروا الناقة وأظهروا التحدي، وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فأخذتهم الصيحة، الصوت الشديد القاتل الذي دمرهم في الصباح بعد ثلاثة أيام من عقرهم الناقة، فما نفعهم عملهم ولا كسبهم ولا دفعت عنهم قوتهم من عب الله من شيء، ولا نفعتهم تلك البيوت التي كانوا ينحتونها في الجبال.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد كذب سكان الحجر، وجعلوا لسكناهم فيها ومقامهم بها أصحابها، كما قال تعالى ذكره: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ [الأعراف: ٤٤] فجعلهم أصحابها لسُكناهم فيها ومقامهم بها. والحجر: مدينة ثمود.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن عبد الله بن عمر قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، ثم زجر فأسرع حتى خلفها**».

وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٨١﴾ يقول: وأريناهم أدلتنا وحججنا على حقيقة ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحا، فكانوا عن آياتنا التي آتيناهموها معرضين لا يعتبرون بها ولا يتعظون.

يقول تعالى ذكره: وكان أصحاب الحجر، وهم ثمود قوم صالح، ﴿يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ من عذاب الله، وقيل: آمنين من الخراب أن تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال. وقيل: آمنين من الموت. وقوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ۝٨٣﴾ يقول: فأخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم الذي وُعدوا العذاب، وقيل لهم: تَمتَّعوا في داركم ثلاثة أيام. وقوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨٤﴾ يقول: فما دفع عنهم عذاب الله ما كانوا يجترحون من الأعمال الخبيثة قبل ذلك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحا نبيهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وذكر تعالى: أنهم ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرا وبطرا وعبثا، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر، الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقنع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «**لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم**».

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ أي بآياتنا كقوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] أي بغذائنا. والمراد الناقة، وكان فيها آيات جمة: خروجها من الصخرة، ودنو نتاجها عند خروجها، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا. ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة، كالبئر وغيره. ﴿فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي لم يعتبروا.

وقال أيضًا:

النحت في كلام العرب: البري والنجر. نحته ينحته بالكسر نحتا أي براه.

والنحاتة البراية. والمنحت ما ينحت به. وفي التنزيل ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصافات: ٩٥] أي تنجرون وتصنعون. فكانوا يتخذون من الجبال بيوتا لأنفسهم بشدة قوتهم. ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي من أن تسقط عليهم أو تخرب. وقيل: آمنين من الموت. وقيل: من العذاب. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي في وقت الصبح، وهو نصب على الحال. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ من الأموال والحصون في الجبال، ولا ما أعطوه من القوة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه آتى أصحاب الحجر ـ وهم ثمود ـ آياته فكانوا عنها معرضين. والإعراض: الصدود عن الشيء وعدم الالتفات إليه؛ كأنه مشتق من العرض ـ بالضم ـ وهو الجانب؛ لأن المعرض لا يولي وجهه بل يثني عطفه ملتفتاً صاداً.

ولم يبين جل وعلا هنا شيئاً من تلك الآيات التي آتاهم، ولا كيفية إعراضهم عنها، ولكنه بين ذلك في مواضع أُخر، فبين أن من أعظم الآيات التي آتاهم: تلك الناقة التي أخرجها الله لهم، بل قال بعض العلماء إن في الناقة المذكورة آيات جمة كخروجها عشراء وبراء جوفاء من صخرة صماء، وسرعة ولادتها عند خروجها، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعاً، وكثرة شربها؛ كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٢٨].

فإذا علمت ذلك، فاعلم أن مما يبين قوله هنا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [١٥/ ٨١]، قوله: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٤-١٥٥]، وقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن

(٥٠٥) أحمر
أسود

رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ الآية [الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر٢٧]، وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود: ٦٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين إعراض قوم صالح عن تلك الآيات في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾ الآية [هود: ٦٥]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾...﴾ الآية [الشمس: ١١-١٤]، وقوله: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩]، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَاۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ الآية [الشعراء: ١٨٥-١٨٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين أي: كذبوا صالحا، ومن كذب رسولا فقد كذب سائر الرسل، لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، التي من جملتها: تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة.

﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ كبرا وتجبرا على الله، ﴿وَكَانُوا۟﴾ من كثرة إنعام الله عليهم ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ من المخاوف مطمئنين في ديارهم،

فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحا عليه السلام لأدرَّ الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم -لما كذبوا وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم وقالوا: ﴿ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ فتقطعت قلوبهم في أجوافهم وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: آمنين أن تقع عليهم.

والثاني: آمنين من خرابها.

والثالث: من عذاب الله ٥، وفي قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ قولان:

أحدهما: ما كانوا يعملون من نحت الجبال.

والثاني: ما كانوا يكسبون من الأموال والأنعام.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للحق ولإظهار الحق، وهو ثواب المصدِّق وعقاب المكذِّب. ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ أي: وإن القيامة لتأتي، فيجازى المشركون بأعمالهم، ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ عنهم، وهو الإعراض الخالي من جزع وفُحش. قال المفسرون: وهذا منسوخ بآية السيف.



(٥٠٧) أحمر
أسود

س: اذكر بعض الوارد عن رسول الله ﷺ في قوم ثمود وفي الحجر؟

ج: من ذلك ما أخرجه البخاري[(١)] من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، «لَمَّا نَزَلَ الحِجْرَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَمَرَهُمْ أَنْ لاَ يَشْرَبُوا مِنْ بِئْرِهَا، وَلاَ يَسْتَقُوا مِنْهَا»، فَقَالُوا: قَدْ عَجَنَّا مِنْهَا وَاسْتَقَيْنَا، «فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَطْرَحُوا ذَلِكَ العَجِينَ، وَيُهَرِيقُوا ذَلِكَ المَاءَ».

وأخرج البخاري[(٢)] من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا مَرَّ بِالحِجْرِ قَالَ: «**لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ**» ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالعدل ولإقامة العدل كذلك لنجازي المحسن بإحسانه، والمسيء يحاسب على إساءته، وكذلك خلقناهما وما بينهما للحق، لإقامة الحق، لعبادة الإله الحق وحده لا شريك له، وقيل: خلقناهما للزوال والفناء، وقيل: ما خلقناهما عبثًا ولا لعبًا ولا باطلًا، إنما خلقناهما لحكمة نعلمها، وخلقنا الباد كي يعبدوننا كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة، ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ لكائنة في يوم معلومس عند الله ﷻ ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ تجاوز عنهم التجاوز الحسن، وأعرض عنهم واصبر على أذاهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لكل الأشياء،

---

(١) البخاري (٣٣٧٨).

(٢) البخاري (٣٣٨٠).

وهذا دال على قدرته ﷻ، فالذي خلق الخلق كلهم قادر على بعثهم بعد موتهم، أما قوله: ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٨٦﴾، أي: العليم بكل مخلوقاته، الذي أحاط بكل شيء علمًا، ووسع كل شيء علمًا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما خلقنا الخلائق كلها، سماءها وأرضَها، ما فيهما وما بينهما، يعني بقوله ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ مما في أطباق ذلك ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ يقول: إلا بالعدل والإنصاف، لا بالظلم والجور، وإنما يعني تعالى ذكره بذلك: أنه لم يظلم أحدا من الأمم التي اقتصّ قَصَصَهَا في هذه السورة، وقصص إهلاكه إياها بما فعل به من تعجيل النقمة له على كفره به، فيعذّبه ويهلكه بغير استحقاق، لأنه لم يخلق السموات والأرض وما بينهما بالظلم والجور، ولكنه خلق ذلك بالحقّ والعدل. وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإن الساعة، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة لجائية، فارض بها لمشركي قومك الذين كذّبوك، وردّوا عليك ما جئتهم به من الحقّ، ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ يقول: فأعرض عنهم إعراضا جميلا واعف عنهم عفوًا حسنا وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦﴾ يقول تعالى ذكره: إن ربك هو الذي خلقهم وخلق كلّ شيء، وهو عالم بهم وبتدبيرهم، وما يأتون من الأفعال، وكان جماعة من أهل التأويل تقول: هذه الآية منسوخة.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ ثم نسخ ذلك بعد، فأمره الله تعالى ذكره بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، لا يقبل منهم غيره.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل؛ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧] وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: ٨٩].

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا فإن هذه مكية، والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨١-٨٣].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي للزوال والفناء. وقيل: أي لأجازي المحسن والمسيء، كما قال: ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾. ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ أي لكائنة فيجزى كل بعمله.

﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ مثل ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ [المزمل: ١٠] أي تجاوز عنهم يا محمد، وأعفو عفوا حسنا، ثم نسخ بالسيف. قال قتادة: نسخه قوله: ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾. وأن النبي ﷺ قال لهم: «**لقد جئتكم بالذبح وبعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة**»، قاله عكرمة ومجاهد. وقيل: ليس بمنسوخ، وأنه أمر بالصفح في نفسه فيما بينه وبينهم. والصفح: الإعراض، عن الحسن وغيره. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ أي المقدر للخلق والأخلاق. ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٨٦﴾ بأهل الوفاق والنفاق.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق؛ أي ليدل بذلك على أنه المستحق لأن يعبد وحده، وأنه يكلف الخلق ويجازيهم على أعمالهم.

فدلت الآية على أنه لم يخلق عبثًا ولا لعبًا ولا باطلاً، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ [ص: ٢٧]، وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ الآية [الدخان: ٣٨-٣٩]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١﴾ [النجم: ٣١]، وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧﴾ [٧٥/ ٣٦، ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ما خلقناهما عبثا وباطلا كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناهما ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الذي منه أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ لا ريب فيها لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ وهو الصفح الذي لا أذية فيه بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب، فإن كل ما هو آت فهو قريب، وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا. وهو: أن المأمور به هو الصفح الجميل أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لكل مخلوق ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾ بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.



المراد بالسبع المثاني

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾؟

ج: هذا – والله أعلم –: امتنان من الله ﷻ على رسوله ﷺ وبيان لفضله تبارك وتعالى عليه فقال له: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ ومن ثمَّ، ولكوننا تفضلنا عليك بهذا الخير العظيم فلا تنظرن إلى ما في أيدي أصناف البشر من المتاع الذي مُتعوا به في دنياهم فما آتيناك خيرٌ وأفضل مما

آتيناهم، فلا تغتر بدنياهم ولا تحزن على تماديهم في الكفر، فالله عليم بهم، وتواضع لأهل الإيمان وأقبل عليهم وجالسهم وكن سهلًا لينًا معهم.

أما السبع المثاني فللعلماء فيها أقوال:

القول الأول: والذي تشهد له الأدلة المرفوعة عن رسول الله ﷺ أنها الفاتحة (فاتحة الكتاب)، فمن الأدلة على ذلك ما أخرجه البخاري(١) من حديث أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّى، قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أُصَلِّي، فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ، فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟» فَقُلْتُ: كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ» فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ فَذَكَّرْتُهُ، فَقَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ. هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ».

وما أخرجه(٢) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمُّ القُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ».

القول الثاني: أن المراد بالسبع المثاني السبع سور الطوال ثم اختلف في تعيينها، بعد الاتفاق على بيان أكثرها فمن العلماء من قال هي، البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف فهذه ستة.

أما السابعة: فقيل هي الانفال وبراءة (كسورة واحدة) ومن العلماء من قال أنها سورة يونس هذا، ومن الذين قالوا إن السبع المثاني هي السبع الطوال، ابن عباس رضي الله عنهما فقد روى ذلك عنه من وجوه متعددة عند الطبري(٣) وغيره، وفي

(١) البخاري (٤٧٠٣)، و(٤٤٧٤).
(٢) البخاري (٤٧٠٤).
(٣) وأخرجه أيضًا أبو داود (١٤٥٩)، والنسائي (٢/ ١٣٩-١٤٠)، وغيرهما، وقد روي عن ابن عباس من طريق ابن جريج عن أبيه عن سعيد بن جبير عنه أنها الفاتحة.

بعض الروايات عنه: هن السبع الطُّول، ولم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ، وأعطى موسى منهن اثنتين، وفي بعض الروايات عنه، وأوتي موسى ستًّا، فلما ألقى الألواح رفعت اثنتان وبقيت أربع، وقد ورد القول بأنها السبع الطوال عن ابن مسعود كذلك، لكنه من طريق ابن سيرين عنه، ورواية عنه منقطعة، وصح القول عن سعيد بن جبير بأنها الطول...جعل السابعة سورة يونس، أخرجه الطبري وغيره عنه.

وكذا روى عن مجاهد من غير وجهٍ وعن غيرهم أيضًا.

والقول الثالث: أن المراد بالسبع المثاني معاني القرآن إجمالًا فتتلخص في سبع، وهي:

الأوامر، والنواهي، والبشارات، والإنذار، وضرب الأمثال، وتعديد النعم، وأخبار القرون والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ فمن العلماء من جعلا لقرآن العظيم المراد به هنا الفاتحة.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ فيه إضمار تقديره: وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام. وقد تقدم في الفاتحة. وقيل: الواو مقحمة، التقدير: ولقد آتيناك سبعا من المثاني القرآن العظيم. ومنه قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وقد تقدم عند قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال آخرون من أهل العلم: ما حاصله أن القرآن العظيم هو سائر القرآن مع الفاتحة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما قوله ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ فإن القرآن معطوف على السبع، بمعنى: ولقد آتيناك سبع آيات من القرآن، وغير ذلك من سائر القرآن.

أما لماذا أطلق على الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، فقد قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أضواء البيان:

وقيل لها «مثاني» لأنها تثنى قراءتها في الصلاة.

وقيل لها «سبع» لأنها سبع آيات.

وقيل لها «القرآن العظيم» لأنها هي أعظم سورة؛ كما ثبت عن النَّبي ﷺ في الحديث الصحيح المذكور آنفًا.

وإنما عطف القرآن العظيم على السبع المثاني مع أن المراد بهما واحد، وهو الفاتحة، لما علم في اللغة العربية: من أن الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحداهما على الأخرى تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات؛ ومنه قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ١-٤]، وقول الشاعر:

إلـى الملـك القـرم وابـن الهمـام ... وليـث الكتيبـة في المـزدحم

هذا، والقرآن كله يطلق عليه مثاني باعتبار تكرير المعاني الهامة فيه فترى التحذير من النار يتكرر والتذكير بالجنة يتكرر، وكذا التذكير بعبادة الله وحده لا شريك له والأمر بعبادته، وكذا بر الوالدين، وكذا كثيرٌ من القصص، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ...﴾ [الزمر: ٢٣] الآية.

هذا، وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بعد أن أورد بعض أقوال العلماء في السبع المثاني، وكذا أورد الأحاديث عن رسول الله ﷺ في كونها الفاتحة.

فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي

وصف غيرها من السبع الطول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم

أيضا، كما أنه، عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: عني بالسبع المثاني: السبع اللواتي هنّ آيات أم الكتاب، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ.

وأورد حديث أبي هريرة المتقدم في كونها الفاتحة، وكذا حديث أبي سعيد بن المعلى، ثم قال فإذا كان الصحيح من التأويل في ذلك ما قلنا للذي به استشهدنا، فالواجب أن تكون المثاني مرادا بها القرآن كله، فيكون معنى الكلام: ولقد آتيناك سبع آيات مما يَثْنِي بعض آيه بعضا. وإذا كان ذلك كذلك كانت المثاني: جمع مَثْناة، وتكون آي القرآن موصوفة بذلك، لأن بعضها يَثْنِي بعضا، وبعضها يتلو بعضا بفصول تفصل بينها. فيعرف انقضاء الآية وابتداء التي تليها، كما وصفها به تعالى ذكره فقال ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ وقد يجوز أن يكون معناها كما قال ابن عباس والضحاك: ومن قال ذلك أن القرآن إنما قيل له مَثَانِي لأن القصص والأخبار كرّرت فيه مرّة بعد أخرى. وقد ذكرنا قول الحسن البصريّ أنها إنما سميت مَثاني لأنها تُثْنَى في كلّ قراءة، وقول ابن عباس: إنها إنما سميت مثاني، لأن الله تعالى ذكره استثناها لمحمد ﷺ دون سائر الأنبياء غيره، فادّخرها له.

وكان بعض أهل العربية، يزعم أنها سميت مَثَانِيَ لأن فيها الرحمن الرحيم مرّتين، وأنها تُثْنَى في كلّ سورة، يعني: بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا، وقد أورد ابن الجوزي في زاد المسير في سبب تسميته الفاتحة بالسبع المثاني أقوالًا فقال:

وفي تسميتها بالمثاني سبعة أقوال:

أحدها: لأن الله استثناها لأمة محمد ﷺ، فلم يعطِها أمةً قبلهم، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثاني: لأنها تُثَنَّى في كل ركعة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. قال ابن الأنباري: والمعنى: آتيناك السبع الآيات التي تُثَنَّى في كل ركعة، وإنما دخلت «مِنْ» للتوكيد، كقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد ١٥]. وقال ابن قتيبة: سمي «الحمد» مثانيَ، لأنها تُثَنَّى في كل صلاة.

والثالث: لأنها ما أُثني به على الله تعالى، لأن فيها حمد الله وتوحيده وذِكر مملكته، ذكره الزجاج.

والرابع: لأن فيها «الرحمن الرحيم» مرتين، ذكره أبو سليمان الدمشقي عن بعض اللغويين، وهذا على قول من يرى التسمية منها.

والخامس: لأنها مقسومة بين الله تعالى وبين عبده، ويدل عليه حديث أبي هريرة: «**قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي**»(١).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٩٦) بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

والسادس: لأنها نزلت مرتين، ذكره الحسين بن الفضل.

والسابع: لأن كلماتها مثنّاة، مثل: الرحمن الرحيم، إِياك إِياك، الصراط صراط، عليهم عليهم، غير غير، ذكره بعض المفسرين. ومن أعظم فضائلها أن الله تعالى جعلها في حيِّزٍ، والقرآن كله في حيِّزٍ، وامتنَّ عليه بها امتنَّ عليه بالقرآن كله.

أما عن سائر معنى الآيتين المباركتين.

فقد قال الطبري رحمه الله تعالى:

في تأويل قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تتمنينّ يا محمد ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعا للأغنياء من قومك، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يتمتعون فيها، فإن مِنْ ورائهم عذابًا غليظًا ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ولا تحزن على ما مُتعوا به فعجّل لهم. فإن لك في الآخرة ما هو خير منه، مع الذي قد عَجَّلنا لك في الدنيا من الكرامة بإعطائنا السبع المثاني والقرآن العظيم، يقال منه: مَدَّ فلانٌ عينه إلى مال فلان: إذا اشتهاه وتمناه وأراده.

وذُكر عن ابن عيينة أنه كان يتأوّل هذه الآية قولَ النبيّ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بالقُرآن**»[1]: أي من لم يستغن به، ويقول: ألا تراه يقول ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ فأمره بالاستغناء بالقرآن عن المال، قال: ومنه قول الآخر: من أوتي القرآن، فرأى أن أحدا أعطي أفضل مما أعطي فقد عظَّم صغيرا وصغَّر عظيما.

---

(١) قلت (مصطفى): وهذا الخبر معلولٌ، ومنتقد على البخاري، انتقده عليه الدارقطني في التتبع، وصُوّب اللفظ: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به**».

وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وألِن لمن آمن بك، واتبعك واتبع كلامك، وقرِّبهم منك، ولا تجف بهم، ولا تَغْلُظ عليهم، يأمره تعالى ذكره بالرفق بالمؤمنين، والجناحان من بني آدم: جنباه، والجناحان: الناحيتان، ومنه قول الله تعالى ذكره: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] قيل: معناه: إلى ناحيتك وجنبك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥] أي: ألن لهم جانبك كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال:

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية.

ومن هاهنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح[1]: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**» إلى أنه يستغنى به عما عداه، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾، لما بين تعالى أنه آتى النَّبي ﷺ السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك أكبر نصيب، وأعظم حظ

(١) البخاري (٧٥٢٧) وهو معلول كما تقدم.

عند الله تعالى، نهاه أن يمد عينيه إلى متاع الحياة الدنيا الذي متع به الكفار؛ لأن من أعطاه ربه جل وعلا النصيب الأكبر والحظ الأوفر، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيب الأحقر الأخس، ولاسيما إذا كان صاحبه إنما أعطيه لأجل الفتنة والاختبار، وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله في «طه»: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠-١٣٢]، والمراد بالأزواج هنا: الأصناف من الذين متعهم الله بالدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾، الصحيح في معنى هذه الآية الكريمة: أن الله نهى نبيه ﷺ عن الحزن على الكفار إذا امتنعوا من قبول الإسلام، ويدل لذلك كثرة ورود هذا المعنى في القرآن العظيم؛ كقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المائدة: ٦٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

والمعنى: قد بلغت ولست مسؤولاً عن شقاوتهم إذا امتنعوا من الإيمان، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، فلا تحزن عليهم إذا كانوا أشقياء.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾، أمر الله جل وعلا نبيه في هذه الآية الكريمة بخفض جناحه للمؤمنين، وخفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح ... فلا تك في رفعه أجدلا

(٥٢٠) أحمر
أسود

وبين هذا المعنى في مواضع أُخر؛ كقوله في «الشعراء»: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وكقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

فأما قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ ففي «مِن» قولان:

أحدهما: أنها للتبعيض، فيكون المعنى: آتيناك سبعًا من جملة الآيات التي يُثنى بها على الله تعالى، وآتيناك القرآن.

والثاني: أنها للصفة، فيكون السبع هي المثاني، ومنه قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج ٣٠] لا أن بعضها رجس، ذكر الوجهين الزجاج، وقد ذكرنا عن ابن الأنباري قريبًا من هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ يعني: العظيم القَدْر، لأنه كلامُ الله تعالى، ووحيُه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيكون عطف « القرآن العظيم » على ذلك من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في المثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجليلة، وتثنيتها فيها.

وعلى القول بأن « الفاتحة » هي السبع المثاني معناها: أنها سبع آيات، تثنى في كل ركعة، وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨] ولذلك قال بعده: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: لا تعجب إعجابا يحملك

على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغترَّ بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فإنهم لا خير فيهم يرجى، ولا نفع يرتقب، فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل وأفضل العوض، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: ألن لهم جانبك، وحسِّن لهم خلقك، محبة وإكراما وتودُّدا.



س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ج: المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ: وقل يا رسول الله لمن أرسلت إليهم، وكفروا بالله وكذبوك وجحدوا وحدانية الله ﷻ، إني أنا المنذر الذي يبين لكم ماذا سيحل بكم إن أنتم خالفتم أمر ربكم ﷻ وأقمتم على كفركم، أنذركم عذابًا كالعذاب الذي أُنزل على المقتسمين.

وأنذركم إنذارًا كالذي أُنذره المقتسمون، أما من المقتسمون؟ فللعلماء في ذكرهم أقوال:

أحدها: أنهم اليهود والنصارى، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: الذين فرَّ قوة فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

الثاني: أنهم مشركوا قريش والأحزاب الكافرة الذين تقاسموا فيما بينهم على عداوة النبي ﷺ وأقسموا كذلك على أنه لا بعث ولا ثواب ولا عقاب، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ [النحل: ٣٨].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: تكلموا فيه بكلام متفرق مختلف، فقال فريق منهم: إنه سحرٌ، وقال آخرون: إنه شعرٌ، وقال آخرون:

إنها أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملي عليه بكرة وأصيلًا.

القول الثالث: أن المقتسمين هم قوم صالح الذين ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل: ٤٩].

وكونهم جعلوا القرآن عضين، أي: كذبوا رسولهم في أمور يتلوها عليهم مما أوحاه الله إليه، وصدقوا وكذبوه في أكثرها ووصفوها بأنه سحر، أو أنها مقولات مجنون.

القول الرابع: أنهم قوم من مشركي قريش اقتسموا طرفات قلة وفجاجها لاستقبال من جاء يريد الإسلام أو الحج وتواصوا بينهم أن كلًّا منهم يقول في رسول الله ﷺ قولًا، ففريق يقولون: مجنون، وفريق يقولون: ساحر، وفريق يقولون: شاعرٌ، وفريق يقولون: كذاب إلى غير ذلك من الأقوال، فهذا جعلهم القرآن عضين، أي: افترقت الآراء فيه، ففريق يقول شعر، وآخرون يقولون: سحر، وآخرون يقولون: كذب، وآخرون يقولون: كهانة، وآخرون يقولون أساطير الأولين.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يُقسم ربنا ﷻ بنفسه الكريمة ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ عما كانوا يقولون في القرآن، وفي الرسول عليه الصلاة والسلام، وعن شركهم وفسقهم وفجورهم، ومما يسألون عنه قول لا إله إلا الله.

فإن قيل كيف، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨]، وقال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩].

فحاصل الجواب على ذلك أن مواقف القيامة تتعدد وتتنوع ففي موقف يسألون، وفي آخر: لا يسألون، وقيل: إن المراد بقوله: ﴿لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ أي: سؤال الاستعتاب، أو سؤال التلطف، إنما إذا سُئل يسأل للتأنيب ويُسأل للتوبيخ والإهانة، والله أعلم.

وبنحو ما ذكر عمومًا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد للمشركين: إني أنا النذير الذي قد أبان إنذاره لكم من البلاء والعقاب أن ينزل بكم من الله على تماديكم في غيكم، ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾ يقول: مثل الذي أنزل الله تعالى من البلاء والعقاب على الذين اقتسموا القرآن، فجعلوه عِضين.

ثم اختلف أهل التأويل في الذين عُنُوا بقوله: ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾، فقال بعضهم: عني به: اليهود والنصارى، وقال: كان اقتسامهم أنهم اقتسموا القرآن وعضوه، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

وأورد بسندٍ صحيح[1] عن ابن عباس، في قوله الله: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ قال: هم اليهود والنصارى، آمنوا ببعض، وكفروا ببعض.

وأورد نحوه بسندٍ صحيح عن سعد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال آخرون: ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ أهل الكتاب، ولكنهم سموا المقتسمين، لأن بعضهم قال استهزاء بالقرآن: هذه السورة لي، وقال بعضهم: هذه لي.

وقال آخرون: هم أهل الكتاب، ولكنهم قيل لهم: المقتسمون: لاقتسامهم كتبهم، وتفريقهم ذلك بإيمان بعضهم ببعضها، وكفره ببعض، وكفر آخرين بما آمن به غيرهم، وإيمانهم بما كفر به الآخرون.

وقال آخرون: عُنِي بذلك رهط من كفار قريش بأعيانهم.

وقال آخرون: عُنِي بذلك رهط من قوم صالح الذين تقاسموا على تبييت صالح وأهله.

---

(١) وهو عند البخاري أيضًا وسيأتي إن شاء الله.

(٥٢٤) أحمر
أسود

وأورد الطبري بسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴾ قال: الذين تقاسموا بصالح، وقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨] قال: تقاسموا بالله حتى بلغ الآية.

قال الطبري:

وقال بعضهم: هم قوم اقتسموا طرق مكة أيام قدوم الحاجّ عليهم، كان أهلها بعثوهم في عقابها، وتقدموا إلى بعضهم أن يشيع في الناحية التي توجه إليها لمن سأله عن نبيّ الله ﷺ من القادمين عليهم، أن يقول: هو مجنون، وإلى آخر: إنه شاعر، وإلى بعضهم: إنه ساحر.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يُعلم قومه الذين عضَّوا القرآن ففرقوه، أنه نذير لهم من سخط الله تعالى وعقوبته، أن يَحُلّ بهم على كفرهم ربهم، وتكذيبهم نبيهم، ما حلّ بالمقتسمين من قبلهم ومنهم، وجائز أن يكون عني بالمقتسمين: أهل الكتابين: التوراة والإنجيل، لأنهم اقتسموا كتاب الله، فأقرّت اليهود ببعض التوراة وكذبت ببعضها، وكذبت بالإنجيل والفرقان، وأقرت النصارى ببعض الإنجيل وكذبت ببعضه وبالفرقان. وجائز أن يكون عُنِي بذلك: المشركون من قريش، لأنهم اقتسموا القرآن، فسماه بعضهم شعرا، وبعض كهانة، وبعض أساطير الأوّلين. وجائز أن يكون عُنِيَ به الفريقان، وممكن أن يكون عني به المقتسمون على صالح من قومه، فإذ لم يكن في التنزيل دلالة على أنه عُني به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين، ولا في خبر عن الرسول ﷺ، ولا في فطرة عقل، وكان ظاهر الآية محتملا ما وصفت، وجب أن يكون مقتضيا بأن كلّ من اقتسم كتابا لله بتكذيب بعض وتصديق بعض، واقتسم على معصية الله ممن حلّ به عاجل نقمة الله في الدار الدنيا قبل نزول هذه الآية، فداخل في ذلك

لأنهم لأشكالهم من أهل الكفر بالله، كانوا عبرة، وللمتعظين بهم منهم عِظَة.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ فقال بعضهم: معناه: الذين جعلوا القرآن فِرَقا مفترقة.

وأورد أثر ابن عباس المتقدم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ عضهوا كتاب الله، زعم بعضهم أنه سِحْر، وزعم بعضهم أنه شِعْر، وزعم بعضهم أنه كاهن.

قال أبو جعفر: هكذا قال كاهن، وإنما هو كهانة، وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين.

وأورد الطبري أقوالًا أُخر ثم قال:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر نبيه ﷺ أن يُعْلِم قوما عَضَهُوا القرآن أنه لهم نذير من عقوبة تنزل بهم بِعضْهِهِمْ إياه مثل ما أنزل بالمقتسمين، وكان عَضْهُهُم إياه: قذفهموه بالباطل، وقيلهم إنه شعر وسحر، وما أشبه ذلك.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فوربك يا محمد لنسألنّ هؤلاء الذين جعلوا القرآن في الدنيا عِضين في الآخرة عما كانوا يعملون في الدنيا، فيما أمرناهم به، وفيما بعثناك به إليهم من آي كتابي الذي أنزلته إليهم، وفيما دعوناهم إليه من الإقرار به ومن توحيدي والبراءة من الأنداد والأوثان.

وأورد آثارًا كثيرة أنهم يُسألون عن قول لا إله إلا الله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يأمر تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أن يقول للناس: إنه ﴿ٱلنَّذِيرُ

ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾ البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

وقوله: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخبارا عن قوم صالح أنهم: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩] أي: نقتلهم ليلا قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا. ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ [النحل: ٣٨] ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤] ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ﴾ [الأعراف: ٤٩] فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[(١)]، عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ! فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا، وَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فصبَّحهم الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وكَذب مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ».

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: جزؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

(١) البخاري (٧٢٨٣)، ومسلم (٦٤٨٢).

وأورد ما أخرجه البخاري[١] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أَجْزَاءً، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ، وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا سؤال توبيخ، يُسأَلون عما عملوا في ما أُمروا به من التوحيد والإيمان، فيقال لهم: لم عصيتهم وتركتم الإيمان؟ فتظهر فضيحتهم عند تعذّر الجواب. قال أبو العالية: يُسأَل العبادُ كلُّهم يوم القيامة عن خَلَّتين: عما كانوا يعبدون، وعما أجابوا المرسَلين.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] فعنه جوابان:

أحدهما: أنه لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم، وإنما يقول: لم عملتم كذا؟

والثاني: أنهم يُسأَلون في بعض مواطن القيامة، ولا يُسأَلون في بعضها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في الكلام حذف، أي إني أنا النذير المبين عذابا، فحذف المفعول، إذ كان الإنذار يدل عليه، كما قال في موضع آخر: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. قيل: الكاف زائدة، أي أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أنذرتكم مثل ما أنزلنا بالمقتسمين. وقيل: المعنى كما أنزلنا على المقتسمين، أي من العذاب وكفيناك المستهزئين، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن وقيل المشركين الذين بغوا، فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى. واختلف في

(١) البخاري (٤٧٠٥).

«المقتسمين» على أقوال سبعة: الأول- قال مقاتل والفراء: هم ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن سلكها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعي النبوة، فإنه مجنون، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن. وسموا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق، فأماتهم الله شر ميتة، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حكما على باب المسجد، فإذا سألوه عن النبي ﷺ قال: صدق أولئك. الثاني- قال قتادة: هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا، وبعضه سحرا، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين. الثالث- قال ابن عباس: هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وكذلك قال عكرمة: هم أهل الكتاب، وسموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين، فيقول بعضهم: هذه السورة لي وهذه السورة لك. وهو القول الرابع. الخامس- قال قتادة: قسموا كتابهم ففرقوه وبددوه وحرفوه. السادس- قال زيد بن أسلم: المراد قوم صالح، تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين، كما قال تعالى: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]. السابع- قال الأخفش: هم قوم اقتسموا أيمانا تحالفوا عليها. وقيل: إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبه بن الحجاج، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ أي لنسألن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا في الدنيا. وفي البخاري: وقال عدة من أهل العلم في قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ عن لا إله إلا الله.

قلت: والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه في كتاب «التذكرة».

فإن قيل: وهل يسأل الكافر ويحاسب؟ قلنا: فيه خلاف وذكرناه في التذكرة. والذي يظهر سؤال، للآية وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]. فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]. قلنا: القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، موطن لا يكون ذلك فيه. قال عكرمة: القيامة مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها. وقال ابن عباس: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا، لأن الله عالم بكل شي، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم: لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟ واعتمد قطرب هذا القول. وقيل: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ يعني المؤمنين المكلفين، بيانه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨]. والقول بالعموم أولى كما ذكر. والله أعلم.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، في المراد بالمقتسمين أقوال للعلماء معروفة، وكل واحد منها يشهد له قرآن؛ إلا أن في الآية الكريمة قرينة تضعف بعض تلك الأقوال:

الأول: أن المراد بالمقتسمين: الذين يحلفون على تكذيب الرسل ومخالفتهم، وعلى هذا القول فالاقتسام افتعال من القسم بمعنى اليمين، وهو بمعنى التقاسم.

ومن الآيات التي ترشد لهذا الوجه قوله تعالى عن قوم صالح: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ...﴾ الآية [النمل: ٤٩]، أي: نقتلهم ليلاً، وقوله: ﴿بِٱللَّهِ

جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه؛ فسموا مقتسمين.

القول الثاني: أن المراد بالمقتسمين: اليهود والنصارى، وإنما وصفوا بأنهم مقتسمون؛ لأنهم اقتسموا كتبهم فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها.

ويدل لهذا القول قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ الآية [البقرة: ٨٥]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ الآية [النساء: ١٥٠].

القول الثالث: أن المراد بالمقتسمين: جماعة من كفار مكة اقتسموا القرآن بأقوالهم الكاذبة، فقال بعضهم: هو شعر، وقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأولين، وقال بعضهم: اختلقه محمد ﷺ.

وهذا القول تدل له الآيات الدالة على أنهم قالوا في القرآن تلك الأقوال المفتراة الكاذبة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤]، وقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

والقرينة في الآية الكريمة تؤيد هذا القول الثالث، ولا تنافي الثاني بخلاف الأول؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾، أظهر في القول الثالث، لجعلهم له أعضاء متفرقة بحسب اختلاف أقوالهم الكاذبة، كقولهم: شعر،

سحر، كهانة، الخ.

وعلى أنهم أهل الكتاب: فالمراد بالقرآن كتبهم التي جزؤوها فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، أو القرآن؛ لأنهم آمنوا بما وافق هواهم منه وكفروا بغيره.

وقوله: ﴿عِضِينَ﴾، جمع عضة، وهي العضو من الشيء، أي: جعلوه أعضاء متفرقة، واللام المحذوفة أصلها واو. قال بعض العلماء: اللام المحذوفة أصلها هاء، وعليه فأصل العضة عضهة. والعضه: السحر؛فعلى هذا القول فالمعنى:جعلوا القرآن سحراً؛كقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ٢٤]، وقوله: ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ [القصص: ٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

والعرب تسمي الساحر عاضها، والساحرة عاضهة، والسحر عضها، ويقال: إن ذلك لغة قريش؛ ومنه قول الشاعر:

أعوذ بربي من النافثات في عقد العاضه المعضه

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ أي: قم بما عليك من النذارة وأداء الرسالة والتبليغ للقريب والبعيد والعدو والصديق، فإنك إذا فعلت ذلك فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

وقوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: أصنافا وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهوونه، فمنهم من يقول: سحر ومنهم من يقول: كهانة ومنهم من يقول: مفترى إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قدحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدى.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ أي: جميع من قدح فيه وعابه وحرفه وبدله ﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ وفي هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون.



ما العمل عند استهزاء المستهزئين

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: فبلِّغ ما أمرت بتبليغه، بلاغًا واضحًا، بلاغًا تفرق بين الحق والباطل تصدع به صفوف المشركين، وأعرض عن من استمر منهم على شركه، وأعرض عن أهل الشرك ولا تُبالي بهم ولا تلفت إليهم ولا تعبأ بهم، فقد كفيناك شرهم وحفظناك من هؤلاء الذين يستهزئون بك ويسخرون منك، كفيناك شرور هؤلاء الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وعبدوا مع الله ﷻ آلهة أُخرى، فسوف يعلمون عاقبة شركهم وعاقبة كفرهم وبطلان ما هم عليه.

ثم يُواسي الله ﷻ نبيه ﷺ بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ بما يصفونك به إذ يقولون ساحر، ويقولون: شاعرٌ، ويقولون: كذاب، ويقولون: كاهنٌ ومجنون إلى غير ذلك من مقولاتهم الباطلة.

فهذا القول منهم يا رسول الله لا يخفى علينا، ولا يخفى علينا ضيق صدرك بسببه فأكثر من ذِكر الله ﷻ وتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره، فإن ذلك يُذهب ما بصدرك من ضيق وهم وغم، وكذا صل مع المصلين، فالأذكار

والصلاة من أنفع العلاجات لضيق الصدر، ولإذهاب الهموم والغموم، وقد قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أما قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ فمعناه: فاستمر في عبادة ربك ﷻ واثبت على ذلك حتى يأتيك الموت فعبادة الله وطاعته والخضوع له والسمع والطاعة، كل ذلك يلازمك حتى الموت، وك الصلاة له كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣١] فاليقين هو الموت. كما سيرد في قول النبي ﷺ في شأن عثمان بن مظعون لما مات: «**أمَا هو فقد جاءه اليقين من ربه**». ويمكن أن يحمل قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، أي: حتى يأتيك ما تتيقن به أن ما أُخبرت به من ملائكة الموت وقبضهم حق وذلك عند حضور موتك. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويعني بقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فأمض وأفرُق.

وأورد عن ابن عباس بأسانيد فيها مقال ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فأمضه، وفي رواية: افعل ما تؤمر.

وعن ابن زيد بسندٍ صحيح: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ **قال:** بالقرآن الذي يوحى إليه أن يبلغهم إياه.

قال الطبري:

وأما قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ويقول تعالى ذكره لنبييه ﷺ: بلغ قومك ما أرسلتَ به، واكفف عن حرب المشركين بالله وقتالهم. وذلك قيل أن يفرض عليه جهادهم، ثم نَسَخَ ذلك بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد، الذين يستهزئون بك ويسخرون منك، فاصدع بأمر الله، ولا تخف شيئا سوى الله، فإن الله كافيك من ناصبك وآذاك كما كفاك المستهزئين. وكان رؤساء المستهزئين قوما من قريش معروفين.

وأورد بسندٍ صحيح عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ قال: كان المستهزئين: الوليدُ بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأبو زمعة والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن عيطلة.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ وعيد من الله تعالى ذكره، وتهديد للمستهزئين الذين أخبر نبيه ﷺ أنه قد كفاه أمرهم بقوله تعالى ذكره: إنا كفيناك يا محمد الساخرين منك، الجاعلين مع الله شريكا في عبادته، فسوف يعلمون ما يلقون من عذاب الله عند مصيرهم إليه في القيامة، وما يَحُلّ بهم من البلاء.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولقد نعلم يا محمد أنك يضيق صدرك بما يقول هؤلاء المشركون من قومك من تكذيبهم إياك واستهزائهم بك وبما جئتهم به، وأن ذلك يُحْرِجك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ يقول: فافزع فيما نابك من أمر تكرهه منهم إلى الشكر لله والثناء عليه والصلاة، يكفك الله من ذلك ما أهمّك، وهذا نحو الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ، أنه كان إذا حَزَبَه أمر فَزِع إلى الصلاة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: واعبد ربك حتى يأتيك الموت، الذي هو مُوقَن

(٥٣٥) أحمر
أسود

به. وقيل: يقين، وهو موقَن به، كما قيل: خمر عتيق، وهي معتَّقة.

وأورد عدة آثار في معنى ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ وأنه الموت.

وأورد حديث أم العلاء امرأة من الأنصار قد بايعت رسول الله ﷺ أخبرته أنهم اقتسموا المهاجرين قُرْعة قالت: وطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فوَجع وجعه الذي مات فيه، فلما تُوُفِّي وغسِّل وكُفِّن في أثوابه، دخل رسول الله ﷺ، فقلت: يا عثمان بن مظعون رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك، لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَّا هُوَ فَقَدْ جاءَهُ اليَقِينُ، وَوَاللهِ إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ**»(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله. ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: ٩] ولا تخفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبودا آخر.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر. فلا يهيدنك ذلك، ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

(١) وأخرجه أيضًا البخاري (١٢٤٣) وغيره.

وأورد ابن كثير أقوالًا أيضًا في أن المراد باليقين الموت ثم قال:

والدليل على ذلك قوله تعالى إخبارا عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٣-٤٧].

وأورد حديث أم العلاء الأنصاري المتقدمة ثم قال: ويستدل من هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ -على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتا فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري[1]، عن عمران بن حصين، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**».

وقال ابن كثير أيضًا:

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه. ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فإنه جواد كريم.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي بالذي تؤمر به، أي بلغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم، فقد أمرك الله بذلك. والصدع: الشق. وتصدع

(١) البخاري (١١١٧).

القوم أي تفرقوا، ومنه ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾ أي يتفرقون. وصدعته فانصدع أي انشق. أصل الصدع الفرق والشق. قال أبو ذؤيب يصف الحمار وأتنه:

وكأنهن ربابة وكأنه يسر يفيض على القداح ويصدع

أي يفرق ويشق. فقوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ قال الفراء: أراد فاصدع بالأمر، أي أظهر دينك، ف« ما» مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر. وقال ابن الأعرابي: معنى اصدع بما تؤمر، أي اقصد. وقيل: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ أي فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض، فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ أي عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم، فقد برأك الله عما يقولون.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾، في هذه الآية الكريمة قولان معروفان للعلماء:

أحدهما: أن معنى ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾، أي: لا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا يصعب عليك ذلك، فالله حافظك منهم.

والآية على هذا التأويل معناها: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾، أي: بلغ رسالة ربك، ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾، أي: لا تبال بهم ولا تخشهم، وهذا المعنى كقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

الوجه الثاني: وهو الظاهر في معنى الآية: أنه كان في أول الأمر مأموراً بالإعراض عن المشركين، ثم نسخ ذلك بآيات السيف، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ

﴿١٠٦﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾ [السجدة: ٣٠]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال الشنقيطي أيضًا:

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾، أمر جل وعلا نبيه ﷺ في هذه الآية بأمرين، أحدهما قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، والثاني قوله: ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [١٥/ ٩٨].

وقد كرر تعالى في كتابه الأمر بالشيئين المذكورين في هذه الآية الكريمة، كقوله في الأول: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ٣]، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأصل التسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء، ومعناه في عرف الشرع: تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله، ومعنى ﴿سَبِّحْ﴾: نزه ربك جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: في حال كونك متلبسًا بحمد ربك، أي بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال؛ لأن لفظة ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أضيفت إلى معرفة فتعم جميع المحامد من كل وصف كمال وجلال ثابت لله جل وعلا، فتستغرق الآية الكريمة الثناء بكل كمال؛ لأن الكمال يكون بأمرين، أحدهما: التخلي عن الرذائل، والتنزه عما لا يليق، وهذا معنى التسبيح والثاني: التحلي بالفضائل والاتصاف بصفات الكمال، وهذا معنى الحمد، فتم الثناء بكل كمال، ولأجل هذا المعنى ثبت في الصحيح عنه ﷺ، أنه قال: «**كلمتان خفيفتان على اللِّسان،**

ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرَّحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، وكقوله في الثاني وهو السجود: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق: ١٩]،وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت: ٣٧]، ويكثر في القرآن العظيم إطلاق التسبيح على الصلاة.

وقالت جماعة من العلماء: المراد بقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾، أي: صل له، وعليه فقوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾، من عطف الخاص على العام، والصلاة تتضمن غاية التنزيه ومنتهى التقديس. وعلى كل حال فالمراد بقوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾، أي: من المصلين، سواء قلنا إن المراد بالتسبيح الصلاة، أو أعم منها من تنزيه الله عما لا يليق به؛ ولأجل كون المراد بالسجود الصلاة لم يكن هذا الموضع محل سجدة عند جمهور العلماء، خلافًا لمن زعم أنه موضع سجود.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ لك من التكذيب والاستهزاء، فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يهملهم.

فأنت يا محمد ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه ويعينك على أمورك.

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ أي: الموت أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبا في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷺ تسليما كثيرا.

(٥٤٠) أحمر
أسود

ثم أمر الله رسوله أن لا يبالي بهم ولا بغيرهم وأن يصدع بما أمر الله ويعلن بذلك لكل أحد ولا يعوقنه عن أمره عائق ولا تصده أقوال المتهوكين، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: لا تبال بهم واترك مشاتمتهم ومسابتهم مقبلا على شأنك، ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ بك وبما جئت به وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة. وقد فعل تعالى فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة.

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله، فإنهم أيضا يؤذون الله ويجعلون معه ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غب أفعالهم إذا وردوا القيامة.

تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الحجر.

